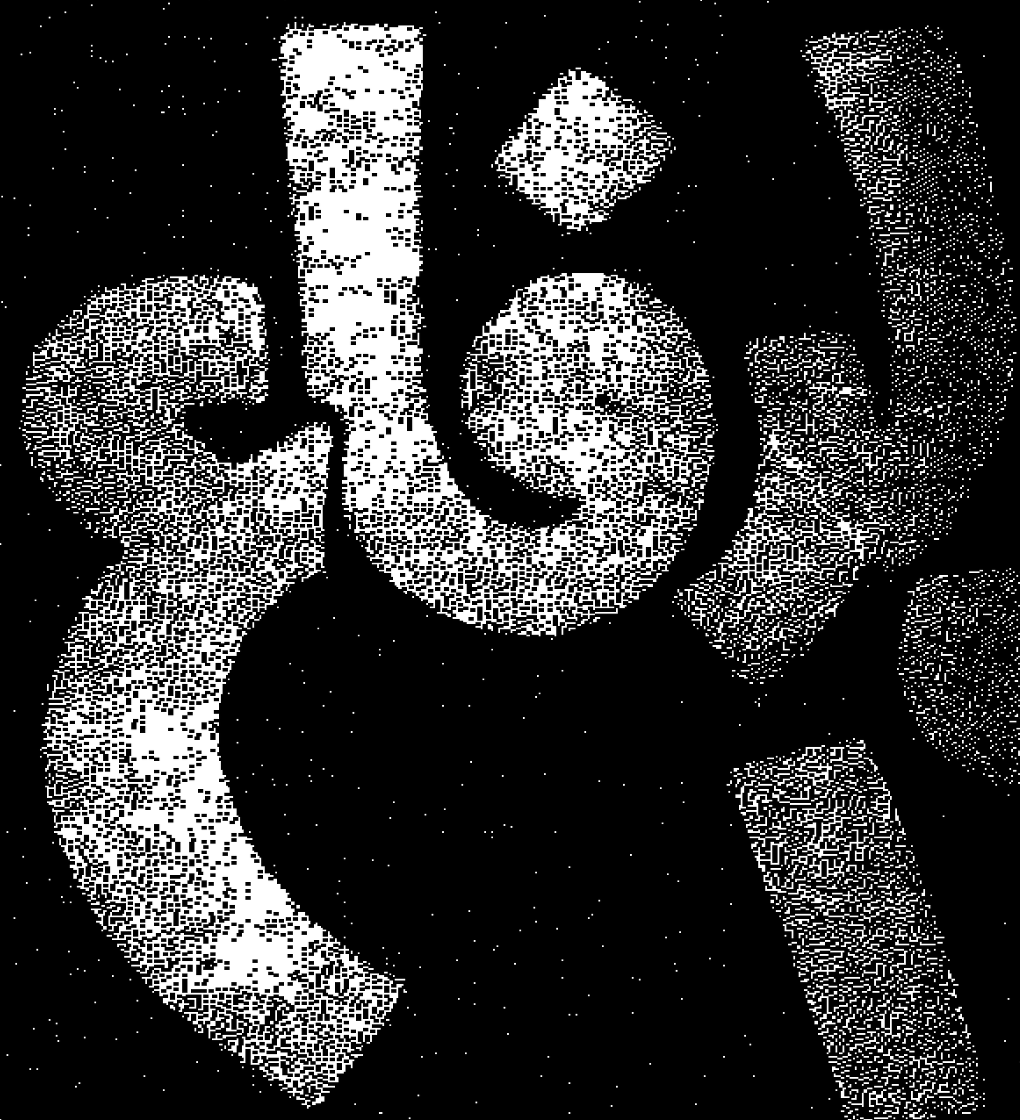


الناشر
مكتبة وهبة

الدين
في موقف الدفاع

مطبعة مخيمر ت ٤٧١٩٣

فتحي عثمان

الدين في موقف الدفاع

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية : بعابدين

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

« الدين .... فى موقف الدفاع »

وخير دفاع عن الدين .... أن يكون فى موقف الدفاع !

فوقوف الدين موقف الدفاع مشحون بالمعانى الكبيرة ....

● منها : أن الله قد جعل الدين موافقا لسنن الكون وفطرة الإنسان ...

الكون فى حركة : أحداث فلكية ، وتغيرات جيولوجية ....

والإنسان فى حركة : تطورات بيولوجية وسيكلوجية ، فردية واجتماعية ....

والفكر فى هذا العالم المتحرك المتغير لابدّ أن يتحرك ويتغيّر أيضا ....

ومن هنا جاء « الديالكتيك » فى عالم الفكر ، موافقا « للديناميك » فى عالم المادة ....

والدين إذ يعرض نفسه على العقل فى هذا الكون ، يتلائم مع السنن والنواميس . . . .

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

● ومن معانى وقوف الدين موقف الدفاع : إعلان الثقة بالإنسان ، وعقل الإنسان . . .

إن الإنسان ليس إلها حكيما ، وليس نبيا معصوما ، وليس مَلَكا مطهرا ... ومع ذلك فإن الإنسان قد خاطبه الله بالبرهان ، وجاءت الرسالات والنبوات من أجله ، وأرسل الملائكة فى خدمته ....

وجريرة الغرور والبطر، ليست دون جريرة الهوان والصغار . . .

« كتاب أنزل إليك . . . فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين »

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . . . إلا تذكرة لمن يخشى »

« إن نشأ ننّزل عليهم من السماء آية . . . . فظلت أعناقهم لها خاضعين »!

« كتاب فصلت آياته . . . قرآنا عربيا . . . لقوم يعلمون »

« إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم ، وما يبث من دابة آيات لقوم يؤمنون . واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح — آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » ! !

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه . . . . ليبيّن لهم »

« كتاب أنزلناه إليك مبارك . . . . ليدّبروا آياته . . . وليتذكر أولو الألباب »

« فذكر . . . إنما أنت مذكّر ... لستَ عليهم بمسيطر »

• ومن معانى وقوف الدين موقف الدفاع : أن الله لايتعامل مع خلقه بالجبر ولو على الخير ، وأنه يقدس حريتهم ويقرر مسئوليتهم ....

إنه لايفرض الإيمان على النفس ، ولا يمحو الكفر من الوجود ...

إنه لاينصر الدين بالخوارق ، ولا يفنى أعداءه بالمعجزات ...

إنه يترك النواميس تعمل عملها فى الفرد والمجموع ...

« ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها » . . . .

« قل فلله الحجة البالغة ، ولو شاء لهدا كم أجمعين »

« ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ، ولـكن ليبلو بعضكم ببعض »

« ولو أن قرآنا سيِّرت به الجبال ، أو قطِّعت به الأرض ، أو كلِّم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا »

هذا هو الدين . . . فى موقف الدفاع

فما أكرم الموقف . . . . وما أعز الدين ! !

* * *

والدين قد وقف دائما موقف الدفاع ....

وهو من أول يوم ، يعلن أن سبيله إلى العقول والقلوب هى الدليل والبرهان . . .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . . . وجادلهم بالتى هى أحسن »

« ولا تجادلوا أهل الـكتاب إلا بالتى هى أحسن »...

« وتلك حجتنا .... آتيناها ابراهيم على قومه »

والقرآن ... يسجل فى أمانة دعاوى الخصم ، قبل أن يورد الرد والتفنيد :

● إنهم لا يريدون المنطق بل يطلبون المعجزة : « ما يأتيهم من ذكر ربهم ... محدث ... إلا استمعوه وهم يلعبون » ! !

« فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » ! !

ولا يريدون بشرا بل يطلبون الملائـكة : « وأسروا النجوى الذين ظلموا . . . هل هذا إلا بشر مثلـكم » ! !

● ودعواهم أن النبوة ليست إلا من سحر الشخصية القوية : « أفتأتون السحر .. وأنتم تبصرون » !

وأن الوحى ليس إلا من قبل التأثيرات النفسية والأدبية : « بل قالوا : أضغاث أحلام . . . . بل افتراه . . . بل هو شاعر »

وأن الله والخلود والبعث والنشور تعبيرات ساذجة للطبيعة والزمان : « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر » . . .

وبعد هذا العرض الأمين ... المبين .... يأتى دور الرد والتفنيد :

فالمعجزة الحسية موقوتة محدودة : « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ... أفهم يؤمنون » ؟ ؟

والبشر هم وحدهم الذين يصلحون لمخاطبة البشر ومناقشة البشر : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم . . . فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون . وما جعلناهم جسدا لايأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين »

« وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . . لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ، جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا ... وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ، وكان ربك بصيرا » !

« ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس . . . فلمسوه بأيديهم . . . لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا : لولا أنزل عليه ملك . . . ولو أنزلنا

ملكا لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ... وللبسنا عليهم مايلبسون » ! !

أما قضية **الإيمان بالله واليوم الآخر** فيدلل عليها القرآن فى أكثر من موضع ، وبأكثر من منهج ....

يلفت النظر إلى :

● دلالة الكون ...

« تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم تؤمنون . وهو الذى مدّ الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، ونفضّل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكّرون . وهو الذى سخّر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ... وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكّرون ؟؟ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم »

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ... ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ... وغرابيب سود ... ومن الناس ،

والدواب ، والأنعام — مختلفة ألوانه كذلك . . . إنما يخشى الله من عباده العلماء » !!!

● ودلالة الإنسان . . .

«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين» «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ... فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »

« وفى أنفسكم . . أفلا تبصرون »

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها » .

● ودلالة التاريخ . . .

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين»

« فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا. أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات وفى الأرض ، إنه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا »

« فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة ، وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ! !

والدين يعطى العقل مفاتيح الطريق :

« أم خلقوا من غير شىء ... أم هم الخالقون » ؟ ؟

« لو كان فيهما آلهة إلا الله . . . لفسدتا »

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق » .

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » ! !

إن منطق هذا الدين خير تقرير وتقديس لكرامة الإنسان :

« لقد أنزلنا إليكم كتابا . . . فيه ذكركم . . . أفلا تعقلون » ؟؟؟

* * *

والدين يقف موقف الدفاع .. بالعمل

كما يقف موقف الدفاع ... بالفكر

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »

« وما لـكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » !

« وقاتلوهم حتى لا تـكون فتنة . . . ويكون الدين لله . . . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

« والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق »

« يأيهـــا الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلـكم تفلحون »

« ولقـد كتبنا فى الزبور من بعـد الذكر أنّ الأرض يرثهـا عبادى الصالحون . إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين »

إن الدين قد يواجه حربا عملية تستهدف التضييق على أتباعه أفرادا وجماعة ، ولا تـكتفى بمقاومة الفـكرة بالفـكرة . . .

والدين يفرض على المؤمنين الصبر والثبات أمام الزوابع والأعاصير . . . ومقاومتها إذا توفرت أسباب المقاومة .

وفى العصر الحديث ، تعرض المسلمون للحرب التى شنها عليهم الاستعمار الغربى فى المجالين معـا : فى عقيدتهم وفى كيانهم . . .

وكان على الإسلام أن يواجه العدوان ، بأن يقف موقف الدفاع . . — بالفـكر ، والعمل

وفى مجال الكفاح العملى تدافعت البواعث والمشاعر ، وتداخلت هواتف « الوجود القومى » مع عواطف « الوجود العقيدى » . . .

والإسلام لايضيق بالمجالات الحيوية الصغرى فى نطاق مجاله الروحى الفكرى الكبير . . . إنه لايصادر النوازع الطبيعية إلى « الأسرة » أو « العشيرة » أو « الأمة » ، مادامت لاتخدش وحدته الكبرى ....

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها ... وله كل شىء ... وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين »

« وإنه لذكر لك ... ولقومك ... وسوف تسئلون » !

* * *

والكتاب الذى بين يدى القارىء ... تسجيل لموقف الدين فى الدفاع .. الدفاع بالفكر ، والدفاع بالعمل

وفى مجال الدفاع الفكرى ... عرض الكتاب حقيقة موقف الدين فى (عقيدته) . . . وفى (نظامه) . . .

والعقيدة الدينية تمتحن فى عصر الفلسفة المادى ، إذ تقوم على الإيمان بالغيب ، والعقيدة فى الله واليوم الآخر ، وهذا مما لايدخل فى عالم المحسوس ...

وحجر الأساس فى الدين ، على اختلاف رسالات الأنبياء وشرائعهم . . . هو فى هذا الأصل العقيدى

وغاية الخير والإصلاح فى الدين ، على اختلاف رسالات الأنبياء وشرائعهم... هى فى هذا الأصل العقيدى

« فالإنسان لايتحقق توازنه النفسى والعقلى ، إلا بأن يعرف مركزه فى

هذا الكون . . . والعقيدة الربانية تجعل هذا الكون الذى خلقه الله مسخرا بأمره لعباده من بنى آدم الذين كرمهم وفضلهم تفضيلا ، ومن هنا يأمن المؤمن شر العجز الكسير وشر القوة المغرورة سواء بسواء ...

« والناس لا يتحقق فيها التوازن الاجتماعى ، إلا أن استشرفوا قوة أكبر من الإنسان ، ومتاعا أكبر من الحياة الدنيا ... فإن تجاهلوا قوة الله وحساب اليوم الآخر فسيعيشون فى حدود أنفسهم ، ومن ثم ستكون النتيجة الحتمية لمن آمن بالإنسان فقط أن يؤمن بنفسه فقط — لأنه إنسان ، لايزيد غيره من الناس عنه شيئا ! وستكون النتيجة الحتمية لمن آمن بالدنيا فقط أن يؤمن بدنياه فقط ، وعليه أن يحرز من هذه الدنيا أكبر قسط عن أى طريق ، مادامت هى غاية همه ومبلغ علمه ! وهنا تتأصل جذور الأنانية الفردية والمادية النفعية » . . .

« وكما يتسع امتداد الخلق والحياة فى الزمان والمكان ، فلا يأخذ من سر الخلق وبذرة الحياة إلا القوة الدافعة والخصائص الكامنة ، دون الشكل الظاهر والمظهر الخارج ... كذلك الدين : انطلاقة للحياة على الأرض ، يشع الدين خلاله على النفس والعقل والسلوك والتشريع ، دون أن ينحصر فى مجموعة من الكلمات والتعاليم والمظاهر الجامدة المتناهية التى تضمها الأوراق وتتناقلها الشفاه » ! ! . . . .

« (يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ... وشفاء لما فى الصدور ... وهدى ... ورحمة ... للمؤمنين)

وموعظة الله : ليست هى الكلمات المحدودات التى تحتويها دفتا المصحف ، وإنما هى الحقيقة التى تودعها هذه الكلمات فى الفكر الإنسانى . . .

« وشفاء الصدور : ليس باللحظات المعدودات التى تومض فيها ألفاظ

القرآن أمام الأبصار أو الأسماع ، وإنما هو بتربية النفس السوية البريئة من الذهان والعصاب والفصام ، والعقد والعلل والأسقام . . .

والهدى . . . والرحمة : كلمتان كبيرتان ، لايعقل أن تنحصرا فى شعارات أو شعائر . . . إن الهدى نور يضىء كل فج فى كل وقت ، والرحمة نعمة سابغة تستغرق كل بنى الإنسان فى كل بقاع العالمين .

« الدين موعظة العقل ، لينطلق العقل من بعد فيبدع إبداعه الخلاق .... والدين شفاء النفس حتى لا تعوق أزماتها قوى الإنسان الراكضة فى الآفاق ... والدين هدى ورحمة للفرد بكل طاقاته ، وللمجموع البشرى بكل أفراده ، حتى لا يستنزف الصراع المتخبط دون طائل قطرة من دم أو نفسا من حياة أو ذرة من مادة ....

« هذا هو الدين الذى تتعاقب الأجيال على الارتواء من منابعه ، فإذا كلماته الواحدة المتناهية تستحيل فكرا أو فنا أو عملا . . . وإذا كلماته الواحدة المتناهية تغدو مصدرا لصور من الفوز والفلاح غير متناهية » . . .

« وحقيقة الإيمان تستحق هذا الرتل المتعاقب من رسل الله ، وتستحق مالقوا من عنت فى سبيل الله . . .

« إن الإيمان بأن (لا إله إلا الله) يفرد الله بخصائص الاستعلاء والكبرياء التى لاتنبغى لأحد غيره ، فهو الحاكم القهار وحده الذى فطر الناس على معرفته وطاعته ، يسلمون له فى السراء والضراء ، ولا يحمدون على مكروه سواه . . أما موقف البشر مع بعضهم فهو غير هذا الموقف ، إذ يختارون حاكمهم — فلا يفرض عليهم ، ويناقشونه الحساب فيحمدون له ويسخطون منه ، فإذا ما تطاول أحد إلى هذا المقام الأعلى متعدياً الحدود فقد

من خصائص الله المقررة فى منطق المؤمنين ، المنسكبة فى وجدانهم : (لا يسأل عما يفعل . . وهم يسألون) ! !

« والإيمان بأن (لا إله إلا الله) يفرد الله بخصائص الاستعلاء والكبرياء التى لا تنبغى لأحد غيره ، فهو وحده (ليس كمثله شىء) ، وهو وحده (لم يكن له كفوا أحد) . . والناس بعد ذلك — كلهم — أشباه وأنداد ، كلهم مخلوقون وكلهم عباد ، وكلهم فى ذلك سواء . وهم حين يحرسون سواسيتهم ، يحرسون إيمانهم حتى لا يعلو عليهم إلا الخالق المعبود ، ويعوذون بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ! !

« والإيمان بأن (لا إله إلا الله) يفرد الله بخصائص الاستعلاء والكبرياء التى لاتنبغى لأحد غيره ، فهو وحده الرزاق الذى يعطى ويمنع ، ليبلو الناس هل يؤدون الحقوق وهل يطلبون الحقوق . . والخلق بعد ذلك مطالبون بأن يتداولوا عطاء الله بينهم بالقسط : (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ، مطالبون بألا ينحلوا لأنفسهم حقوق المالك الأصيل الذى استخلفهم على خزائنه : (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ، (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) . فلا تجميد للطبقات ولا تأبيد للفوارق ، بل اتجاه للتكافل والتضامن ، من زاغ عنه فقد جحد نعمة الله : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق . . فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت إيمانهم فهم فيه سواء . . أفبنعمة الله يجحدون ؟ ؟)

« وجملة القول : أن الإيمان بأن (لا إله إلا الله) إعلان للأخوة الإنسانية عن طريق إفراد الله بالربوبية . . »

« والدين . . كما أراده الله لعباده . . مورد لا ينفد ، ومعين لا ينضب ، ورصيد موجب يقابل سوالب الحياة واستهلاكها بدفعات تأتى فى وقتها لتعوض

النقص وتشفى أزمة النفس : (الذين آمنوا ، وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . .

« والدين لو تعلمه الناس كما نزل ، لبدأوا بالعقيدة أولا . . فهى الأساس الذى إن تقبلوه أفادوا من الشعائر وتشربوا الشرائع واعتادوا على الآداب .·. العقيدة هى التى تبنى فى صميم الوجدان أخلاق الفكر ، وأخلاق النفس ، وأخلاق السلوك . .

« لكننا حين نتعلم الدين ونُعَلِّمه ، نبدأ من حيث انتهى الوحى . . نبدأ بالشعائر التى تأخر فرضها حتى الإسراء ، أو بالشرائع التى لم تنزل إلا بعد حادث الهجرة ، فيفتقد تفكيرنا المنافذ ولا تتفاعل مع نفوسنا الأصول ، وتحجزنا عن الانطلاق أسوار وأشكال وألفاظ ، إما أن نحطمها فنحطم الدين معها — فهذا ما فهمناه ، وإما أن نسجن داخلها صاغرين »(*) ! ! ! .

ويبدو أن عرضنا للدين حتى فى صورته المعاصرة . . لا يخلو من قصور

فقد فتنتنا (الإزم ism) . . أو المذاهب والنظم التى تزحم العالم . . فأحببنا أن نعرض الإسلام فى صورة نظام .·. نظام سياسى ، أو نظام إجتماعى ، أو نظام اقتصادى

وغفلنا عن أن لكل نظام أساسه الفلسفى . . للشيوعية فلسفتها فى المادية الجدلية ، وللديمقراطية فلسفتها فى الحرية الفردية . . ومن هنا ينبغى أن نعطى جل اهتمامنا لعرض الأساس الفلسفى للإسلام ، متمثلا فى عقيدته فى الإيمان بالله واليوم الآخر . .

● والامتحان الحقيقى الذى يواجه الدين عامة فى عصرنا ، هو فى أساسه العقيدى

(*) من رسالة « الدين للواقع » ـ للمؤلف

• والاحتياج الحقيقى الذى يلح على الإنسان فى عصرنا ، هو فى الجوعة الروحية النفسية . .

• والهدف الحقيقى الذى توخّته الديانات ، هو فى إرساء أساس العقيدة لتحقيق سعادة الإنسان . .

فالمذاهب والنظم الوضعية العصرية ، قد حققت — على اختلاف مناهجها وأساليبها — كثيراً من مطالب الإنسان المادية والتنظيمية . .

وبقى الفراغ المهول . . يطل من وراء (المادة) ، ومن وراء (التنظيم) ! !

وتراقصت (المادة) نفسها باضطراب نفوس العاملين فيها . . واهتز (التنظيم) من جراء أزمات الأفراد والجموع ! !

ومعجزة (النظام) فى الدين . . هى فى الأصول العقيدية التى يرسيها فى أعماق النفوس لتكون مصدراً دائماً ورصيداً متجدداً للنظام ! !

ونظرة إلى رسالات الله المتتابعة . . تريناأن اختلاف شرائع الله على مر العصور لم تحجب المجتمعات عن الإفادة من حكمة الدين الأساسية وأصله الجامع . . من (العقيدة) . . فعن طريقها « يسمو الدين بدوافع الخضوع فى نفوس البشر ، حتى لا يساء استخدامها فى الانقياد للناس والأهواء ، ويحكم صمامات النفس بعروة العقيدة الوثقى فلا يأس ولا بطر ، ويصرف مشاعر الخوف والرجاء إلى من لا يتجبر بها بغير الحق إذ هو غنى عن العالمين » .

ونظرة إلى تراث الفقه الإسلامى ، تدلنا على مدى اختلاف النتائج التى توصل إليها الفقهاء وفق مناهجهم فى الاستدلال . . ومدى اختلاف الأحكام التى تنتسب كلها إلى الإسلام . . فرب دم يهدره فقيه ويحصنه آخر ، ورب مال يحله فقيه ويحرمه آخر ، ورب علاقة يجيزها فقيه ويحظرها آخر . . والترجيح

بين هذه الآراء اجتهادى ، واحتمالى . . ومعجزة الدين وآثاره الإصلاحية قائمة سواء أطبق هذا الرأى أو ذاك !

- ومن هنا قدّم الكتاب دفاع الدين فى أساسه الاعتقادى . .
- وأعقب ذلك بدفاع عن مواضع من الجانب التنظيمى
- وكانت خاتمة الكتاب ، عرض لدفاع الدين فى مجال العمل.

وقد يجد القراء فى فصول هذا الكتاب نهجاً من حيث (الشكل) يخالف ما عهدوه فى كاتبه من قبل . . على أنى أرجو ألا يفتقدوا فيه المقوّمات الأصيلة للبحث من حيث (الموضوع)

« قل أغير الله أبغى ربا . . وهو رب كل شىء . . ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . . ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم »

« وقل للذين لا يؤمنون . . اعملوا على مكانتكم . . إنا عاملون . وانتظروا ، إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فأعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون »

« وإنا وإياكم لعلى هدى . . أو فى ضلال مبين ! . . قل لا تسئلون عما أجرمنا ، ولا نسئل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم » ؟

فتحى عثمان

الدّين ...
والفلسفة المادّية

الدين ... فى موقف الدفاع

فى ثنايا مقال للأستاذ عباس العقاد ، ذكر الكاتب الكبير : أن « الدين يقف الآن موقف الدفاع » . . .

لقد أحدثت (الآلة) تغيراً جذرياً فى بناء النفوس والعقول والمجتمعات ، ورافق هذه التحولات الخطيرة الاتجاه الاستعمارى الذى جعل الدين فى البلاد الشرقية يتعرض لضغط التطور ودفع الغزو فى وقت واحد ، وشملت آثار العصر المادى الجديد الإسلام فى الشرق كما بلغت من قبل الديانة المسيحية فى الغرب . لكن المسيحية الغربية — بمنظماتها المختلفة ، وإمكانياتها الواسعة — قد تصلبت فى الدفاع فظهرت الكتابات المختلفة فى هذا الصدد ، وسمى هذا الاتجاه بالاتجاه الدفاعى أو الاعتذارى Apologia — لأنه يعتذر لما يرفضه العقل الحديث فى شأن الدين هناك . ومن الكتابات الممتعة الموجزة فى هذا الاتجاه ما نشرته مؤسسة بليكان Pelican للقس البريطانى كاربنتر S. C. Carpenter عن المسيحية .

ولا يسوء المسلمين أن يقف دينهم موقف الدفاع . . . . لأنهم يعلمون أنه يقف على أرض ثابتة لا تميد ، ودينهم يعلمهم حرية النفوس والعقول ، وتناول القضايا بالمنطق والبرهان .

بل إن المسلمين يسرهم أن يروا دينهم فى موقف دفاع ، فاذا هو مع ذلك حافظ لأصالته وجدارته بالبقاء !! وإنها لضارة نافعة ، أن يضعف كيان المسلمين السياسى ، ويتعرض دينهم للهجوم الفكرى ؛ فإن الإسلام إذا ثبت فى هذه الجولة — وهو بهذا جدير — كان فى ثباته تبديد لما شاع من أن الإسلام

إنما انتصر بالقوة وحدها ، وأنه إنما انتصر لأنه واجه أعداء كان ينخر فيهم الضعف وقد كتب عليهم الزوال !

ثم إن الإسلام حين ينتصر فكرياً بعد أربعة عشر قرنا من ظهوره ، يقدم بذلك أبلغ دليل على صلاحيته للخلود ، وشموله لمختلف الاحتياجات الإنسانية ومنها النزوع إلى الترقي المستمر ، فهو دين تطورى لا يضيق بزمان ولا مكان .

ولنناقش — فى إيجاز — طابع عصرنا الذى نعيش فيه ، لنرى مدى مسايرة الدين لزماننا وبيئتنا . . . .

* * *

أول طابع للقرون الأخيرة منذ عصر النهضة الاتجاه إلى «التجربة» ، والعكوف على معالجة «المادة» ، والانصراف عن الروحيات والغيبيات وما إلى ذلك .

غير أن هذه النزعة لم تسلم من رد فعل . . . فالنزعة الرومانتيكية اتجهت إلى الخيال ، والعلوم الطبيعية قد انتهت بعد النظرية النسبية والأبحاث الذرية إلى إنزال المادة من عليائها ، وهذا ما يشير إليه أبلغ إشارة الأستاذ راندال J. H. Randall فى كتابه «تكوين العقل الحديث» حيث يقول : «إذا أشرفنا على آخر القرن التاسع عشر وجدنا أن الذرة بمالها من كتلة ثابتة اعتبرت هى الجوهر الأول ، وأن الحركة التى يعبر عنها بمعادلات علم التحريك اعتبرت هى العملية الأولية . وبالنظر لما حل منذ ذلك الحين بالمفاهيم الأساسية لهذه النظرية الشديدة السبك — المادة والطاقة والأثير — فمن الضرورى أن ندرك أن طريقة التحليل الآلى ليست متقيدة بحدود هذه النظرة الآلية المادية القديمة . فقد اعتبر علم القرن التاسع عشر بأن حركة المادة هى العملية النهائية والشكل الأخير للطاقة ، أما الطاقة الدورية فإنها قد أصبحت فى هـذه الأيام

أكثر أساسية من (المادة) . وعلى ذلك فإن علمنا لم يعد اليوم علما (ماديا) إذا أردنا الدقة فى التعبير ، وليست لقوانين الحركة الآلية من الشمول بمثل مالسلوك حقل الإشعاع ، بل قد لا تكون هذه القوانين سوى مجرد شكل خاص لذلك السلوك » !

والإسلام لم يضق بالمادة ولا بالتجربة ولم يحتقر الحس والمشاهدة ، فهو الذى تدأب آيات كتابه على لفت النظر وإثارة الانتباه إلى مشاهد الكون وآيات الوجود : إلى الأرض والجبال والماء والنبات والحيوان ، وإلى الهواء والفضاء والكواكب والأفلاك ، وإلى الإنسان فى جسده وروحه وعقله ونفسه .

والإسلام هو الذى حصر الغيبيات والسمعيات فى أضيق نطاق ، وكم شدد العلماء فى تمحيص الروايات التى تتعرض لهذه الأمور .

فالمسلمون لم يشغلهم التفكر فى الله عن الإفادة من نعمه ، والتبصر فى خلقه ، والعيش فى كونه ، والنظر فى نواميسه . فهذه الدنيا — على فنائها — هى حقل نشاط المؤمن ، ومجال اختباره ومعبره للآخرة الذى لابد منه ، وهو يعبد الله بالعلم بها والعمل فيها . ومن هنا سجل التاريخ لعلماء المسلمين اتجاها تجريبيا يغاير اتجاه الإغريق ، وقد حاول الأستاذ « جب » أن يلتمس لهذا سببا فى جذور العقلية العربية ،فرأى : « أن انصباب الفكر العربى على الأحداث الإفرادية يوجه علماء المسلمين نحو طرق التجارب العلمية ، ومن هنا يذهبون إلى أبعد مما ذهب إليه من سبقهم من علماء اليونان والإسكندرية » ،ولا يعنينا التعليل هنا بقدر ما يعنينا التقرير . وهذا هو عملاق الفلسفة الرياضية برتراند رسل يقول فى (النظرة العلمية) : « كان العرب أميل إلى التجريب من الإغريق ـ وبخاصة فى الكيمياء، فقد كانوا يأملون أن يحيلوا المعادن الرخيصة إلى ذهب وأن يكتشفوا حجر الفلاسفة وأن

يركبوا إكسير الحياة ، وكان هذا من أسباب إقبالهم على البحوث الكيميائية . وقد حمل العرب تقاليد المدنية طوال عصور الظلام ، وإليهم مرجع كثير من الفضل فى أن بعض المسيحيين أمثال روجر بيكون قد حصلوا كل المعارف العلمية التى تهيأت للشطر الأخير من العصور الوسطى »

غير أن الإسلام له قضاياه التى لا يتم الوصول إليها إلا عن طريق العمليات العقلية العليا والمنطق الفكرى المجرد ، وهذه قد لا يستطيع التجريبيون الذين لا يسلمون بغير التجربة أن يؤمنوا بها ، لكن هؤلاء أيضاً إذا كانوا راسخين فى العلم لن يستطيعوا أن يرفضوها . . وفرق بين عدم الاعتراف بالدين وبين الإلحاد ، وهو فارق دقيق يحسن التنبه إليه ، لأن الملحد لا يلحد عن تجربة محسوسة بل عن إيمان عكسى ، إيمان بالإلحاد يتدخل فيه القطع بأمور لا تدركها التجربة ويخالطه التحمس لما لا يقوم عليه دليل !

والاتجاه العلمى الآن لا تجثم على روحه المادة الكثيفة كما كان من قبل ، والتجربة نفسها صارت تمارس فى مجالات النفس كما كانت تزاول فى ميادين الطبيعة ، وكل ذلك يجعل موقف الدين ثابتاً متيناً فى موقف الدفاع . وهذا ما يعبر عنه الأستاذ العقاد حيث يقول : « إن المادة اليوم لا تصد المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ، ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها شرطاً للحقيقة الثابتة ، فإن الحقيقة المادية نفسها لا تثبت اليوم بمجرد الصلابة والجسامة ، ولا تزال ترتد إلى أصولها حتى تئول إلى عدد من الهزات فى ميدان مجهول هو ميدان الأثير وميدان الفضاء ! فالمادة فى القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد ، بل دخلته وأصبحت فى تقدير الثقات (عملية رياضية) أو نسبة من النسب التى تقاس بمعادلات الحساب !! وقد جاز لعالم كبير كالسير جيمس

جينز أن يعتبرها كذلك ، وأن يقول : (إن المعرفة الحديدة تضطرنا إلى تنقيح خواطرنا العجلى التى أوحت إلينا أننا وقعنا فى كون لا يحفل بالحياة أو لعله يعمل على مناصبتها العداء ، ويلوح لنا أن الثنائية العتيقة التى تقول بالعقل والمادة ويرجع إليها افتراض العداوة المزعومة آخذة فى الزوال ، لأن المادة الجوهرية تحيل نفسها إلى شىء من خلق العقل ومظهر من مظاهره ، ونحن نستكشف أن الكون يبدى الدليل على قدرة مدبرة أو مسيطرة لديها العقل) ! وجاز كذلك لعالم آخر كبير كالسير آرثر إدنجتون أن يقول : (إن نظرات المتصوفة لا تهمل ، وإن ملكات الإنسان التى يمازجها الشعور الدينى هى من وقائع الكون إذا كان الإنسان قد استبقاها بفعل الانتخاب الطبيعى وهو من أهم العوامل الكونية) » ! !

ومن هنا يحق لنا أن نطمئن إلى موقف الإسلام فى عصرنا ...

إن هذا العصر الذى أعلى من قيمة العقل عموماً ، وعكف عن المادة والتجربة بصفة خاصة ، يفسح المجال لهذا الدين الذى وصفه البروفسور مونتيه بما ينقله عنه توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » قائلا : « الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية ، فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق — ينطبق على الاسلام تمام الانطباق . والحق أن محمداً الذى كان متحمساً لدينه كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ونار الاقتناع — تلك الصفة القيمة التى بثها فى كثير من أتباعه — قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحى وإلهام ، على أن هذا النوع من الوحى ليس إلا صورة من العرض والتفسير ، وإن لدينه كل العلاقات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل . . وإن بساطة هذه التعاليم

ووضوحها لمي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام » .

* * *

والطابع الثانى لعصرنا الذى نعيش فيه أنه عصر «الديمقراطية والاشتراكية» وجوهر الديمقراطية والاشتراكية أن البشر متساوون متكافلون فى حقوق السلطة والمعاش ، لا يستعلى أحدهم على الآخر بحسب أو نسب ، بطبقة أو رتبة . والإسلام الذى قام على صلة العبد المباشرة بربه ، قد أقام المساواة بين الناس ، فهم جميعاً عباد الله ، لا يستعلى عليهم إلا العزيز القهار .

وكيف يضيق الفكر الإسلامى بالديمقراطيه أو الاشتراكية ، وهو قد قام على أصول الحرية فى مناهجه الجدلية العقائدية والأصولية الفقهية . ولقد ركزت الأبصار وسلطت الأنوار على آيات القرآن : « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ... وعرضت فى هذا الضوء أحاديث الرسول « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، « إنما الطاعة فى المعروف »[1] ، « المسلمون شركاء فى ثلاثة : فى الماء والكلأ والنار »[2] ، «من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادما ، أو ليست له دابة فليتخذ دابة »[3] ، « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالا فهو لورثته »[4] . ومن هنا يقف الإسلام

---

(١) روايات مختلفة للبخارى ومسلم وأبى داود والنسائى وأحمد والحاكم فى المستدرك .
(٢) أحمد وأبو داود — حسنه السيوطى .
(٣) رواه أحمد .
(٤) أحمد والبخارى ومسلم والنسائى والترمذى وابن ماجه .

ثابتالا يتزلزل أمام صيحات العدالة الاجتماعية والسياسية . . . وإن من فقهائه من قرر فى وضوح أن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع ، وأن على المجتمع أن يكفل للفرد حاجته من القوت والملبس والمسكن الذى يقيه من الحر والبرد والمطر وعيون المارة ، وأن صاحب الأرض ينبغى أن يفلحها ويزرعها بجهده المباشر ، أما إن أعطاها لمن يستغلها فهى منحة لا يجوز فيها الإيجار . . . والذى قرر هذا عاش فى القرن الخامس الهجرى ، وهو الإمام الأندلسى المجتهد الحجة أبو محمد على بن حزم .

* * *

ثم إن عصرنا عصر « علم النفس » — هذا هو طابعه الثالث . . .

فقد أرهق الناس صراعهم من أجل القوت ، واحتشادهم فى المصانع والمجامع ، واضطرابهم أمام المطامح والمطامع ، وانفعالهم من أزمات المادة والروح ، وصداعهم من ضجيج الآلة ، واحتياجهم إلى تدعيم الأسرة وشغل الفراغ وتندية الروح . . . وفى هذا القلق والألم والفزع ، ظهرت أبحاث النفس تحاول أن تسد الثغرة الروحية فى الحضارة المادية ولكن على أساس تجريبى .

والإسلام حين ربط الناس بالله لم يلههم عن النفس الإنسانية ومشكلاتها ... إنه دعاهم لعبادة الله لتطمئن نفوسهم هم لا ليتمجد الله بالتسبيح والحمد والثناء ، فما أغناه سبحانه عن طاعة الطائعين ... « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ... والإسلام جعل معرفة النفس سبيلا لمعرفة الرب « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ولم يحتقر الإسلام دوافع الحياة النفسية ، ولم يعلن معركة بين الإيمان والواقع الحيوى . فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والطعام والشراب مطالب

ضرورية ، والسعى فى طلب الرزق جهاد مبرور . ثم إن الحاجة الجنسية فطرة الله إذ خلق للناس من أنفسهم أزواجا ليسكنوا إليها وجعل بينهم مودة ورحمة ، وهى حاجة إنسانية ونعمة إلهية لا ينبغى أن تتعارض مع قداسة الواجبات الدينية : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل » ... وهل ينسى قراء الفقه الإسلامى ما يرد فيه من أحكام الطهارة التى تتعرض للإمناء والحيض وما يرد فيه من أحكام النكاح ، إلى غير ذلك من الأحكام التى يشرحها الفقهاء لأن المعرفة لايحجبها الحياء !!!

* * *

وأخيراً فإن لعصرنا طابعا عملياً هو « السرعة » . . . السرعة التى دفعتنا بها الآلة إلى الأمام تطوى لنا الزمن ، فلا نمضى الوقت فى التنقل من مكان إلى مكان ، ولا نضيع طاقة بدنية أكثر مما ينبغى فى صناعة أو عمل مادامت الآلة بطاقتها الرهيبة الجبارة سرعان ماتفعل هذا وذاك من الأعمال .

والآلة تغلغلت إلى البيت فى مطابخه ومرافقه ، وإلى الشارع والمدرسة ، وإلى الدكان والمصنع ... وأصبحت الحركة الوامضة الخاطفة هى طابع الحضارة الصناعية.

والإسلام الذى يدعو إلى العلم والعمل ، ويمجد الحركة والنشاط ، يبارك هذا الطابع ولا يضجر منه . . . .

فالإسلام لايربك الناس بالطقوس والأوراد التى لاتدع وقتا لشىء ، أو لاتدع حضارتنا السريعة لها وقتا . . . . إن شعائر الإسلام خمس صلوات خفيفة

لطيفة ، لا تستغرق دقائق معدودات ، ويغنى فيها الجمع والقصر عند السفر ، ووضوءها نظافة ويغنى عنه التيمم عند وجود العذر . والصيام شهر فى العام ، الإمساك فيه من الشروق للغروب فحسب . والتعجيل بالفطر وتأخير السحور فيه سنّة ، ويعفى منه المسافر والمريض . والحج رحلة مرة فى العمر ... وكل هذه الشعائر طابعها التيسير ورفع الحرج .

إن الإسلام يفسح المجال للمسلم لكى يذكر الله فى أعماله كلها : فى البيت والشارع والمصنع والمنجم ، فى أجواز الفضاء وأغوار الماء — ولكنه ذكر يدعو إلى التعبد بالعمل ، ومراقبة الله فى معاملة الناس ، وابتغاء الآخرة فى طلب الدنيا . فورد المؤمن فى القلب ، وتدينه بتنفيذ هدى دينه فى سائر نشاطه اليومى ، والدنيا كلها معبده ومحرابه .

فليكن ديننا إذن فى موقف الدفاع ....

إنه يستطيع الثبات فى موقفه ويستطيع أن يكرر معجزاته بأسلوب جديد .

والحضارة المادية الصناعية لم تستطع القضاء على جذور الدين فى أعماق النفس فى أى مكان من أمريكا أو أوربا ، وكل من يزور البلاد الغربية يعرف مكان الدين فى ضمير الفرد مهما انحسر مداه وضحل غوره .

* * *

والإسلام — *من ناحية الواقع التطبيقى* — لم يفقد طاقته الانتشارية حتى بعد المحن والخطوب المتلاحقة .....

يقول الصحفى الأمريكى جون جنتر Gunther فى كتابه (داخل إفريقيا) بعد أن عرض لبساطة العقيدة الإسلامية : « . . . هذا واحد من الأسباب التى تعلل : لماذا خط الإسلام مسالكه الكبرى فى قلب إفريقيا المعاصرة . فعدد

المسلمين يكاد يتضمن ثلث مجموع سكان القارة اليوم ، وهم يزدادون عدداً طوال الوقت . . وليس فى الإسلام تمييز عنصرى ، ومن ثم لا يقوم حاجز يمنع تحول البانتو أو الزنوج إلى رحابه ، ولقد انتشر انتشاراً شاملا عميا بين عباد الأوثان والحيوان ، لأن شعائره مبسطة للغاية ، بقدر مافيه من جاذبية أصيلة راسخة . . . ونقطة أخرى : إن الإسلام نظام اجتماعى كما هو دين — نظام اجتماعى يمنح المؤمن اعتقاده بالمساواة مع جميع المؤمنين الآخرين . وكثيراً ما يوصف الإسلام بأنه الأكثر ديمقراطية بين ديانات العالم » .

ولقد صوّر الدكتور محمد البهى موقف الإسلام الدفاعى فى كتابه « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » فقال : « . . الإسلام من حيث هو مبادىء لا يتوقف اعتباره على مكان معين ولا على جيل من البشر . وكما ذكر (إقبال) : الإسلام بما اشتمل عليه من مبدأ (الحركة) يعيش مع الإنسان المتحرك وفى العالم المتغير المتطور ، فهو لا يؤزم بالصليبية ولا بالماركسية إذ طالما كانت له طبيعة الموجود الخالد ، فلا يضار بالهجوم عليه من هنا أو هناك لأنه عندئذ لا يقبل الفناء . فخلود الإسلام فى رسالته ، ورسالته (التوازن) : التوازن فى قيادة الفرد لنفسه ، والتوازن فى علاقة أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض . والتوازن فى علاقة الأفراد جميعاً ما بين جار قريب وبعيد وما بين حاكم ومحكومين » .

ولكن تحول الحقيقة الكامنة فى الإسلام إلى دعوة منطلقة متميزة واعية فى واقع المسلمين . . يحتاج إلى جهود . . .

فهل تحتاج الإنسانية حقا هذه الجهود ؟ ؟ ؟

وهل يحتاج الإنسان على الأرض إلى هداية الدين ؟ ؟ ؟

الدين ... والإنسان على الأرض

« السعادة . أنتركها وديعة بين يدى العالم الآخر ؟ . .

السعادة : فلنقتنصها على الأرض . .

أسرعوا ، نحن فى عجلة ! لا ضمان فى الغد ، ولا عبرة إلا بالحاضر . .

غافل من يقامر على المستقبل ، فلنضمن أولا رفاهية بشرية صرفة » ! !

هكذا يصور بول هازار Paul Hazard « أزمة الضمير الأوربى ١٦٨٠ — ١٧١٥ م » . . .

وقد انتقلت الأزمة سريعاً من أرجاء الأرض . . ووصلت بوادرها إلينا

فما موقف الإسلام تجاه أزمة الإنسان ؟ ؟

* * *

يقولون إن عصر النهضة الأوربية هو الذى عرف للإنسان قدره ، وأنزله منزلته . . . نقل الاهتمام من (الإله) إلى (الإنسان) ، ونقل المعرفة من السماء إلى الأرض . . .

وأحدث هذا رد فعل عنيف : لقد تجرأ كوبرنيكوس وجاليليو أن يتكلما عن الفلك والطبيعة دون تقيد بما ورد فى التوراة والإنجيل ، وتجرأ العلم أن يتحدث عن عوالم هائلة لا تعد بجانبها (اللعبة الأرضية) التى يعيش عليها الإنسان شيئاً مذكوراً . . . كيف : والمفروض أن الكوكب الذى يعيش عليه الكائن الإنسانى ينبغى أن يكون أشرف ما فى الوجود ؟ ؟

واستمع الناس فى دهشة ووجل إلى بايل Bayle سنة ١٦٨٣ م يقول :

« كلما درسنا الإنسان أيقنا أن الخيلاء شهوته المتسلطة عليه ، وأنه يصطنع

الـكبر حتى فى خضم البؤس والـكرب ... تبا له ! فقد استطاع بما جبل عليه من ضعف وهوان أن يقنع نفسه بأنه لا يمـكن أن يموت دون أن يزعج الطبيعة جمعاء ، ودون أن يجبر السماء على تجشم نفقات جديدة لإنارة موكب جنازته ! فيا للخيلاء الباطلة الحمقاء ! لو أن لدينا فـكرة صحيحة عن الـكون ، لفهمنا سراعا أن ولادة أمير أو وفاته مسألة من التفاهة بمكان بالنسبة لطبيعة الأشياء ، وحتى إنه لعبث أن تتحرك من أجلها السماء ! ولـكننا نقول مع سنيكا : إن العناية الإلهية لا تغفل عنا وإننا نأخذ نصيبنا منها ، ولـكن هدفها يفوق كل ما نتصوره عنها . وإنه وإن كانت حركات السماء تعود علينا بفوائد جلى ، فلا يعنى هذا أن هذه الأجرام الهائلة تتحرك محبة فى الأرض ! ! » . . .

وماذا عن المعلومات المقدسة المودعة فى سفر التـكوين ؟ ؟

إن ريشار سيمون ينشر كتابه « تاريخ نقدى للعهد الجديد» سنة ١٦٧٨م : « فترى أى تأثير يتركه فى القارئ إذا ما انتهى ؟ إن قصة الـكتاب المقدس عن خلق الـكون لا اتساق فيها ولا انسجام ، وإنها كتبت فى أزمان جد مختلفة وبأياد لم تؤت المهارة ولا الأهلية ، وإنها على الأقل اعتراها كثير من التبديل وفى غير حذق ، حتى أصبح من المستحيل أن نميز كاتبها الأصيل » ! !

وكتب جون تولاند كتابه « المسيحية دون أسرار» Christiahity not mysterious عام ١٦٩٦م : «فالسر لفظ وثنى احتفظنا به كما احتفظنا بغيره من ألفاظ ، هو إما خرافة يجب أن نقضى عليها ، وإما صعوبة عارضة ينبغى أن نذللها ! ! إما أن تتفق المسيحية مع العقل ولا تمثل إلا مجرد ارتضاء للنظام الشامل، متجردة عن كل ما يخرج عن هذا الارتضاء نفسه — كالتقاليد والمذاهب والشعائر . . . الخ ، وإما أنه يستحيل عليها أن تعيش ! فما من شىء فى العالم

يمكن أن يكون فوق العقل ، وما من شيء يمكن أن يتعارض مع العقل ! »

ولوك يتحدث عن « المسيحية المعقولة » Christianisme raisonable :

« فيوجز العقيدة فى أصلين : الإيمان بالمسيح والتوبة ، ولا يشترط شيئاً آخر لإنقاذ الأرواح سوى قبول رسالة المسيح ، والتزام سلوك طيب — هذا يكفى جداً ! وكان يرفض الاعتقاد بأن كل سلالة آدم قد حكم عليها بعذاب أبدى لا نهائى من أجل خطيئة الرجل الأول الذى لم يسمع عنه قط ملايين من الناس » ! ! !

هل تبينت ملامح النهضة الجديدة ؟؟؟

وهل عرفت من أين أتى ردّ الفعل ضد الدين فى بلاد الغرب ؟ ؟ ؟

* * *

يقف الإسلام ثابتاً على أساس متين ، إزاء هذه الزلازل والبراكين ، عند الآخرين . .

فهو قد أوقف الإنسان من أول الأمر على حقيقة مركزه فى الكون ، دون تهوين أو تهويل ، وقد بصّره بخلق الله الذى تدركه حواسه أو لا تدركه ، وجلّى له أن الكون الفسيح بأرض وسمائه وأفلاكه محكوم بسنن منضبطة لا تشذ ولا تخطىء :

« الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ؟ »

« والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »

« وأنبتنا فيها من كل شيء موزون »

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، « وخلق كل شيء فقدره تقديراً »

« فلن تجد لسنة الله تبديلا . . ولن تجد لسنة الله تحويلا » . . . .

والذين قالوا لرسول الإسلام : إن الشمس كسفت لوفاة ابنه إبراهيم ، ردّ عليهم الردّ المفحم الحاسم :

« إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته . . ولكنهما آيتان من آيات الله[1] » .

والقرآن قد تحدث عن معجزات ، ولرسول الإسلام معجزات ، ولكن معجزة الإسلام الكبرى كانت القرآن : لا يزال يعرض للذكر والتدبر ، ومجاله هو العقل قبل كل شيء . والقرآن ينعى على الجمود والتقليد ، ويطلق العقل ليفكر ويعمل ، ويأتمنه على الحكم فى أمر العقيدة ، فيقدم له الحجة والدليل ، ويرد على المنكرين .

وشعائر هذا الدين لم تحبس الإنسان عن الدنيا ، بل هى محدودة ميسورة : ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » . ولا تدع هذه الشعائر مريضاً أو ضعيفاً أو مسافراً حتى تخفف عنه وترخص له وتيسر ما يسقط عنه الفرض بأقل جهد .

عن جابر قال : خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه ثم احتلم ، فسأل أصحابه : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات . . . فلما قدمنا على رسول الله أخبر بذلك فقال : « قتلهم الله ! ألا سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما يكفيه أن يتيمم ،

---

(١) البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه — صحيح .

ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده[١] » .

وشريعة هذا الدين تريد بالناس اليسر وترفع عنهم الحرج وتدفع المشقة وتتوقى عموم البلوى : « .. وقد فصّل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه »، « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » . وفى الحديث : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه[٢] » .

* * *

ونظرة الإسلام للإنسان . . وللحياة الدنيا ، كلها إنصاف .

إنه يعرف قدر « الإنسان » « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . . . .

ولكنه لا يسلم الإنسان للأهواء : « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » ، « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل — أولئك هم الغافلون » ، « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » ، « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » ! ! !

إن القرآن يضع تحت يد الإنسان كثيراً من مفاتيح القوى والطاقات التى أودعها الله هذا الوجود : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . . . ولكنه لا يترك الإنسان بطيش : « . . . وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة

(١) أبو داود وابن ماجه والدارقطنى — صححه ابن السكن .
(٢) الطبرانى فى الكبير — صحيح .

والسموات مطويات بيمينه » ، « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرّطنا فى الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون » ، « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسّته ليقولن ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » ، « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » ، « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بل وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

والدين قد صان الطاقة الإنسانية حين حررها من الانقياد للآلهة الباطلة ، والأهواء المتبعة . . . وقد صان الطاقة الإنسانية حين وجهها لعبادة ترضى بها أشواقها الخفية دون أن تبيع بذلك كرامة العقل أو مصالح الدنيا ، لأن إلهنا المعبود يخاطب عقولنا بالبرهان ، وهو غنىّ كريم لا يخدعنا ولا يقهرنا بالباطل ، ولا يستخف بنا ولا يسلبنا : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » .

وهذه الأعماق البعيدة فى التحرير النفسى من الداخل لا يصل إليها إلا الدين . . . إنه يقتلع الجراثيم التى يستنبتّها ويستكثرها الطغاة والمستبدون ، ويسلم زمام النفس لرب العالمين ، الذى لن يستغل هذه الطاعة لصالح طبقة أو حزب أو جنس : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

وكلما حرص المؤمن على عقيدته بالله ، كلما برئ من الشرك وأعلن الكفر بمن عداه . .

والمؤمن إذ يتمتع بحريته فى أفسح مداها ، إنما ينتظر منه أن يصيب فى مزاولة الحرية وأن يخطئ ، والخطأ ضريبة بشرية ، والدين يقرر أن هذه طبيعة الناس ويتعامل معهم على هـذا الأساس : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »[١] .

أما « الدنيا » فهى فى الإسلام مزرعة الآخرة ، لا يصح الانصراف عنها ، بل يُعبد الله بالعمل فى أرضه وابتغاء رزقه والإفادة من نعمه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينـكم مودة ورحمة » ، « هو الذى جعل لـكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ، وفى الحديث : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »[٢] .

فالإسلام يكرم الإنسان ، لـكنه لا يؤلهه بل يسلم أمره لله ، ويحل له طيبات الحياة الدنيا لـكنه يذكّره بمتاع خير وأبقى . . . والدين فى هذا يحفظ على الإنسان طاقته حتى لا تزّل ولا تتبدّد فى جحيم القلق دون قرار ، ويحقق له استمتاعه بإنسانيته ودنياه دون أن يستهلـكه الدوار فى أفق ضيق لا ينشغل فيه بغير ذاته ومصالحه وحده . . إن سجن الأنانية والنفعية ليس أرحب من سجن الخرافات والتقاليد والاستبداد ، ومع ذلك ينبغى ألا يكون الداء فى الدواء ، فتـكبت العقائد العقول وتحبس الطاقات وتغلّل الأفراد والجماعات ! !

والإسلام لم يلغ الـكيان الإنسان باسم الدين ، ولم يقم الدار الآخرة لتصرف النظر عن دنيا يتفاقم فيها الحرمان والعجز والفساد . . . .

---

(١) أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم فى المستدرك ــ صحيح .
(٢) الترمذى والحاكم فى المستدرك ــ حسن .

إن ترقّى الإنسان وازدهار الحضارة تسبيح لله العلىّ الأعلى ، وتمجيد للخالق الصانع العظيم .

* * *

والقرآن بعد ذلك كله . . . حافل بالصور الحية النابضة ذات المغزى الإنسانى الرفيع

* فالرسول فى تصوير القرآن إنسان : يمتلئ حياة وحركة ، وتزخر نفسه بالمشاعر والأحاسيس . . . إنسان حريص على نجاح دعوته بكل سبيل : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » ، « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك . . . إنما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل »

إنه داعية فكرة يتشوّق لانتصارها ، ويتطلّع لمستقبلها ، ويقلق من أراجيف الخصوم ومكائدهم ... وهذه النفس الإنسانية الحية صاحبها رسول مؤيد معصوم!

* والقرآن يعرض نماذج إنسانية حية لأفراد مؤمنين أخطأوا فتابوا : وهل حياة الإنسان إلا تردد بين الخطأ والصواب ؟ ؟ « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ،وظنوا أن لا ملجأ من الله إليه ،

ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » .

* والمجتمع الإسلامى كله ، مجتمع من البشر : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنون — هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » ، « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية — يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » ، « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » . . .

كل هذه صور إنسانية للضعف البشرى ، يقدمها الدين للنفوس فيلمسها لمسات حانية رقيقة . . .

إن الإسلام لا يريد الناس ملائكة ، حسبهم أن يجتهدوا ولو أخطأوا ، وأن ينتووا الخير ولو لم يسعفهم تحقيقه ، وأن يتوبوا إذا خالفوا : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . . . .

فإن كانوا كذلك فهم قد اهتدوا إلى جوهر الإيمان وحقيقة النفس ، لقد تحرروا من التزمت والتحلل ، من الجمود والجحود ، ولا يضرهم بعد ذلك أن يترددوا بين الطاعة والمعصية ، بين النجاح والفشل ، بين النصر والهزيمة ،

بين الكسب والخسارة — لأن هذه كلها عوارض لا بد من اجتماعها وتتابعها بالنسبة للطبيعة الكونية والإنسانية . . .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس »

* هم إذا أخطأوا فليتحملوا نتيجة خطئهم ، دون أن ينتظروا قارعة زاجرة تأتيهم مباشرة مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، إذ حصاد أيديهم وألسنتهم يكفيهم زاجراً وحده إن كانوا يزدجرون : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » ، « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً »

• وإذا ناء المسلمون بأعباء الحق فلن تتدخل المعجزات لنصرهم ، ولكن فى صبرهم ومصابرتهم ومرابطتهم الحصن الحصين والملجأ الأمين : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض »

• وسنن الكون أمام الجميع ، ينال الخير العاملون لا الخاملون — مهما كانت الملة أو الدين ، فلا محاباة فى عون الله لطائفة دون أخرى من عباد الله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ، « كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً »

ما أحوج الإنسان إلى دين الله ، فى عصرنا . . . عصر الإنسان

« من كفر . . فعليه كفره

ومن عمل صالحاً . . . فلأنفسهم يمهدون »

آلهة شتى ... !!

وقع المجتمع الأوربى فى أزمة . . .

وجاء عصر النهضة فانفجرت الأزمة ، وتمرد الناس على كلّ رابطة تربطهم بطاغية : سواء أكان دوقا إقطاعيا أم كاهناً دينيا . . . ثم جاء عصر الثورة الفرنسية والنهضة الصناعية فاشتعل البركان ضد الملوك والمتسلطين . . .

وكانت النتيجة الحتمية لرد الفعل أن يلتهب الحماس ضد كل علاقة تبعية بعد ان أضاء نور الحرية ، فرأى الهائجون فى انطلاقهم أن يشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ، وأن يتمردوا على الله أيضا : أفليس هو ملك الملوك الذى استمد منه الملوك والكهان سلطاناً طالما أذلوا به الرقاب وسفكوا الدماء ونهبوا الحقوق ؟ ؟

« لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله ! حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة ، فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل للشريرة . . . أفتريد أن لاتخاف السلطان ؟ أفعل الصلاح فيكون لك مدح منه ، لأنه خادم الله للصلاح . ولكن إن فعلت الشر فخف ، لأنه لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر . لذلك يلزم أن يخضع له — ليس بسبب الغضب فقط ، بل أيضا بسبب الضمير . فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا ، إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه . فأعطوا الجميع حقوقهم : الجزية لمن له الجزية ، الجباية لمن له الجباية ، والخوف لمن له الخوف ، والإكرام لمن له الإكرام »[1] .

---

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٣ . ١ — ٧

إن شرارة الحرية أرادت أن تحرق طغيان الفرد ولو كان إلها ، وأرادت أن تنزل كل الملوك عن تيجانهم وعروشهم . . .

« سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً »

* * *

وقالت أوربا : نريد أن نكون أحراراً . . .

فهل نجحت أوربا فى أن تحتفظ بحريتها ، وهل استطاعت أن تعيش بغير دين أو إله ؟ ؟

ما هو الدين ؟ وما أبرز خصائصه ؟ ؟

إن روجيه باستيد Bastide يقول : « للدين تعاريف لا تدخل تحت حصر ، وكل فيلسوف يعرض علينا تعريفه . . .

فهربرت سبنسر Spenser : يعرف الدين بأنه الشعور بأننا نسبح فى خضم من الأسرار ، وماكس مولر Muller : يعرفه بأنه الشعور باللانهائى ، وشليرمارشر Scheleirmarcher : يعرفه بالخضوع لوجود لا يناله إدراكا ، وفيورباخ Feuerbach : يعرفه بالغريزة التى تدفعنا نحو السعادة . . . ويقول دوركايم Durkheim : أن العنصر المشترك حقيقة بين جميع الديانات معنى أكثر اتساعا من ذلك وهو معنى الأمور المقدسة »(١) .

ولنكتف الآن من عناصر الدين وخصائصه بعنصرين أساسيين متميزين :

* الاعتقاد (بإله) معبود يكون مركز الاهتمام الكلى وقبلة الاتجاه الرئيسى فى الفكر والعمل

* الاعتقاد (بعالم الغيب) الذى يجاوز نطاق الحس ، لكى يكون

---

(١) مبادىء علم الاجتماع الدينى ـ ترجمة الدكتور قاسم ص ٢٣ : ٢٧

موضع (الإيمان) الذى يعتبر هذه الغيبيات مسلمات حقيقية ثابتة

فلننظر الآن فى جوانب الفكر الأوربى، والمجتمع الأوربى — وفى مثل هذه الجوانب فى أمريكا .... لنرى هل استطاع العالم الغربى أن يعيش بغير إله وبغير دين؟

* * *

إن فكرة الإله ليست إلا تركيزاً للاهتمامات والدوافع والعواطف حول محور أساسى، تتبلور عنده كل المطالب الجزئية والمشاعر العرضية، وتكون هى المقياس والميزان لكل خاطر أو سلوك . . . .

والفرد الذى يعيش لنفسه، إنما يؤله ذاته . . . ففى كل فكرة وعمل يزن الأمور وفقاً لمصلحته الشخصية . . . وقد يتسع أفقه فيكون مركز اهتمامه اسرته وأطفاله

والفرد الأنانى على هذا النحو لم يتحرر من الانقياد لإله، بل إن هواه يطالبه بما لا يطالبه به رب السموات والأرض، وهو فى سبيل عبادة إلهه يقيد نفسه بالكثير، ويتحمل من المخاطر الكثير

* إن الفرد الأنانى يقيد نفسه (بوجوب) إرضاء مطالب ذاته فوراً . . ولا يعترف بعقبة تحجزه، أو اعتبار يستحق أن يدخله فى تقديره . إنه أمام إلحاح من ضغوط مزاجه وهو لا يستطيع أن يؤجل أو يلغى مطالبه . . . كيف وليس فى تقديره إلا حساب ذاته ؟؟

نحن إذن أمام إنسان مسعور، تؤرقه رغباته وشهواته . . . . ولا زال يلح عليه الطلب ويندفع إلى الإجابة، فلا الطلب ينتهى ولا الإجابة تسعفه فى كل الظروف ! ! فبينما نجد إله السموات والأرض رحيما لا يكلف نفسا إلا وسعها، إذا بإله الهوى لا يقبل معذرة ولا يرضى بتسويف ! !

إن الفرائض التى تفرضها أهواء الإلحاد لأضخم فى كثير من أوامر الله الكبير المتعال !!!

والفرد الأنانى يتنازل عن الكثير فى سبيل عبادة هواه .. يتنازل أحيانا عن نزعاته الاجتماعية ، فلا يأبه لمكانه من قلوب الناس أو منزلته من المجتمع ، ويتنازل عن تقدير ما يسمى بالصالح الآجل أو الحساب النهائى ، ويغض النظر عن منفعة الجماعة التى تعود على جميع الأفراد ومنهم هو ذاته . . إنه يعيش فى الساعة التى هو فيها !

والنواهى التى تفرضها أهواء الإلحاد، وتحتم على صاحبها أن يسقطها من اعتباره ، هى تضحيات وخسائر أكبر مما يريده الله الرحيم من العباد !!!

والفرد الأنانى يتحمل الكثير من المخاطر فى سبيل عبادة هواه . . يتحمل مخاطر بدنية وعقلية ونفسية ، ويعيش فى جحيم من الاضطراب والتخليط ، وقد يتعرض فى سبيل تكليف عاجل من (وحى) إله الهوى إلى سفك دمه أو تعكير صفوه أو إلغاء عقله ... وهو يدفع ضريبة البشرية بآلامها وتضحياتها ونقائصها ولكن فى حدود الحلقة المفرغة والأفق المحدود والمجال الهزيل الذى ربط نفسه به .

إنه جحيم الدنيا يتحدر فى دركاته الملحد ، وتكلفه أهواله من الهزات والقلاقل أضعاف ما يتطلبه الإيمان بيوم الحساب !!!

« إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » .

* * *

ماذا وفر الناس على أنفسهم إذن حين كفروا بربهم ؟ ؟

آمنوا بأنفسهم ، فكلفتهم فوق ما يكلفهم دين الله . . ولربما اتسع نطاق عقائدهم ومذاهبهم ، فآمنوا (بالجماعة) أو (الأمة) أو (الدولة) وحدها دون سواها ، فإذا بالحرب الضروس تقوم بين جماعة وجماعة ، أو بين أمة وأمة ، أو بين دولة ودولة .. صراع بين الآلهة التى آمن بها من لا يريدون أن يؤمنوا (بإله) ، فكأننا فوق (جبل الأولمب) حيث لا تكف آلهة الإغريق الأسطورية عن القتال!

وتناثرت المذاهب فوق الرءوس المتطايرة فى الصراع ، فإذا بنا أمام أديان جديدة بأسماء أخرى تملك على أتباعها مشاعرهم وتأخذ عليهم عقولهم وتفكيرهم ، وإذا بنا أمام عصبيات جديدة مجنونة تسوق البشر إلى مجازر صليبية جديدة باسم (سيادة الجنس) أو ضرورة (المجال الحيوى) أو الانتصار (لفلسفة) فاشية أو استعمارية ، فردية أو جماعية . . أو ، أو . . حتى قال القائلون : نحن فى هذا القرن العشرين نخوض (أزمة التمذهب ism) وتطالعنا الرايات تخفق فوق رءوسنا ، كل منها تريد أن تنتزع لنفسها الولاء والانقياد . . أو (العبادة) — مع الاعتذار لأعداء الدين !

والولاء الجماعى كلف الناس ما كلفهم الهوى الفردى من شطط . . . وليقل لنا ذلك دوركايم حتى نصدقه :

« تمتاز الظاهرة الاجتماعية بأنها خارج شعور الفرد ، وتمتاز أيضاً بقوة آمرة قاهرة هى السبب فى أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد أراد ذلك أم لم يرد . حقاً إننى لا أشعر بهذا القهر أو لا أكاد أشعر به حين أستسلم له بمحض اختيارى ، وذلك لأن الشعور بالقهر فى مثل هذه الحال ليس مجدياً ، ولكن ذلك لا يحول دون أن يكون القهر خاصة تتميز بها الظواهر الاجتماعية ، ويدل على ذلك

أن هذا القهر يؤكد وجوده بقوة متى حاولت مقابلته بالمقاومة . . وذلك إما بأن تحول دون نفاذ فعلى إذا كان ثمة متسع من الوقت قبل وقوعه ، وإما بأن تمحو ما يترتب عليه من الآثار ، أو تضعه فى قالب طبيعى إذا كان قد نفذ بالفعل وكان جبره ممكنا ، وإما بأن تلزمنى بالتكفير عنه إذا لم يمكن جبره بحال . . وإذا كنت من أرباب الصناعة فليس ثمة ما يمنعنى من استخدام الأساليب وطرق الصناعة التى كان يستخدمها الناس فى القرن الماضى ، ولكنى لو فعلت ذلك للحق بى الدمار ما فى ذلك شك . ولو فرضنا أننى تمكنت فى الواقع من الخروج على هذه القواعد ومن خرقها بنجاح ، فلن أتمكن من ذلك إلا بشرط أن أضطر إلى صراعها ، ولو فرضنا أننى استطعت التغلب عليها فى نهاية هذا الصراع فإنها سوف تشعرنى بقوة قهرها إلى حد كاف ، وذلك بسبب ما سألقاه من مقاومتها . وليس ثمة مجدد إلا واصطدمت محاولاته بمقاومة من هذا القبيل ، حتى لو كان مجدداً سعيد الطالع[1] » .

فأين يذهب الإنسان ؟ ؟

هل فى وسعه أن يعيش بغير ولاء ، إلا إن استطاع أن ينخلع من كيانه ودوافعه ، وإن استطاع أن ينتزع نفسه من السكون والحياة ؟ ؟

« يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . . . لا تنفذون إلا بسلطان »

« قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا . . . ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله . . . كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران . . . »

« ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ، وما يتبع الذين يدعون

(١) قواعد المنهج فى علم الاجتماع — ترجمة الدكتور قاسم ص ٣٢ — ٣٣

من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون »

«مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » !

* * *

وإذا كانت الحضارة المادية قد نصبت للأفراد آلهتهم التى لا يخطئونها فى قصد ، ولا ينفكون من ربقتها فى سلوك ، فإن لهذه الفلسفة المادية (غيبها) الذى يحاول أن يرضى فى الإنسان أشواقه الخفية . . . أو يحاول الإنسان باستسلامه لهذا الغيب أن يرضى أشواقه الخفية

كتب جوستاف لوبون عن (الأصبغة الدينية التى تصبغ بها عقائد الجماعات) يقول :

« ولهذا الشعور مميزات بسيطة جداً ، وهى عبادة موجود افتُرِض سُمُوُّه وخشية ما يعزى إليه من القدرة ، والانقياد الأعمى لأوامره وتعذر الجدال فى تعاليمه ، والرغبة فى نشر هذه التعاليم وعدّ كل من يرفض اعتناقها عدوا ! ويظل ذلك الشعور الدينى من جوهر واحد على الدوام ، سواء أُطبِّق على إله خفى أو على مطلب أو فكر سياسى ، وتجد فى ذلك الشعور مافوق الطبيعة وماهو معجز على السواء !...والجماعات تُلبس مثل هذه القدرة الدينية مايغريها على التعصب، من صبغة سياسية أو زعيم منصور حينا من الزمن ! ولا يكون الإنسان متديّناً إذا عبد إلها فقط ، بل يصبح متديناً أيضا عندما يضع جميع منابع نفسه وجميع انقيادات إرادته فى خدمة قضية أو موجود غدا غاية المشاعر ورائدها ، ويمكن أن يقال إذن : إن جميع المعتقدات ذات صبغة دينية . .

لابد للجماعات من دين ، ولا تستقر المعتقدات السياسية والإلهية والاجتماعيـة

بالجماعات إلا باكتسابها شكلا دينيا على الدوام ، فتكون به فى حِمىً من الجدل ، ولو أمكن حمل الجماعات على الإلحاد لاكتسب هذا الإلحاد مافى الشعور الدينى من شدة تعصّب ، ولأضحى فى وجوهه الظاهرة ضربا من العبادة بسرعة ! !

ولنا فى تطور المذهب الوضعى مثال طريف من ذلك العدمى Nihiliste الذى روى دستويفسكى لناقصته ، فقد سطعت أنوار العقل على هذا العدمى ذات يوم لحطم صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين هيكل معبده الصغير ، وأطفأ الشموع . . . . ولم يبدد من الوقت ثانية فأحلّ محلّ الصور المحطمة كتب بعض الفلاسفة الملحدين ، كبوخنر ومولشوت ، ثم أشعل الشموع ثانية بورع ! !

أجل : لقد تحوّل موضوع معتقداته الدينية ، ولكن أيمكن أن يقال إن مشاعره الدينية تغيرت ؟ ؟ ! »[1]

هذه الحقيقة التى أبرزها الفيلسوف لوبون يقررها علم النفس بالنسبة للفرد ، كما يقررها علم الاجتماع بالنسبة للمجتمع على السواء . . . .

• يقول الدكتور عبد المنعم المليجى عن نفسية المراهق :

« ونحن نعلم أن المراهق — برغم إطلاقه العنان لتفكيره واستطلاعه ، يرى العالم من خلال مشاعره وتصوراته ... واكتساب بعض العلم بالعلوم والفنون المختلفة — دون أن يتمثلها تمثلا كافيا — يضع تحت تصرفه مادة يستغلها فى الجدال والمحاجة ، فيتلاعب بالألفاظ الضخمة ويكلف بالصيغ والتراكيب ويتشدق بالمصطلحات العلمية والفلسفية ، ويتوهم المراهق أن فكره معين لاينضب فى حين أن كتابته تكشف عن الضحالة والافتقار إلى وضوح الفكر . . ولذلك مايكاد

---

(١) روح الجماعات . ترجمة زعيتر ص ٦٨ : ٧٠

يقع على مبدأ علمى أو مذهب فلسفى يرضى تطلّعه ونزعته إلى التحرر ، حتى يتحمس له تحمساً هو أقرب إلى التعصب منه إلى الفكر العلمى الرزين . فإن كان يفيد من الثقافة العلمية الموضوعية أو الأفكار الفلسفية المتحررة ، فهو لا يفيد اتجاها موضوعيا أو منطقيا فى التفكير ، بل يفيد منها ما يؤيد طموحه إلى عقيدة مطلقة ورأى نهائى . وليس بخاف علينا انتشار كتب وآراء بعينها بين جمهور المراهقين فى الشطر الأخير من المراهقة من أمثال دارون ونيتشه وماركس ، وليس بخاف كذلك كيف أن كتابات هؤلاء كانت لدى بعض المراهقين بمثابة كتب مقدسة تحتل فى نفوسهم ما تحتله الكتب السماوية لدى المؤمنين من مكانة رفيعة .

ونحن نجد الدليل على ذلك من مذكرات رجل مثل (سلامة موسى) ، فهو يقول : (. . . ولكنى أذكر أنى وأنا دون العشرين أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكانا دينيا فى نفسى ، وأنها قد حملتنى واجبا روحيا ، وقد نما هذا الواجب فى نفسى إلى واجبات)[1] » .

وهكذا يشغل الفرد (الفراغ النفسى) وتسد (الجوعة الروحية) بأى بديل يستغرقه نفس الاستغراق . . .

• وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع أيضا ، جاء فى كتاب ماكيفر وبيج عن (قواعد الدين وقواعد السلوك) :

« . . إن بعض العبادات الخلقية مثل عقيدة أوجست كونت بشأن (المذهب الوضعى) أو جمعية الثقافة الخلقية المعاصرة تدعى أنها دينية أيضا ، وإلى جانب ذلك يوجد ما يمكن أن نسميه (الديانات) حيث ترتبط الخصائص العاطفية التى تصاحب أداء الواجبات الدينية بعناصر لادينية — بل مضادة للدين ،

(١) تطور الشعور الدينى عند الطفل والمراهق : ص ٣٠١ ــ ٣٠٢ .

كما هي الحال فى بعض تعبيرات الشيوعية أوفى أى دستور اجتماعى غير ذلك[٢] » .

فأين يهرب الناس من نوازع أنفسهم ؟؟

ألا يتواضعون للحقائق ويتأملون رصيد التجارب الإنسانية الذى خرج منه الأستاذ العقاد بتقريره الدقيق : « الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية » . . .

« ولم يكن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية لأنه مصلحة وطنية أو حاجة نوعية ، لأن الدين قد وجد قبل وجود الأوطان ولأن الحاجة النوعية بيولوجية تتحقق أغراضها فى كل زمن وتتوافر أسبابها فى كل حالة ولا زال الإنسان بعد تحقق أغراضها وتوفر وسائلها فى حاجة إلى الدين . وغرائز الإنسان النوعية واحدة فى كل فرد من أفراد النوع وكل سلالة من سلالاته ، ولكنه فى الدين يختلف أكبر اختلاف ، لأنه يتجه من الدين إلى غايه لاتنحصر فى النوع ولا تتوقف على غرائزه دون غيرها ، وليس الغرض منها حفظ النوع وكفى ، بل تقرير مكانه فى هذا الكون أو فى هذه الحياة . فالإنسان يتعلق من النوع بالحياة ، ويتعلق من الدين بمعنى الحياة . . .

فالإيمان ضرورة كونية لا تخلقها مشيئة أحد من الآحاد ، ولو كان فى قدرة الرسل والأنبياء . فإذا أجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم فى الجنس والزمن والموطن والمصلحة — فليس هذا عمل فرد ، ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضا واتفاقا من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوى الكون ، لا يفلح الرسل والأنبياء فى نشر دعوته ما لم يكن فى تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وسر التكوين . . .

وقد رأيت أناسا يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية ، فإذا بهم يستمدون من الدين كل خاصة من خواصه وكل لازمة من لوازمه ،

(٢) المجتمع — ترجمة الدكتور على عيسى ص ٣٣٣ — ٣٣٤

ولا يستغنون عما فيه من عنصر الإيمان والاعتقاد التى لا سند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى أعماق النفس لأنهم اصطنعوه اصطناعا ولم يرجعوا به إلى مصدره الأصيل ! فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شىء غير المادة ، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ من هذه فى دورات متسلسلة ، تنحل كل دورة منها فى نهايتها لتعود إلى التركيب فى دورة جديدة وهكذا دواليك إلى غير انتهاء . ويطلبون أن ينتظرو النعيم المقيم على هـذه الأرض متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية ، فإن زالت الطبقات الاجتماعية فى هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية (الفردوس) الأبدى الذى يدوم مادامت الأرض والسموات وتنتهى إليه أطوار التاريخ كما تنتهى بيوم القيامة فى عقيدة المؤمنين بالأديان ! ولا يكلف دين من الأديان أتباعه تصديقا أغرب من هذا التصديق ، ولا تسليما أتم من هذا التسليم !! ولا يخلو دين الفلسفة المادية من(شيطانه) وهو الرأسمالية الخبيثة ، فكل مافى الدنيا من عمل سوء أو فكرة سوء فهو كيد من هذا الشيطان الماكر المريد!!!

ولما طبقت هذه العقيدة على أيدى أصحاب الفلسفة المادية ، خيل إليهم أنهم ظفروا بحقيقة الحقائق واستغنوا بها عن كل ما اعتقده الإنسان فى جميع الأزمان ، ولا سيما عقائد الأديان والأوطان . وادخروها للزمن كله بل للأبد كله ، ولكنهم لم يصطدموا صدمتهم الأولى فى الحرب العالمية الأخيرة حتى لجأوا إلى الوطن وإلى الديانة ! ! !

وفحوى هـذه العبرة البالغة أن أسرار العقيدة أعمق وأصدق مما يدور بأوهام منكريها ، وأنها ذخيرة من القوة وحوافز الحياة تمد الجماعات البشرية بزاد صالح لا تستمدها من غيرها ، وأن هذه الذخيرة (الضرورية) خلقت لتعمل عملها ولم تخلق ليعبث بها العابثون كلما طاف بأحدهم طائف من الوهم أو طارئ

برأسه نزعة عارضة لاتثبت على امتحان »[1] ! !

هذه الصورة الدقيقة للأديان البديلة الكلية الشاملة totalisme يبرزها « نهرو » كذلك حيث يقول :

« ماهى الماركسية ؟ إنها طريقة لتفسير السياسة والاقتصاد والحياة والنزعات البشرية ، وهى نظرية ودعوة لعمل ما ، وفلسفة تتناول جميع نواحى النشاط الإنسانى ، ومحاولة لجعل التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله نظاما منطقياً يحمل فى طياته مصائر محتومة كالقدر ، ولكن الناس يشكون فى كون حياتهم منطقية بهذا الشكل ومعتمدة على قواعد مقطوعة مبتوت فيها »[2] ! !

وكم من نبوءات ماركس لم تصب التحقيق ؟ ؟

* * *

لا ملجأ من الله إلا إليه . .

تلك عبرة الواقع ، وما أفدح الثمن الذى دفعته البشرية للتخلص من الدين والإله . . .

لقد وقعت فيما أرادت أن تتوقاه . . . وآمنت بأضعاف ما أرادت أن تتحرر منه حين تكفر بالله ! !

أما المؤمن بالله ، فهو كافر بكل ما عداه . . .

يؤمن بالله فيتحرر من كل الضغوط والنزوات ، وتنطلق قواه التى لا ترضخ لغير فاطرها ، والتى يكسبها الإيمان قوة دافعة إذ يرضى الأشواق الخفية ويحطم أغلال الآلهة الباطلة والظاهرة ويوازن بين شتى الدوافع والاحتياجات !

«فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق

---

(١) من مقدمة « الفلسفة القرآنية »

(٢) لمحات من تاريخ العالم ــ طبع بيروت ص ١٦٨

الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

وكم تتبدد طاقات الناس بين الضعف الكسير والكبر المغرور . . . وكم تضيع فى التخبط والتمزق قوى كانت تأتى بربح أوفر لو أنفقت فى الاعتقاد المستنير ، المتجه إلى قبلة واحدة ومعبود ليس له شريك !

« قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحبّ إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

يريد الإنسان أن يتحرر من الخوف حتى من الله ، فإذا به يخاف من القطة السوداء ، ورقم ١٣ ، وتشكيلة عجيبة من أوهام التشاؤم ، ويتفاءل بتشكيلة أخرى أعجب من ألوان المبشرات !!

« والذين كذّبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات ، من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم »

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين .

والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، حبطت أعمالهم ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ »

« فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟؟ فأنى تصرفون » !

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الديانات الجديدة ... !!

كتب جوليان هكسلى Julian Huxley الذى لا يعترف بالديانات السماوية، فى ثنايا كتابه (دين بغير وحى Religion without Revelation) يقول :

« كل الحقائق الحيوية فى الحياة الدينية تبقى وتستمر .. إنها لا تحتاج إلا إلى معاودة تعريفها فى اصطلاحات جديدة : إن الحقيقة الحيّة لن تستغنى عن تبديل أزيائها — هذا هو كل الأمر !! »

ولقد حاول هكسلى أن يعرض طرازه الجديد للدين المنشود .. الدين الذى يستمد أصوله من الطبيعة الكونية والإنسانية ، لا مما وراء الطبيعة ...

الدين الذى لا يرضى بالإله (المشخّص) فى سماواته العلى ، ويلتمس إلهه فى القوى الملموسة ، والنواميس المرصودة .

الدين الذى يساير عصرنا العلمى ومنهجنا التجريبى ، حتى لا تتمزّق حياتنا بين الحس والغيب ، بين الخالق والكون ، بين الله والإنسان ، بين الدنيا والآخرة ..!!

ولست أحاول الآن أن أعرض لمحاولة هكسلى وحظها من التوفيق ، فهى ليست المحاولة الأولى من نوعها فى هذا الباب ، وقد لا تكون أنجح المحاولات ، وإنما الذى يعنينى هنا أن أتساءل عن الثمار التى جنتها البشرية من هذا الاتجاه :

هل عاشت بغير دين ؟ .. وهل تحرّرت فلم تخضع لإله ؟؟

وإذا كانت قد اعتنقت طرازاً آخر من (الدين) ...

ترى هل كلفها الدين الجديد ، التزامات أقل .. وحقق لها مكاسب أكثر

عمـا كانت تجنيه من ديانات السماء ؟؟

* * *

فلنستمع من هكسلى .. بعض الجواب :

« لقد ظهرت من قبل مذاهب اعتقادية غير إلهية ـ non-theistic beleif systems وأتيح لها أن تغلب على قطاعات كبيرة من البشرية . وأبرز هذه المذاهب : النازية فى ألمانيا ، والشيوعية الماركسية فى روسيا ، وحملت النازية فى طبيعتها جراثيم انحلالها بحكم دعواها فى تسلط فئة قلية على العـالم أجمع ، كما كانت مدعاة للسخرية بالنسبة للفساد والقصور فى تفسيرها لقدرها الرفيع المتعال ، حتى ماثلت فى ذلك بعض الصور البدائية للآلهة من حيوان معبود أو رب قبيلة متعطش للدم أو إله جبار منتقم !!

وكانت الشيوعية المـاركسية أكثر تنسيقا وملاءمة ، لـكن أساسها المادى المحض قد حد من فاعليتها ، فقد حاولت أن تنـكر حقيقة القيم الروحية . وهذه القيم موجودة قائمة ، لذا كان على الشيوعية أن تتقبل نتائج هذا الخطأ الإيديولوجى فأقبلت فى غيظ وحنق تفتح أبواب الـكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الروحية التى انتبذها النظام الشيوعى (١) » .

إن هذه المذاهب الجماعية بما تحويه من نظرات كلية أرادت أن تـكون دين المستقبل ، لها نبوءاتها ، ولها عقائدها المستقرة المتأصلة التى لاتقبل جدلاً ، وهى بذلك تحاول أن ترضى فى الإنسان ودوافعه ونزعاته ، وتمد نفوذها إلى الفجوات التى عرّاها تظرف النزعة المادية منذ عصر النهضة الأوربية .

---

(١) Relgigion without Revelation. pp: 62-63

• « وقد بذل النازيون كل جهودهم حتى يدعموا أركان ذلك التوجيه المنظم الذى أقرته فلسفتهم الجديدة والذى عرفه النازيون باسم Weltanschauung ومعنى ذلك على حد قول الدكتور دنكان جونز Duncan Jones : تلك الفلسفة التى تفرض على صاحبها إدراكاً خاصاً لمعنى الحياة ووجود العالم على نحو يجعل نظره للحياة والعالم بمثابة العقيدة الدينية لديه ، فيستمسك بها بكل ولاء وإخلاص ، وتشعل فى نفسه جذوة التحمس الشديد لإذاعتها فى كل مكان ، كأنما مهمته فى الواقع التبشير بدين جديد .. وقرأ القساوسة البروتستنت من فوق المنابر احتجاجاً ضد تلك الوثنية الجديدة التى أراد النازيون أن يستعيضوا بها عن الأديان جميعها[1] » !!

• « وليست البلشفية مجرد برنامج سياسى ، بل هى كذلك فلسفة وعقيدة ، إذ يمتد مجالها الى أعمال الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية .. ولقد استطاعت البلشفية أن تبث فى قلوب أتباعها ومريديها الإخلاص وشدة الولاء لمبادئها إلى أبعد حد ، مما يذكرنا بولاء أتباع الديانات والعقائد المتحمسين لها »[2] !

إن الطاقة النفسية والغرائز الاجتماعية تنفّس عن نفسها منذ أن حاول الإنسان العصرى أن يتنكّر لفطرته ويجحد أشواقه ، ويتجاهل منطق العمليات العقلية العليا فلا يسلّم لغير التجربة الحسّية المباشرة . وما فتئت هذه الطاقة الإنسانية التى أريد إهمالها تعمل عملها وتعبر عن وجودها بصور متباينة ، تصرخ مشيرة إلى الصخب المستعر فى كوامن الوجدان ينشد الإرضاء أو التعويض !!

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : ألمانيا النازية ص ١٩٦ ، ٢١٢

(٢) محمد فؤاد شبل : الدستور السوفييتى (رسالة ماجستير) ص ٤٣٤

• وهذا لوبون الفرنسي يتحدث عن مفخرة أمته التاريخية (الثورة الفرنسية) :

« لم يقم سلطان الثورة الفرنسية على ما كانت تنشره من المبادىء ، ولا على ما كانت تضعه من الأنظمة ، إذ الأمم لا تبالى بالمبادىء والأنظمة إلا قليلا (؟!) وإنما السبب فى قوة هذه الثورة وفى رضا فرنسا بما أتته من المذابح والهدم والهول ، وفى مدافعتها الظافرة حيال أوربا المدججة بالسلاح : هو إقامتها ديانة جديدة — لا نظاماً جديداً . ولقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوى من القوة التى لا تقاوم . . حقاً إن مصدر المعتقدات سياسية كانت أو دينية لمشترك ، وهى خاضعة لسنن واحدة — أى أنها لا تتكون بالعقل ، وكثيراً ما تتكون خلافاً لما يقتضيه العقل !! فالبوذية والإسلام والإصلاح الدينى واليعقوبية والاشتراكية ، وإن لاحت على شكل فكرى ظاهر ، هى بالحقيقة قائمة على عواطف وتدينات متماثلة . . . .

وحماسة مؤسسى الثورة الفرنسية تعدل ناشرى دين محمد (! ؟) ، فقد كانت تلك الثورة ديانة اعتقد رجال الطبقة الوسطى فى المجلس الاشتراعى الأول أنهم أسسوها وقضوا بها على المجتمع القديم ، وأقامو بها حضارة أخرى على أنقاضه ، وما وجد خيال فاتن شغل قلب الإنسان أكثر من ذلك الخيال !! فكان أولئك الرجال يقولون : إن مبدأ الإخاء ومبدأ المساواة اللذين أعلنوها يمنحان الأمم سعادة أبدية ، وإنه لما قطعت العلائق بالماضى المظلم الموحش أصبح المجتمع الجديد سائراً على نور العقل المطلق . . . .

توصف روح التدين بإسنادها قدرة عظيمة إلى قوى علوية . . وهذه الروح هى أساس المعتقدات الدينية كلها وكثير من المعتقدات السياسية ، والمنطق الدينى مشبع من المشاعر وسائر العواطف ، والفتن الشعبية الكبيرة تنال قوتها منه . .

ولم تلبث مبادىء الثورة الفرنسية أن ألقت فى قلوب الناس حمّية دينية كالتى ألقتها المعتقدات الدينية السابقة ، ولم تفعل بذلك غير تحويلها وجهة النفس الموروثة المتكاثفة مع الزمن !..

إن الأمة — عند المتقدمين والمتأخرين من اليعاقبة — كالآلهة ، ذات شخصية سامية لا تسأل عما تفعل ، ولا تخطىء أبداً ، فالجميع مسئول عن إطاعتها وإن جاز لها أن تقتل وتنهب وتحرق وتأتى أقسى المظالم وتطرح غداً فى الدرك الأسفل من رفعته اليوم إلى مصاف الأبطال ، ولا يعدل رجال السياسة عن السجود أمام حكامها ، مسبّحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية ؟ !

وقد فَصَّلْتُ نفسية رسلنا السياسيين الدينيين فى الوقت الحاضر فى مقالة نشرت فى إحدى الجرائد الكبيرة عن أحد وزرائنا السابقين : يسألون عن الفرقة التى ينتسب إليها مسيو فلان ، هو من فرقة الملحدين ؟ .. إنه لا يختار أى إيمان وضعى ، ويلعن روما وجنيف ، ويجحد بالعقائد التقليدية ، ويكفر بالكنائس المعروفة !! إنه إذ جعل الصحيفة هكذا ملساء ، فذلك ليقيم عليها كنيسته الخاصة التى هى ذات بدع أكثر من كل كنيسة ، ولن تقل محكمته التفتيشية فى شدة تعصبها وعدم تسامحها عن أشهر محاكم (ثوركادة) » !! (١)

ولسنا فى معرض مناقشة تفصيلية لآراء جوستاف لوبون ، وإنما نأخذ منها هنا دلالتها على الأعماق البعيدة فى النفس الإنسانية التى تثبت وجودها بما يفيض على سطح المجتمع من أحداث وظواهر ... مهما تنكّر الناس لنفوسهم !! .

ثم لنستمع إلى رأى فيلسوف غربى قدير .. هو توينبى ، فى بلد له شخصيته القوية العريقة هو بريطانيا ...

« يعتبر توينبى ظاهرة تقديس الدولة الإقليمية إلى حد العبادة بمثابة

(١) روح الثورات : ترجمة زعيتر ص ١٧ ، ٢٣ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢

نذير رهيب للغرب من ناحيتين :

● أن هذا التعلّق الوثنى بالدولة الإقليمية هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربية

● أن هذه العقيدة الباطلة هى السبب فى انقضاء أجل مالا يقل عن ١٤ حضارة أو ١٦ حضارة من الحضارات الواحدة والعشرين !

وحقاً ما برحت الحرب التى يقتل فيها الأخ أخاه ويشتد فيها استعمال العنف — وهى نتيجة التعلّق بالدولة الإقليمية — هى إلى أبعد حد أكثر عوامل الفناء شيوعاً . . . .

ويرى توينبى أن أزمة المجتمع الغربى روحانية وليست مادية ،إذ رغما من بلوغ هذا المجتمع الذروة فى تقدمه المادى إلا أنه ما برح يحسّ بجوع روحى .

وإذا كانت النفوس الغربية استبد بها قلق الفراغ الروحى ، فألزمها بفتح الباب لشياطين مثل القومية والفاشيه والشيوعية ، فإلى متى نحتمل العيش بدون عقيدة دينية ؟ ؟

هنا يقول توينبى بالحرف : (إن التائهين فى بيداء المجتمع الغربى قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم . أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الإقليمية — مثل الكنائس الطائفية — أوثان تجلب عبادتها الحرب ، لا السلام ، وهذا ما يجعل التائهين يندفعون صوب التعلق بهدف بديل هو النظم السياسية الشاذة) »[1] ! ! !

وعلى هذا النحو يناقش لوبون الشيوعية أيضاً فى كتبه :

---

(١) فؤاد محمد شبل : فلسفة التاريخ عند توينبى — مقال « بالمجلة » ع ٥٨ — نوفمبر ١٩٦١

« فدعاتها قساوسة متدّينون لم يغيروا سوى اسم آلهتهم ، ومن مظاهر هذا التدين ما جاء فى جريدة (الأومانيتيه) فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩ : من أن الأستاذ الشاب فى السوربون ألقى فى حفلة افتتاح مدرسة موعظة حماسية استغاث فيها بآلهة العقل !!.. أولئك الزعماء متدينّون لاعتقادهم انقلاباً يخرج منه عالم جديد ! هم يفخرون بإنكارهم الأساطير مع تمسكهم بأسطورة من فصيلة أساطير القرون الأولى ! فالخوارق عندهم بدّلت شكلها فقط ، أى أنها تبدو لهم على وجه قادر على تغيير طبيعة البشر وتجديد المجتمعات فجأة ! إن النصرانية تقول بثواب فى جنات الآخرة ، وهذه لا تفتأ تعد بسعادة دنيوية لم تتحقق بعد ! »(١)

ولكن لوبون لا يناهض الاشتراكية كاتجاه عام لتحقيق التكافل الاجتماعى ، وإنما يناهض نظريات وتفاصيل « .. لا نكون بمناهضتها مقاومين لحركة التضامن الاجتماعى التى لا يدور فى خلد أحد أن يحول دونها ! ! فتقدم طبقات العمال مادة ومعنى من المسائل التى تهم جميع الناس ، والدليل على ذلك ارتياح الكل لمشروعات التأمين ضد حوادث العمل وإنشاء بيوت للعمال ، ومنح العمال رواتب تقاعد وتعليم العمال والاعتناء بصحتهم وفتح اعتمادات مالية للمزارعين . . . الخ »(٢)

هكذا بزغت الديانات الجديدة . . . فى العصر الذى لا يرضى بالدين ! ! !

وهكذا أقيمت آلهة الهوى . . . بعد أن رفض الناس أن ينقادوا للإله الذى تحدث عنه الأنبياء !!!

---

(١) روح السياسة : ترجمة زعيتر ص ٢٠ ، ١١٤ ، ١٢٥ — ولزيادة التفصيل راجع كتاب المؤلف نفسه : روح الاشتراكية

(٢) روح السياسة : ص ١٢٠

إن نزعات الإنسان فى التطلع لمستور ، والتحمس لعقيدة ، والانقياد لقوة عليا ، والانخراط مع الزمرة ... كلها نزعات لا تريد أن تموت !!

* * *

وأقبل العلم يعالج هذه النفس البشرية .. هذا الكيان الغامض الذى يأتى بالعجب العجاب !!

وتقترن صياغة الديانات الجديدة بدراسة النفوس .. حتى تأتى الديانات مفصلة موفقة على علم ونور ، وتتحقق (الراحة الإنسانية) بغير دين ! ! .

ومضت الدراسات النفسية قدماً ، وانفجرت كلمات فرويد تكشف عن متاهات (اللاشعور) ! !

اللاشعور ! .. وهل هناك غير الحس المباشر القريب ؟ وهل هناك غير العقل الفاحص الرشيد ؟

وأقبل علماء النفس ينقبون فى أغوار اللاشعور بنفس مناهج التجريب .. واستعملوا أساليب التأمل الذاتى (الاستبطان) ، والملاحظة الخارجية ، والتحليل النفسى . .

وتتابعت الأبحاث والفحوص ، وأعدّ الناس أنفسهم لعهد جديد : تقاس فيه (السعادة) و (الراحة) و (الاتزان) فى المعامل بالعدادات ! !

وبدأت الثمار تينع ...

« يصارح فرويد الناس بأن كلّ صنوف النشاط التى تصدر عنهم تعود إلى ما يوجد فى أعماقهم من فطرة توّجه الفكر والسلوك على اختلاف أشكاله وأساليبه ، مع أنّ الناس بطبيعتهم يميلون إلى الفخر بقوة إرادتهم وإلى إظهار الحزم فى تقرير سلوكهم بأنفسهم ، وينكرون أى أمر فى أعماق نفوسهم يوجه نشاطهم دون وعى منهم ! ! وأغلب النقد وُجِّه إلى نظريته عن الميول الجنسية ، وكان نقداً لاذعاً قوياً دفعه هو الى توضيح كثير مما قال به ، وإلى توسيع معنى

الميول الجنسية عند الإنسان حتى وسعت الحياة الوجدانية كلها ، بل الحياة الخلقية والجمالية والفكرية أيضاً . . حتى لقد اعتبر بعضهم مذهبه نظرية للقيم لها صفة (الواحدية) — مثل المذاهب الفلسفية التى ترجع كل ضروب النشاط إلى غريزة البقاء والتناسل . وقالوا إن نتيجة الفرض الذى وضعه فرويد : (هو أنه ممكن التطبيق على كل شىء) ، ولهذا لا يمكن أن يثبت أى شىء ! ! .

ومن ألوان النقد التى وُجِّهت إلى التحليل النفسى أن فرويد وأتباعه — على صواب كثير من آرائهم ، وعلى الجهد الذى يبذلونه لاصطناع الطريقة العلمية فى أبحاثهم — يعرضون لدراسة النفس ويبحثون فى أمراضها بفكرة سابقة فى أذهانهم وبفرض يلتمسون له الإثبات فحسب ! !

ويطول بنا الحديث جداً لو أردنا أن نفصّل أوجه النقد التى يمكن أن تؤخذ على فرويد ، فإن ما كتب فى تحليل النفس وما كتب ضد هذا المذهب قد يسع مكتبة بأكملها ! !

على أن أهم من نقد فرويد وعمل على استكمال مذهبه اثنان: هما آدلر ويونج . . وكان مصدر الخلاف الأساسى بين فرويد ويونج هو السيطرة الكاملة التى كان يقول بها فرويد حينذاك عن الميول الجنسية وحدها فى الحياة النفسية ، سيطرة شملت كل نواحى النشاط وتفاصيله فى النفس ، على حين رأى يونج أن الجنس على ماله من السيطرة فى حياة المرء لا يتفق مع رغبة الإنسان فى الحياة الموفورة التى لا يمكن أن تقتصر عليه ولا أن تشتق منه دون غيره ! !

كذلك قال يونج برأى خاص عن اللاشعور ، ذلك أنه يزعم أنه قد كشف عن وجود (لا شعور جمعى) فى النفس الإنسانية تشتق منه الحياة الشعورية واللاشعورية فى الفرد ، وهذا اللاشعور الجمعى موروث يحوى الغرائز

كما يحوى الأفكار الأولى ، ولا تصدر عن هذا اللاشعور الجمعى معان بيّنة واضحة بل ميول إلى التفكير على منحى معين قد تظهر فى الأحلام أو فى مخاوف الأطفال أو أوهام المعتوهين ، بل فى حياة الأسوياء من الناس حين يجبه الواحد منهم موقف لا تغنيه فى تفهّمه المعارف العلّية التى ألمّ بها منذ قريب ! !

أما آدلر فقد وجد أن الغاية من كل مرض نفسى هو تمجيد الشعور بالشخصية الذى يظهر على أكثر أشكاله سذاجة فى مبالغة المرء فى إظهار الرجولة واعتزازه بكل ما يتصل به من سمات ومميزات ، وهو يُخَطِّىء فرويد فى تعليله الجنسى للأمراض العصابية . . إلخ »[1] .

وتشعّبت فروع علم النفس : نظرى وتطبيقى وتحليلى ، مرضى وعلاجى ، تربوى واجتماعى وصناعى وحربى ، فردى وجماعى . . فروع لا تنتهى تغشى كل آفاق الحياة .

وتعددت المدارس : فرويد وآدلر ويونج ومكدوجل ، السلوكيون والارتباطيون (الجشتالت) والبراجماتيون . . واقترنت الفلسفة بالعلم ، وتجاوز التجريبيون الحدود الصارمة للملاحظة والاستقراء إلى الآفاق المرنة للتعميم والاستنباط . . . ودخلت الأهواء مع نفوس العلماء إلى معامل الاختيار وعيادات التحليل ! !

ومع هذا كله ، فقد كشف علم النفس آفاقا هامة للمعرفة ، وأشار إشارة واضحة إلى الطريق حين تجرّد من القوالب التى يجمّدها تعصّب صناعها . . . إن آفة العلم فى الذين يتصايحون به لغير العلم ، ومن هنا استغلت آراء دارون فيما لم يكن يدور بخلد دارون ، ووجهت نظريات فرويد إلى أبعد مما تصوره فرويد ! !

(١) دكتور إسحق رمزى : علم النفس الفردى ص ٥٢ : ٦٩

أما العلم الرصين الناضج فتقرأ فى صفحاته :

« لا بد لكل كائن حى من أن يتحرك صوب اكتماله الخاص ، فكمال الحياة هو هدف الحياة ، والحافز إلى الاكتمال هو أقوى محرك ملزم فيها ، والاكتمال فى علم النفس هو تحقق الذات . وكما تكره الطبيعة كل فراغ فإن الكائن الحى يكره عدم الاكتمال كذلك ، ونحن نجد السعى إلى الاكتمال والإحساس بعدم الاكتمال ظاهرين بشكل واضح فى الدين . والذات المنتظمة يمكن أن تُعَرَّف بأنها تنظيم لجميع العواطف والاتجاهات المستساغة .... والإرادة هى الذات المنتظمة عاملة ، وهى الذات متحركة . . . . وإن المنبه المناسب للإرادة — ذلك المنبّه الذى يصلح لإثارة الذات بصفة خاصة إلى النشاط — هو المثل الأعلى ، أى هو الفكرة أو الشىء الذى يؤدى إلى التحقق الكامل للفرد كله .

« إن الكائن الحى إذا كان مدفوعا بالغريزة والبيئة وحدهما فإننا نسمى ما ينتج (سلوكا) ، أما إذا اشترك مع القوى الوراثية والقوى البيئية مثل أعلى شعورى أو غاية يتجه إليها الكائن الحى سمينا النتيجة (مسلكا) ، ولهذا نذكر السلوك ونقصد به سلوك الحيوان ونذكر المسلك ونقصد به سلوك الإنسان . وكل عمل غريزى يؤدى إلى نتيجة ما ، أو إلى (غاية) معينة ، ولكن هذه الغاية إذا أدركها الإنسان إدراكا شعوريا وسعى إليها بمحض اختياره فإنها تسمى غرضا . والمثل الأعلى الصائب من الناحية السيكلوجية هو المثل الذى يستطيع جلب التوافق للنفس باجتذاب الانفعالات الغريزية جميعا ، وهو الذى يستطيع باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصب الفرد باعتباره وحدة سيكلوجية فى قالب كائن حىّ ، وهو الذى يضمن تحقق الذات والسعادة وذلك بإشباع السعى إلى الاكتمال ... والرجل السعيد هو الذى يجد فى الحياة تعبيرا متوافقا عن غرائزه

كلها : عن غرائز الطموح وإثبات الذات فى مهنته ، وعن غرائزه الجنسية فى الزواج ، وعن غرائزه الوالدية فى أسرته أو فى عمل الخير ، وعن استطلاعه فى البحث ، وعن حبه للظهور فى الكلام أو الكتابة أو الرسم ، وعن غرائز المقاتلة والغضب فى دفاعه عن معتقده .. هذه الغرائز وغيرها حين توجه نحو غرض مشترك عام كأن يعيش من أجل بنى جلدته تسكون قمينة بأن تمنحه سعادة لا حد لها»[1]!!

وهنا يسجل العلم تسجيلا أمينا ، لا يتورّط ، ولا يتعدّى ...

والدين لا يضيق بهذا العلم الأمين ، بل إنه يتعزّز به ، إذ تتعاون أدوات الله التى استودعها فى الإنسان من حواس وعقل مع أدوات الله التى أرسلها مباشرة من وحى وهدى ...

ويركب الإنسان كل مركب لاجتلاء آيات الله فى الآفاق :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » !

أما أن ينصرف الإنسان عن الله الواحد ، لينحت لنفسه آلهة تسد الفراغ ولا تطفىء الظمأ ولا تعفى من الالتزام ، فهذه صفقة خاسرة لا تقدم للعقل جديدا وتزيد قرابين الجهد والدم أى مزيد ! !

---

(١) هادفيلد : علم النفس والأخلاق ، ترجمة أبو العزم ص ٨٥ ـ ٦ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١ .

حضارة ... وأزمة !!

قالوا ... وهم يتظاهرون بالحياد والإنصاف : الدين شيء جليل حقاً ، من ينكر أثره فى التطور التاريخى ؛ من يتجاهل فضله على التقدم الإنسانى ؟ ؟

ما أبلغ آثار المسيحية فى تاريخ أوربا ؟؟

ما أروع فضل الإسلام على تاريخ العرب ؟؟

هل يتسنى لمخلوق أن يدير ظهره لدور الدين التاريخى ، إلا أن يغمض عينيه عن الدلالات القاطعة لعلم الاجتماع ولتاريخ الفن ، تلك التى تشهد للدين بأنه كان الوقاية الأولى للمجتمع بما يؤله وما يرمز Totem ، وما يحل وما يحرم Tabou ، وبأنه كان الدافع والحافز لكثير من الآثار الفنية الأولى من نقوش ورسوم ، ثم من تماثيل ومعابد ومقابر . . !!

ثم . . . ماذا ؟؟

هنا تظهر الغاية من الحياد ومن الإنصاف . . .

ثم . . تحكم الإنسان فى الطبيعة ، وأصبح يقى نفسه بعلمه وفكره ، وأصبح يستلهم نفسه فى أدبه وفنه . .

ومعنى هذا الأسلوب الرقيق المهذب ، المحايد المنصف ، أن الدين قد أدى دوره المشكور ، ومكانه الآن أن يعرض فى المتاحف أو يؤرخ فى السطور !!

* * *

ومناقشة هذه الدعوى العريضة تقتضى أن نتعرف على حضارتنا العصرية : على مدى كمالها ، ومدى استغنائها بذاتها عن الدين وعن غير الدين . . . .

ثم نتعرف على (الدين) ، على مهمته الإنسانية ، لنتبين : هل نراه حقاً قد أدى رسالته واستنفد أغراضه ؟؟

ونحن ننبّه أولاً إلى خطر النبوءات المطلقة والأحكام العامة الشاملة فى حقل الدراسات الإنسانية والدينية . . .

إن الذين ينادون بالمنهج العلمى، ويريدون تطبيقه على هذا النوع من الدراسات ، ينبغى ألا يندفعوا فى إصدار الأحكام واصطناع النظريات بغير روّية ، ظانين أن شيئاً من الحدس والتخمين ، بجانب بعض الملاحظات الجزئية القاصرة ، مع كثير من التحمس والتعصب للرأى — كل أولئك كفلاء بحل معضلات السلوك الإنسانى !!

أمثال هؤلاء الجهابذة يرفضون فى الدين معنى الإيمان بالغيب ، بينما هم يعرضون قضايا خطيرة من مغيّبات المستقبل ، كل سندهم فيها مجرد إيمانهم الشخصى . . . وشتان بين الإيمان بالله واليوم الآخر فى سلامته وعمقه ، وبين إيمانهم الذى يريدون أن يجعلوه العوض والبديل ، باسم العلم والبحث الرصين !!

يقول بول فالرى (١٨٧١ : ١٩٤٥ م) :

« . . . إنى لأتساءل الآن ماذا كان يمكن التنبؤ به سنة ١٨٨٧ مما وقع فعلا منذ ذلك العام ؟؟

لاحظوا أننا فى خير الظروف للتجربة التاريخية ، فلدينا كمية هائلة — لعلها أكثر مما يجب — من المعلومات : كتب ، صحف ، صور شمسية ، ذكريات شخصية ، شهود لا يزالون كثيرين . . . والتاريخ لا يبنى عادة بهذا القدر الوفير من المواد !!

إذن ماذا كان يمكن توقعه ؟؟

فى سنة ١٨٨٧ هذه ، كان الجو مخصصاً للطيور وحدها دون سواها ، ولم تكن الكهرباء قد فقدت أسلاكها ، والأجسام الصلبة كانت لا تزال صلبة ، والأجسام المعتمة كانت لا تزال معتمة ، ونيوتن وجاليليو يحكمان فى سلام ، وعلم الفيزياء هانىء وقواعده مطلقة ، والزمان يجرى بأيامه الهادئة ، والساعات كلها كانت

سواسية أمام السكون ، وتمتع المكان باللانهاية والتجانس ، لا يتأثر أبداً بشيء مما يجرى فى داخل أحضانه العظيمه . والمادة تحكمها قوانين حكيمة عادلة ، ولم يخطر ببالها أبداً أنها ستعدل منها شيئاً مهما يكن ضئيلا حتى فقدت فى هذه الهوة من التجزؤ فكرة القانون نفسها !!

ولكن هذا كله لم يعد اليوم إلا حلماً ودخاناً ، لقد تغير هذا ، كله كما تغيرت أوربا وكما تغير مظهر الشوارع . . !!

إن أعلم العلماء وأعمق الفلاسفة وأبرع السياسيين سنة ١٨٨٧ ، هل كان فى وسعه أن يحلم — مجرد حلم — بما نراه اليوم ؟ إنه ليس من الممكن أن نتصور مجرد تصور ما هى العمليات العقلية التى بمحضها فى كل المادة التاريخية المتجمعة عن سنة ١٨٨٧ ، كان يمكنها أن تستنتج من معرفة الماضى — أيا كان رسوخ هذه المعرفة وإحاطتها — فكرة ولو تقريبية جداً عما عليه الآن . . !!!

ولهذا فإنى أتحاشى التنبؤ . .

إن التاريخ هو العلم بالأشياء التى لا تتكرر أبداً . فالأشياء التى يمكن تكرارها ، والتجارب التى يمكن إعادتها ، والملاحظات التى يعلو بعضها بعضاً — كل أولئك من شأن علم الفيزياء وإلى حد ما علم الأحياء .

لكن لا تخالوا أن تأمل الماضى — بما فيه من غابر لن يعود — أمر لاغناء فيه . إنه يبين لنا خصوصاً إخفاق التنبؤات البالغة الدقة إخفاقاً متواصلا ، وعلى العكس يكشف عن الفوائد الكبرى للإنسان بالعمل فى وقت مبكر ضد المتوقع — دون أن يدعى خلق الأحداث أو تحديها لأنها دائماً مفاجآت ، أو تنطوى على نتائج تثير الدهشة والذهول . . »[1] !!!

---

(١) المجلة التاريخية : مجلد عام ١٩٥٦

ويقول المؤرخ الفيلسوف الكبير أرنولد توينبي :

« إن الحقبة التي نعيش فيها تختم عهداً من التاريخ الحديث يصح أن نطلق عليه اسم (العصر الحديث المتأخر) ومدته قرنان ونصف ، مبدؤه حوالى سنة ١٧٠٠ — وهو عصر السيطرة الأوربية على العالم ، وعصر سيطرة الطبقة الوسطى على أوربا ، ومن ثمّ على شعوب العالم . ومن هذا العصر الحديث المتأخر عدّل المفكرون — وبصفة خاصة مفكرو القرن الثامن عشر — النظرية العامة للتاريخ العام ، وهي نظرية الأديان السماوية وقوامها : حصر ذلك التاريخ بين بداية هي خلق الله العالم ، ونهاية هي قيام الساعة . . . حاول فلاسفة القرن الثامن عشر أن يحذفوا الخلق والساعة ، وأوجدوا للتاريخ العام صورة أخرى — صورة تجرى فى خط مستقيم نحو كمال تبلغه فرنسا أو أسبانيا أو انجلترا أو الأمة التي ينتسب إليها الكاتب ! ! . . . وهي صورة لا يستطيع أن يدبّر أصحابها مكانا لهند أو لصين ، أو حتى لروسيا أو أمريكا ! !

«والواقع أننا لا نستطيع أن نقبل حركة تاريخية تجرى فى خط واحد . إننا لا يمكن أن نتصور التاريخ إلا شجرة كثيرة الفروع ، ففي التاريخ تتعاصر الحضارات إما فعلا وإما فلسفيا فى تفكير المؤرخ . هذا والعلوم الإنسانية تتبادل المعلومات وتستخدمها فى عرض الظواهر الاجتماعية عرضاً معقولاً .

« ومع هذا فللسير بالمنهج العلمي حدود ، فإني أومن مثلاً بأن اصطداماً يقع بين شخصيتين انسانيتين لا يمكن أبداً التنبؤ بما يسفر عنه من نتائج فهو لا يخضع لقانون معروف . كذلك ما تنفجر عنه النفس الإنسانية شعراً أو إلهام أنبياء لا يخضع لأي قانون ، فهي ظواهر تنبعث عن قدرات الخالق وتعود بنا إلى الصورة التي رسمتها الكتب السماوية للتاريخ الإنساني ... لقد أصبح (للدين) المكانة الأولى

فى تصورّى للتاريخ العالمى ، وليس هذا الدين هو الدين المسيحى الذى نُشِّئْتُ عليه بل أصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها فى المكانة التى أتصورها للدين فى المستقبل ، على أنى أعتقد أن أيسر سبيل لفهم العالم هو ما يهيئه لكل إنسان دين آبائه وأجداده » [1].

هذا تنبيه أساسى لابد منه ... لمن يريد أن يسير خطوات فى دراسة الدين ودوره وتاريخه ، وفى كل دراسة إنسانية ودينية على وجه العموم .

* * *

هل **الحضارة الغربية** حقا قد اهتدت إلى تحقيق طمأنينة النفس واستقرار المجتمع بغير دين ؟ ؟

ما أكثر ما كتب الغربيون فى نقد حضارتهم . . . وهذا هارولد لاسكى المفكر البريطانى الاشتراكى المعروف يقول :

« إن عالم اليوم يعانى من الشعور العميق بخيبة الأمل ، وقد انتشر هذا الشعور فى أماكن كثيرة ، ويبدو أن جيلنا فقد قيمته ! لقد حلّ الشك السافر محل اليقين ، وحلّ اليأس محل الأمل ، ويبدو أن الاتجاهات الحديثة فى الفن والأدب والموسيقى لا تعترف بالتراث الذى أبدع روائع الماضى . . . والحرب قد سدّدت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التى كانت مقياساً دائماً للسلوك ، ويبدو أن الكنائس أصبحت وسيلة للقيام بطقوس شكلية بدلا من التأثير على معتقدات الناس .

«إن رغباتنا تتسم كلها بطابع السرعة المحمومة ، وبطابع التهور والافتقار إلى الطمأنينة ! لقد انتصرت روح الإنكار على روح اليقين . . إننا عدمنا — فى كل

(١) المجلة التاريخية : مجلد عام ١٩٥٧

مكان — تلك السكينة أو الثقة بالنفس التى تجعل الأفراد يختارون حلا من الحلول ليجعلوه موضع عبادة !

« إن منهج الغرب فى الحياة قد وضع فى بوتقة الانصهار ، وتحوّلت العلوم — سواء علوم الطبيعة أو علوم الأحياء — إلى معلومات ميتافيزيقية ، وإذا ما كانت قد صارت فى يد إدنجتون وجينز مثلا جزءاً من رد الفعل شبه التلقائى ، إلا أنها تفتقر إلى الهدف . فهى لا تقدم لنا شيئا غير تلك القيم التى تشيع الفوضى فى كل جزء من أجزائها . وفى مقدور هذا العلم أن يتيح الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنه عاجز عن اكتشاف مبادئ الرضا الروحى ، وعلى الشرق العريق فى الوقت الحالى أن يتحدّى هؤلاء الذين يسعون إلى الاحتفاظ بظروف الوصاية . . لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ، ولكن يبدو أنها لم تستفد سوى درس الاستعمار ! لقد اكتشفت سر المهارة فى لندن وبرلين ، فى باريس ونيويورك ، ولكن يبدو أنها تفتقر إلى الهدف الكبير الذى تهب له هذه المهارة ! ! »(١) .

هذه كلمات دقيقة فى وصف سيكلوجية المجتمع الغربى . . .

وصاحب هذا الوصف ليس من دعاة الدين — ومن أجل هذا أوردنا تقريره — إنه يقول : « ومنذ قرن مضى كان فى مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل فى تعويض ما نالهم من الحياة ، وذلك فى الحياة الأخرى ، أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا فى ظل الحاضر العاجل !! ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل فى الطاقة الصناعية الجديدة ، والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التى تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا — دون أن يساندها مبدأ ما — لن يصبح لها أى معنى ، إلا إذا

(١) Democracy in crisis

كان لهذه الطاقة هدف معروف ! ! »

وأخذت الحضارة الغربية تحاول أن تسد الثغرات فى بنيانها الشامخ . .

● والتمست فى بعض المذاهب الشاملة totalisme شيئاً يكون ديناً أو كالدين . . . ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد فى قرن أو قرنين مسدّ الدين الذى أشبع القلوب والعقول من قرون وقرون ! !

● وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها فى ميدان علم النفس . . تحاول أن تسد الثغرة الروحية فى بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية ، ونجح علم النفس حين تواضع ، وأخفق حين جمح ينشد (فلسفه نفسية كاملة) أو ديناً جديداً ، وأشار فى نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب — إلى الدين ! !

● وحسبت الحضارة الغربية أنها عثرت على الضالة المنشودة والعلاج الشافى الذى يليق بالمتحضرين ، فأقبلت تستمد غذاء الروح وشفاء النفس من إلهامات الفنون : فنون القول والتعبير والتشكيل كلها ...

وانطلقت الأرواح الهائمة تعربد فى الواقعية والسريالية وما إليهما .... ولكن هذا التجديف هنا وهناك لم يطمس حكمة تولستوى الهادية حين يقول : « الأديان تقدم أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من فهم للحياة فى أى عصر من العصور ، وفى أى مجتمع من المجتمعات ؛ ولذلك كانت الأديان على الدوام أساس تقدير العواطف الإنسانية . فإذا كانت المشاعر التى يثيرها الفن تقترب من المثل الأعلى الذى يشير إليه الدين وتجاوبه ولا تناقضه فهى مشاعر صالحة ، وإذا كانت تنأى عنه وتعارضه فهى مشاعر رديئة . . . لقد اتجه الفن إلى طلب المتعة فى أوربا بضعف العقيدة الدينية الذى غلب على الأوربيين وبدأ منذ عهد إحياء العلوم ، وهذا الاتجاه حرم الفن الموضوعات الدينية العميقة وجعله ينزع إلى العمل على

إرضاء فئة قليلة من الناس وهم الطبقة الاستقراطية . وقد فقد الفن من جراء ذلك جمال الصور، وغلب عليه الغموض والتكلّف وصارفنا متكلفاً غير طبيعى . وإعراض الفن عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسى الدينى جعله يتجه إلى طلب المتعة ، والمتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة ، فى حين أن تقدم الإنسانية الذى يصحبه ويردده الإدراك الحسى الدينى ليس له حدود ! . . والإدراك الدينى يتجدّد كلما تجددت علاقاتنا بالعلم من حولنا ، وهو لذلك يقدم للفن مشاعر طريفة ترجح المشاعر المنبعثة عن حب المتعة المحدودة القديمة . وقد لحظ تولستوى أن أكثر الروايات والقصص من عهد بوكاشيو حتى عهد مارسل بريفو تدور حول مشاعر الكبرياء والشموخ والأحاسيس الجنسية ومشاعر الملل من الحياة والتبرم بها »[1]!

حضارة الغرب إذن ليست راضية عن نفسها ،وليس أعلامها راضين عنها ...

وحضارة الغرب ليست كما يتصورها أهل الشرق المتطلع للنهوض، بناء كاملاً ليس به ثغرات ، جنة خالدة على الأرض لا يمس المرء فيها نصب ولا لغوب ! !

والإنسان فى هذه الحضارة العصرية لم يعد ذلك (الإله) الذى توهمه عصر النهضة : يقوم وحده ويستغنى عن غيره ، ويسخّر الطبيعة بعقله ، ويفجر ينابيع الحكمة من نفسه وفكره ! !

لقد انكشف القناع ، فإذا به إنسان الأمراض والعقد النفسية والاضطرابات العصبية والضعف البشرى بكل صوره الروحية والجسدية الفردية والجماعية !!

والحضارة الغربية مع ذلك قد أفادت الإنسانية فوائد جليلة ، والذين ينقدون اليوم هذه الحضارة إنما ينقدونها بما أخذوه عنها من علم ، وما تعلموه من نهج ،وما اكتسبوه من منطق !

---

(١) على أدهم : مقال (بالمجلة) عدد ديسمبر ١٩٥٨

والحضارة الغربية هى التى أحسنت إطلاق قوى الإنسان ، كما أحسنت الكشف عن نقط الضعف فيه ! !

ونحن نريد — فى هذه الفترة الدقيقة من حياتنا — أن نتعرّف على الحضارة الغربية تعرّفاً صحيحاً ، وأن نتبيّن خيرها وشرها ، قفزاتها ومآزقها ، وأن نجتهد كى نتوّقى ردّ الفعل الذى وقع فيه القوم يوم شدهتهم النهضة والكشوف والتجارب والآلات !!

ولدينا من دروع الوقاية وأسباب التوازن . . . . دين ، يختلف تاريخه معنا عن تاريخ الدين مع الغرب . . . .

ثم لدينا تجربة كاملة قدّمها الغرب بين أيدينا ، حيث أسمعنا أول الأمر تسبيحات التقديس للحضارة الإنسانية المادية الجديدة حيث لامكان لإله أو لعالم آخر مغيب ، وما لبث أن أطلق بعد ذلك صرخات البلبلة والشكاية من الحضارة القائمة . . . ثم فى آخر الأمر باح الغرب بأشواقه المكبوتة وهفا إلى الإيمان من جديد !!

وعلى الجيل الواعى فى شرقنا قبل أن يسلم نفسه تماماً إلى معابد الحضارة الغربية، أن يراجع عنها تقارير اشبنجلر وتوينبى ، ورسل ولاسكى ، وبرجسون ولوبون . . . وغيرهم، فإنها أقوم وأوثق لبيان الحقيقة فى هذا الباب .

فإذا استقام لنا الطريق . . . وعرفنا أن الحضارة الغربية تشكو الثغرات والشقوق . . . .

فهل ما زال الدين صالحاً لممارسة معجزة أخرى تبرىء الفرد والجماعة ؟؟

الطاقة الدينية

إن إيقاع الدين على النفس البشرية ، يحتاج إلى ملاحظة وتأمل ...

فالنفس البشرية قد تقتنع ، وقد تميل ، وقد تخشى ... والإنسان قد يتأثر من المنطق ، أو الرغبة أو الرهبة . . . ولكن الطاقة التي يطلقها الدين في الفرد والمجموع شيء أكبر من هذا كله ، وأعمق من هذا كله ، وأبقى من هذا كله !!

ولنستمع إلى جوستاف لوبون يرصد هذه الطاقة الهائلة ، وسأنقل كلماته عن كتابه (روح السياسة) سواء منها ما كان للدين أو عليه ، ليتبين أن الذين يسجلون حقائق التأثير الديني ليسوا من كهنة الدين المستسلمين لأمره المسبحين بحمده المتحمسين من أجله ! ! إنه يقول :

« أحرار الفكر الذين يحملون على المعتقدات لايفقهون شيئا من تأثير الديانات ، فمع أن الديانات لا تشتمل إلا على قليل من الحقيقة من الوجهة العقلية (!!) ، دلنا التاريخ على أن أهم الحضارات قامت عليها ، وأنها زينت حياة ملايين من الرجال — بما لا تقدر على فعله مذاهب الفلسفة — من زهد وإخلاص وإنكار الذات ومحبة الغير . . فالديانات عبارة عن قوى يجب الانتفاع بها لاهدمها ، ولا يجوز أن يضطهد رجال الدين إلا إذا أرادوا أن يضطهدوا المعتقدات الأخرى . الديانات — وهي التي تورث النفوس آمالا كباراً — ملجأ البائسين في كل وقت . فلنعد الخياليين الذين أوجدوا الآلهة وعبادتها من المحسنين إلى البشر ، والعلم الذي عرفهم أخذ يعدل عن مقاتلتهم ويعترف بشأنهم الكبير ، فقد كانوا في الماضي عوامل في ثبات الأمم الخلقي ، وهم وإن كانوا سيتحولون في المستقبل لن يزولوا ، مادام البشر يحتاج إلى الأمل » !!

وعندما غاب الدين عن التوجيه ، حاولت ديانات مصطنعة أن تتكلف الناس فوق ما يكلفهم به أى دين ، لتحتلّ فى نفوسهم مكان الدين وتعبىء الطاقة الدينية المعطلة وتشغل الفراغ المهول ...

• إن الفيلسوف الانجليزى الكبير برتراند رسل يحلّل شعور (الوطنية) فيقول فى كتابه (نحو عالم أفضل) : « والوطنية شعور معقد أيما تعقيد ، يتكون من الغرائز الفطرية ومن المعتقدات الراسخة فى الذهن ... وفضلا عن ذلك كله هناك عنصر آخر : هو عنصر العبادة ، عنصر التضحية الصادقة ، عنصر اندماج حياة الفرد وهو راضى النفس فى حياة الأمة ، وهذا العنصر الدينى من عناصر الوطنية ، عنصر جوهرى لقوة الدولة مذ كان يسجل أحسن ما تنطوى عليه صدور الذين يؤمنون بالفداء القومى » !!

• والفيلسوف الفرنسى لوبون يتحدث عن النظريات التى روّجها الاشتراكيون فى بلاده وغيرها بقوله : « ولا تنتشر الاشتراكية لما فى مثلها الأعلى المادى الذى تقترحه من قيمة ، إنها تنتشر لما تبذره فى النفوس من أمل دينى فى جنات دنيوية يتمتع فيها جميع الناس بسعادة سرمدية ! وقد أتيح لى مرات كثيرة أن أثبت أن الناس اقتتلوا فى غضون التاريخ فى سبيل المبادىء أكثر مما فعلوا فى سبيل قضاء حاجاتهم المادية ... عاش الناس للمبدأ والخيال أكثر ما للمادة ، فقد مجّدوا رجال الحرب الذين أتوا بضروب البطولة وأحيوا ، ذكريات قادة وأرباب الفن الذين لم يكن لآثارهم فائدة عملية ، وأما الذين أتوا بالمخترعات التى لا غنى للناس عنها فيظهر أن أسماءهم طمرت فى عالم النسيان ، فكأن الناس ما عاشوا وما ماتوا إلا لأجل المبادئ » !!

هذه حقيقة ينبغى ألا تغيب عمن يسجلون آثار الدين . . . ويتناولون مدى الحاجة إليه ...

وما أصدق ما يقرره باستيد فى كتابه (مبادئ علم الاجتماع الدينى) :

« لقد فرّق كورنو فى رسالته عن (تسلسل الأفكار الرئيسية) بين الغريزة الدينية وبين الأفكار التى تعبر عنها ، فمن الممكن أن تولد الديانات وأن تموت وأن تحلّ مكانها ديانات أخرى . ولكن الأشياء التى تولد وتموت على هذا النحو ليست سوى مجموعات الأفكار والعقائد والأساطير ، أما الغريزة الدينية التى أثارت هذه الأمور — وهى غريزة فطرية فى الإنسان فتبقى دائما ، لأنها تخلق صوراً دينية جديدة على أنقاض الصور القديمة » .

والفيلسوف الكبير برتراند رسل لا يتهم بالتحيز للدين ، ومع ذلك فإنه قد عرف جيداً نزوع الإنسان لإرضاء طاقته الروحية ، فهو يقول :

« ويمكننا أن نقول : إن الناس يصدرون فى أعمالهم عن أصول ثلاثة ، ليس بين بعضها كبير فرق ، إلا أنها تتميز عن بعضها البعض بما يكفى لتسميتها بأسماء مختلفة : الغريزة ، والعقل ، والروح . وحياة الروح هى التى تصنع الدين . . .

- إن الغريزة هى التى تهبنا القوة
- وإن العقل هو الذى يهبنا وسيلة توجيه القوة إلى الغايات المنشودة
- والروح هى التى توحى بالفوائد غير الشخصية للقوة التى تكون من نوع لا يستطيع العقل أن يحطّ من شأنه بالنقد .

ومن شأن حياة العقل — بسبب انعزالها — أن تفصل بين الإنسان وبين غيره من الناس فصلا داخليا ، طالما تكون غير متوازنة مع حياة الروح . ولهذا السبب يستطيع العقل إذا استقلّ عن الروح أن يسبب فساد الغريزة وأن يلحق بها الهزال . . .

ولكى تحصل الحياة الانسانية على الحيوية فلابد من أن تكون النزعات الغريزية قوية ومستقيمة ، ولكن لكى تكون الحياة الإنسانية صالحة فلابد أن تسيطر على هذه النزعات وتتولاها بالرقابة رغبات أقل شخصية وأقل قسوة ،

أقل قابلية للإفضاء إلى النزاع من الرغبات التى توحى بها الغريزة وحدها ....

نحن فى حاجة إلى شىء كلى وغير شخصى أولا وقبل كل شىء مما ينشأ عن مبدأ النمو الفردى ، وهذا هو ما تمنحنا إياه الروح » !

* * *

ومن عناصر القوة فى الشعور الدينى أنه ليس إدراكا ونظرا فحسب ، إنه وجدان وانفعال ، والتقاء واتصال ، وتذوّق ومناجاة مع تلك القوة العليا التى اقتنع وآمن بها الإنسان . . . .

والأستاذ كليانت وب يشير إلى هذه الخاصية التى يتفرّد بها الدين فى بحثه الممتع (الدين والفلسفة والتاريخ) [1] حيث يقول :

« يرى بنديتو كروتشى أن الدين ليس إلا صورة من صور الإدراك المحض للنشاط الروحى ، وأعتقد أن ليس فى وسعنا أن ننكر أن الإنسان قد بدأ يتفلسف حين فكّر فى الدين ، أى حين أخذ يكون فكرة عن العالم ككلّ . وبما أنه لا شك فى أن هذه المهمة — تكوين فكرة عن العالم ككلّ — تقع بتقدم المدنية على عاتق الفلسفة شيئا فشيئا ، فإن النتيجة أنّ الفلسفة — إن كانت هذه هى وظيفة الدين الوحيدة — لابد أن تغتصب فى نهاية الأمر مجال الدين كله !

ولكنى لا أعتقد أن هذه هى وظيفة الدين الوحيدة ، ففى الدين ينشد الإنسان الاتصال بما يظن أنه يقوم وراء كل تجاربه ، بل وراء نفسه التى تقوم فى نفس الوقت بهذه التجارب . إنه لا يقنع بأن يدركه باعتباره شاملا لمبدأ الحياة الأقصى — ونعنى به سر الوجود ، بل يتوق إلى الائتلاف معه بحيث لا يصبح موضوعا للمعرفة فحسب ، بل يصبح فريقا ! . . . إن مدرسة معاصرة من متفلسفة رجال اللاهوت بألمانيا قد استرعت النظر إلى أن مخاطبتنا لله بضمير المخاطب لا الغائب

(١) المجلة التاريخية المصرية — أكتوبر ١٩٥٠

فى الدعاء والصلاة يكشف عن عمق الصلة بين المؤمن وبين الله » !

وما أروع كلمات العقاد المنيرة الهادية فى كتابه (أبو الأنبياء) :

« إنّ حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرّقة بين الأرباب ، يتسلّط عليها هذا بإرادة ويتسلّط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضى بها إلى وجهة غير وجهتها !! فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى ، بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدقّ وأوفى .. أما ميزان العدل الإلهى فهو الذى أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة ، وكل ما عداها من دعامة فإنما هى دعائم القوة ممن يقدر عليها ! وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض . . . فإذا ارتفع الميزان إلى اليد الإلهية ، فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ندّان متساويان ومخلوقان أمام خالق واحد . . .

والإله الواحد لم يكن حلّ مسألة ولم يكن سرّ أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد !.. بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، وإليه المرجع والمآب !

كانت عبادته (مسألة حيّة) تمتزج بسرائر النفس ، وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوى عنها زاوية فى الكون ولا فى ضمير الإنسان . . . كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ... ولم تزل حتى أصبحت وهى صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء » !!

* * *

ولنرصد بعض آثار الطاقة الدينية فى حياة المجتمعات وتاريخ الشعوب . . .

« إن الثورات الدينية يمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيرا ، وقد شوهد ذلك عند ما حوّل محمد بما جاء به قبائل العرب الضعيفة إلى أمة عزيزة .

ولا يقتصر المعتقد الدينى الجديد على جعل الأمة متجانسة ، بل يأتى بما يتعذر على أى فيلسوف أو قانون أن يأتى بمثله : إنه يغيّر عواطف الأمة الثابتة ! . . . ولم تقتصر المسيحية على تحويل العادات ، بل أثرت تأثيراً كبيرا فى سير الحضارة مدى ألفى سنة . فمتى يتم النصر لمعتقد دينى تلائمه الحضارة ملاءمة تتحول بها ، ولا يفعل الكتاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقتئذ غير الإشارة إلى المعتقد الجديد فى تآليفهم » !

هذا ما يقرره لو بون فى كتابة (روح الثورات) . . .

والواقع أن الطاقة الدينية تظهر ثمارها فى الجماعات كما تظهر فى حياة الأفراد :

« فالدين يؤدى وظيفة هامة جداً فى تغيير بنية المجتمع . . . وإذا أردنا أن نكون لأنفسنا فكرة أكثر دقة عن هذا التأثير ، فربما كان من المستحسن أن نلجأ إلى تفرقة برجسون الشهيرة بين الديانات المغلقة والديانات المفتوحة . فالديانات الأولى : تنبثق على نحو تلقائى من البيئة الإنسانية لتحل فيها مكان الغريزة الاجتماعية المشرفة على الأفول ، ولكى تدفع عن المجتمعات أسباب الانهيار . أما الديانات المفتوحة : فتستخدم قوتها الديناميكية فى نسف الحدود وفى القضاء على العادات التقليدية ، فتأثيرها يدعو إلى التحول ، بل هو تأثير ثورى . . .

- يقول ديبار : (يحمل المسكن طابع الآراء الوهمية والاعتقادات والطقوس الخاصة) . . .
- وزيادة النسل أو نقصانه تتأثر بالعامل الدينى . . .
- وترجع بعض النظم الاجتماعية إلى عامل دينى . . .
- وهناك اتصال مستمر بين النظم الدينية والسياسية : فإعلان حقوق الإنسان على أثر اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م يرتبط مباشرة — عن طريق التصريح الأمريكى السابق عليه — بالإصلاح البروتستنتى فى القرن السادس عشر ، وتؤدى المطالب الاشتراكية إلى طبع كثير من الاتجاهات المسيحية بطابع مدنى . . .

• وعلى الرغم مما كتبه أحد الماركسيين : (ما كان للدين والفلسفة أن يوجدا دون الشروط الاقتصادية التى تجعل ظهورهما أمرا ممكنا)، فقد يكون تطوّر الدين هو الذى يغيّر النظام الاقتصادى ، فلقد وضع جيفونز وفريزر وريناخ فرضا يربط بين استئناس الحيوان وبين الديانة التوتمية ، ويبدو لجرانت ألين وميهوف ارتباط الزراعة بدفن الموتى ، وبيّن الاقتصادى دولافيلى أن رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها.... وعندما يرى المرء أن البروتستنتيين اللاتينيين يتفوقون على الشعوب الجرمانية الكاثوليكية ، وعندما يلاحظ أن تقدم البروتستنت أكثر سرعة واطراداً فى نفس البلد وفى نفس الجماعة ومن نفس اللغة والأصل ، فمن العسير جداً ألا ينسب تفوق هؤلاء على أولئك إلى طبيعة العقيدة التى يؤمن بها كل منهم .... وأبرز ماكس فيبر وجود علاقه بين المذهب البروتستنتى والنظام الرأسمالى فى أسمى درجاته .وليس معنى هذا أن البروتسنتى يفوق الكاثوليكى فى اتجاهه المادى، بل إن لدى (البيوريتان) فكرة تقوم على الزهد ، ولما كان الزهد يحفز على الاقتصاد فقد ساعد على تركيز رءوس الأموال ، وهكذا استخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالى ! ثم إن البروتستنتى لما كان يتخذ عمله المهنى سبيلا إلى تحقيق سعادة أخروية ، فإنه يؤدى عمله على أكمل وجه طبقا لما يوحى به ضميره ، وهكذا يصبح مديراً صناعيا ممتازا »[1] !!!

هذا هو أثر الدين الاجتماعى الذى سجلته الملاحظات الدقيقة . . .

أثر شمل الفرد والجماعة ، وامتد من الماضى إلى الحاضر . .

وتجاهُلُ هذا الأثر تعطيل لطاقة ضخمة فى الإنسان ، وإضعاف لقواه الأخرى على مر الزمن .

---

(١) باسليد : مبادىء علم الاجتماع الدينى ــ ترجمة دكتور قاسم .

لقد تألّقت كشوف العالم فى فترة ، فوهبت الإنسان حماسة ، ونفحته بروح خُيِّل له معها أنه لم يفقد بطرح الدين شيئا . . .

ومضت أمام عينيه أضواء النظريات ، فى عهد من تاريخ الإنسان يصح أن يُسمّى : بعهد (الإزم ism) — خلعت عليه هذا الاسم أكداس المذاهب التى تنتهى بهذه النهاية اللغوية فى شتى مجالات الفكر والحياة ، فاندفع الإنسان لا يلوى على شىء ، وأوهمته دفعة التعصب لمذهبه أن فى وسعه أن يستغنى بما عنده عن الوحى والدين . . .

ومضت الأيام . . . .

وفتر وميض الكشوف والمبادىء ، وبرد الإنسان . . .

وعاد يبحث من جديد ...

ترى هل يستطيع الدين أن يعيد المعجزة

ليبرئ أكمه الروح ، ويحيى موتى القلوب ؟ ؟

رسالة ... خالدة

في أول الأمر يمتد (الدين) إلى كل شيء ...

« فكل ظاهرة اجتماعية ظاهرة دينية ، وهذان اللفظان مترادفان . ثم تحررت الوظائف الاقتصادية والسياسية والعلمية من الوظيفة الدينية شيئاً فشيئاً ...

والتفكير الحر ظاهرة لا بداية لها في كل مكان . ولكنها تنمو دائماً في جميع عصور التاريخ » ...

هكذا يقول دور كايم كتابه : (تقسيم العمل الاجتماعي) ، وهو يعرف تطور الدين بأنه (تقهقر) ...

ويذكر ريناخ — من أتباعه — أن البدائي كان يشعر على الدوام بقوى رهيبة ، وأنه يعيش في رعب مستمر . ولما حدد رجال الدين عدد الأمور المحرمة ، وأعلنوا أنهم وسطاء بين الإنسان وبين القوى الإلهية ، صنفوا ضروب الفزع ، واختصروا عددها ، وقد شهدت الشعوب القديمة تحديد أيام النشاط الديني وساعاته ، وهكذا وجد العرب نصيباً أكبر من الحرية . وعندما قررت المسيحية عقائدها ساعدت على التعجيل بعصر الحرية ،لأن ريناخ يرى أن المسيحي متى سلم بالعقائد ، استطاع أن يتجه بنشاطه بعد ذلك نحو الأعمال الدنيوية !!!

وقرر أوجست كونت (قانون الأحوال أو الأطوار الثلاثة) :

«ففي بدء الإنسانية كانت الأفكار الدينية (في عبادة الأصنام) متحدة اتحاداً تاماًومباشراً بالإحساسات نفسها .. وكان مذهب تعدد الآلهة أول هبوط عام في التفكير الديني .. وكان التوحيد سبباً في ازدياد هذا الهبوط ، ففي الحياة

الحقيقية ـ سواء أكانت فردية أم اجتماعية ـ يظل المذهب الكاثوليكي منصرفاً على الدوام إلى زيادة نصيب الحكمة الإنسانية بالتدريج على حساب الإلهام الإلهي ، وأدّى المذهب البروتستنتي إلى انحلال التصورات الصوفية نهائياً . وهكذا فقانون التطور هو في نهاية الأمر قانون القضاء على الأفكار الدينية في العالم »[1] !!!

* * *

هذه الفكرة يتناقلها أناس بغير وعي وبصيرة ، وعلى غير إلمام بالدراسة التاريخية والاجتماعية . . . .

● فينبغي أن يراعي أولا ، ما ينبغي مراعاته في كل دراسة إنسانية ، من التحفظ في إطلاق التعميمات وعدم مسايرة أهواء الحدس في اصطناع القوانين . . .

وما أدق إشارة جوستاف لوبون في كتابه (روح الثورات) : « إن ما ألّفه كتّاب النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يثبت ما للمبادىء الدينية والأدبية المحتقرة الآن (!!) من الشأن في ذلك الزمن . فالمصلحون في كل زمن سعوا إلى إقامة المجتمعات الجديدة على ما لا تقوم بغيره من المعتقدات الدينية والأخلاقية ! وإلى ماذا يستند المصلحون في إيجاب تلك المعتقدات ؟ ؟ إلى العقل !! فمادام العقل هو الذي يصنع الآلات المعقّدة ، فلم لا يستعينون به على إيجاد معتقدات دينية أو خلقية !! . . إن أوجست كونت قد أسّس (ديناً) وضعياً لم ينتحله بضعة أشخاص حتى الآن ، ويأمر هذا الدين بتعيين كهنة ، يدير أمورهم حبر جديدة غير الحبر الأعظم للمذهب الكاثوليكي !!! »

● وينبغي بعد ذلك أن تعرف الظروف التاريخية والنفسية التي صدرت عنها بعض الأحكام المتسقة والتعميمات الساذجة والتقريرات الفطيرة . . . إن القوم كانوا (يدينون) بمحاربة الدين ، و (يتعبّدون) ببناء صرح علم مادي لا يدع أي

(١) باسليد : مبادىء علم الاجتماع الديني ـ ترجمة دكتور قاسم .

فراغ لشيء غيبي ، ولا يسمح بمقدار ذرّة من سلطان للإلهيات والروحيات بعد أن ذاقوا من كهنتها الأمرين ، وبعد أن بهرتهم أضواء الكشوف والمخترعات . . . فلما هدأت الأعصاب ، ونشأت أجيال فى ظل مدنية الآلات فلم تعد شيئاً جديداً فتّاناً ، وحققت هذه الآلات راحة ووفرت جهداً ووقتاً للتفكير المادىء أحياناً ، وطحنته الناس الحروب العالمية ، والأزمات الاقتصادية والمتاعب النفسية للحضارة الآلية ، تغيّرت النظرة فتغيّر المنظور ، وهفا الناس إلى حديث الروح . . .

« وقد اضطر أوجست كونت نفسه إلى الاعتراف ، فى النصف الثانى من حياته ، بأن العاطفة تحتل المقام الأول وبأنه يجب إشباعها ! ومن ثمّ انتهى إلى ابتكار (دين تحقيقى !) ليستعيض به عن الديانات الموحى بها ، وهو عبادة عظماء الرجال أو عبادة الإنسانية » ! ! [١]

● ثم ينبغى أن تعرف المناهج الاجتماعية والتاريخية على وجهها ، حتى يتحدّد مدلول الألفاظ دون لبس أو خلط . إن اصطلاح الدين فى نظر علم الاجتماع أوسع من أن يقصد به الديانات السماوية ، وهذا فريزر يرى أن الدين بدأ بظهور فكرة الآلهة ، أو على أكثر تقدير بظهور أرواح الأفراد أو أرواح الطبيعة التى يتخيلها المرء على غرار أرواح البشر . ويقول دور كايم :

« إن العنصر المشترك حقيقة بين جميع الديانات هو معنى الأمور المقدسة ، فتقوم على تصنيف الأشياء فى نوعين متضادين : قدسى ودنيوى . والأشياء المقدسة ليست مجرد الكائنات الشخصية من آلهة أو أرواح ، بل قد تكون صخرة أو شجرة أو نبعا أو نهرا أو قطعة خشب ، وقد يوجد هذا الطابع فى طقوس أو ألفاظ » .

---

(١) باستيد : مبادىء علم الاجتماع الدينى — ترجمة دكتور قاسم

وعلم الاجتماع لايهتم (بالتقويم) ، وليس هو من العلوم المعيارية ... فالعقيدة الصحيحة والخاطئة ، والعبادة السليمة والمنحرفة ، والوثنية والفتشية والحيوانية ، والتعدد والوحدانية ، والآلهة المشخصة والقوى المطلقة — فى موازينه سواء ! ومن هناك لاغرابة أن يرى علم الاجتماع أن الروحانية الغيبية (تتقلص) ، فى حين يرى داعية الدين أن هذا التقلص المقصود هو تقلص الخرافة ، وأن من الخير للإنسانية أن تتقلص الخرافة دون جدال !

ولذلك يدرس علم الاجتماع ظاهرة السحر ، ويحلل العلاقة بينها وبين الدين . ويرى فريزر أن : « السحر كان سابقا على الدين ، وأن الإنسان حاول إخضاع الطبيعة لرغباته بمجرد تأثير صنوف سحره ، قبل أن يحاول تدليل (!) إله متحفظ متقلب الهوى سريع الغضب بما تحتوى عليه الصلاة والقربان من حلاوة التلميح !! »

ويرى باستيد أنه : « من المحتمل أنه كانت هناك مرحلة لم ينفصل الدين فيها عن السحر ، ولكن أخذت تلوح ضروب النزاع بينهما . ثم جاءت مرحلة ثانية كانت مفترقا لطريقين : يقود أحدهما نحو الجمود الذى ينتهى إلى السبات والركود ، ويتجه الآخر نحو الجانب الروحى » . . ولعل فى هذه النماذج اليسيرة من ألوان الدراسات الاجتماعية ما يدعو إلى تفهم مناهجها فى التأريخ للتطور الدينى .

وليس معنى هذا أن الدراسات الاجتماعية والتاريخية لا تسد حاجة عند الدارس المنصف لقضية الدين . . . إنك إن طرحت منها أهواء الحدس والتعميم وشهوات المجازفة بالتقنين وجدت أبحاثا ذات قيمة كبيرة ، لو فهمت على وجهها ، وأحسنت الاستفادة منها . . . لنستمع إلى باستيد يقول :

« تظهر الديانات وتتطور داخل الحضارات التي لا يمكن أن تسبقها أو تتأخر عنها دون أن تتعرض للموت ، ومعنى هذا أن هناك علاقات بين النماذج الدينية وبين مختلف التراكيب الاجتماعية . ولنفحص تأثير المجتمع على الدين ... إن كل تحول يطرأ على المجتمع يصحبه انقلاب مماثل في النظم الدينية ـ مثال ذلك الانتقال من نظام البدو إلى الحضر : فالعرب الرحل الذين يوحد بينهم صراعهم المرير ضد الصحراء يقدسون أسلاف العشيرة ، أما لدى الزراع الذين استقروا فى بقعة من الأرض فإن تقديس الأولياء يحتل مكان تقديس الأسلاف ، وهو أقل اطرادا وأكثر تخلخلا منه ، وقد أدى استقرار الاسرائيليين فى يهوذا إلى إن يصبح (يهوه) إلها للزراعة على غرار (بعل) بعد أن كان إلها للرعاة . وقد انعكس الانتقال من جنى الثمار إلى الزراعة : فى الانتقال من ديانة ساذجة تقول بحياة المادة إلى عبادة أقل سذاجة وهى عبادة الطبيعة . ويؤدى تحول النظام الأسرى إلى مثل هذه التغييرات : ويتجلى ذلك بمتابعة تاريخ الآلهة الإناث والذكور عند الإغريق . وبظهور المدن : ينعكس التركيب الاجتماعى الجديد على التصورات الدينية والنظام الدينى ، وكانت أقدم ديانة فى الصين ديانة زراعية مصحوبة بأعياد الربيع ومواكبها ومبارزاتها وأغانيها . وورث الشريف فى المدن الإقطاعية الطابع المقدس لهذه الأعياد . . وفى الثورات يؤدى انتصار السوقة فى نهاية الأمر إلى عودة الأفكار القديمة . ثم تفضى التجارة ونمو الزراعة إلى اختلاط الشعوب : وتعبر محاولة التوفيق بين المذاهب الدينية عن محاولة التوفيق بين الشعوب من الوجهة الاجتماعيه . وإذا كان كل تعديل يطرأ على بنيه المجتمع مؤديا إلى انقلاب مماثل فى الحياة الدينية ، فكذلك يؤدى بقاء حالة اجتماعية معينة إلى بقاء نموذج دينى بعينه ، على الرغم من التغيير الطارىء على العقائد . إن المسيحية احتلت محل الوثنية فى أيرلندا ومقاطعة الغال ، ولكن كان نظم الهيئة الدينية الجديدة مجرد نسخة

مأخوذة عن نظام المجتمع القديم ، وأنشئت الأديرة أولا قبل تشكيل الأسقفيات والأبرشيات » . . .

قد يقرأ المتدين هذا الكلام فينفر ؛ لأن الدين يغدو وفق هذا المنطق نتيجة التطور الاجتماعى لا نتيجة إلهام الوحى الإلهى . . . ولكن الباحث الدارس يستطيع أن يقيم موازين الحق ، ويخرج بالثمار النافعة من كل جهد :

● فينبغى أن يستوثق من صحة الوقائع التاريخية التى استخلصت منها النتائج ، ومن اطّراد هذه الوقائع ، كيلا تكون الأحكام مبتسرة ترضى أهواء خفيّة . وينبغى أن ينظر إلى محاولات الاستنتاج والاستبطان فى دراسة الوقائع التاريخية على أنها مجرد (محاولات) لا غير .

● فإذا تم ذلك فإن مثل هذه الدراسات الاجتماعية قد تفيد فى توضيح بعض الأمور ، مثل تفسير ظهور بعض الديانات غير السماوية وتطوّرها ، وإبراز الأشواق والرغبات الإنسانية التى يسعى البشر لتحقيقها عن طريق الديانات المصنوعة . . . ومن هذا وذاك يمكن التوصّل إلى ما ينتظر الإنسان أن يحققه الدين المنشود له من إرضاء وسموّ فى الوقت نفسه .

● ثم إن هذه الدراسات تعين على تدبّر مجارى التفكير البشرى فى تلقى الدين السماوى ، فالبشر يتصوّرون الدين وفق ظروفهم النفسية والعقلية والمادية ، وقد ينحرفون بأهوائهم عن سوك الطريق الذى خطّه الوحى مستقيما لا عوج فيه . . . ولما كان الفكر الدينى شيئا آخر غير (الدين) نفسه فى نصوصه المتناهية المحدودة المحكمة ، فإن الاستنارة بالدراسة الاجتماعية قد يعين على تحليل عوامل تكوين الفكر الدينى فى عصر أو بيئة أو عند شخص ، وما طرأ من تغيّرات فى فهم الدين وتنفيذ أحكامه .

• كذلك تعين الدراسات الاجتماعية على تقدير أهمية (البيئة) فى الفكر والنفس . . . ومن هنا يبدو رائعا حرص الدين على تسلم زمام التوجيه فى الأسرة والمجتمع والدولة والعالم عن طريق التشريع ، وعدم الاكتفاء بالتقرير النظرى العقلى البحت للعقيدة ، ومن هنا لا يُترك الدين للناس كنظرية حسابية يثبتها الإحصاء والتجريب ! إن التكوين النفسى والاجتماعى ينبغى أن يصاغ بحيث يعين الفرد على الحياد العقلى ، ويرفع عنه الضغوط والمؤثرات التى تجعل (النظرية) التى تقررها العقيدة الدينية فى واد ، وإيحاء التربية والثقافة والتقاليد والسلطة فى وادٍ آخر !!

لكن الدين فى الوقت نفسه يجعل نظمه وشرائعه من المرونة بحيث لا تنحصر ولا تنغلق ولا تتجمّد : « فالدين — أخيرا — مجموعة من العقائد والعواطف أكثر من أن يكون مجموعة من النظم . لأن النظم لما كانت تهدف إلى تنسيق العلاقات المادية بين الناس كانت تتوقّف إلى حدّ كبير على الشروط العمرانية والخاصة بالتركيب المادى للمجتمعات ، وتخضع الهيئات الدينية لنفس هذه الشروط بالقدر الذى تكون فيه نظما اجتماعية ، ولكنها تفسح المجال للقلوب الطموحة للحاجات العقلية ، وحينئذ نجد نصيب الأعمال الإلهية فيها أقل منه فى أى مجال آخر » — كما يقول باستيد .

• وتعيين هذه الدراسات كذلك على استيضاح تطوّر الديانات السماوية نفسها ، وتعليل افتراقها فى التفاصيل عن بعضها . . . فالله تعالى قد أرسل كل رسول بلسان قومه ، يترجم عن مطالبهم وآمالهم ، ويشرع لهم ما يوافق احتياجاتهم . والقرآن لم يورد تفصيل الرسالات السابقة على الإسلام ، ولكنه أبرز أهم معالمها ، فإذا هذه المعالم تختلف ما بين رسول ورسول باختلاف الأقوام الذين جاءهم المرسلون :

« ولوطا إذا قال لقومه ، أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحدمن العالمين .
إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون »

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ،
قد جاءتكم آية من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ،
ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين »

« وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول
على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل »

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ،
قالوا : ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون » ..

« قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك
وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل
شىء ، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين » . .

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه
لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين »

« وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، وكلوا منها حيث شئتم رغداً » . .

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذا يعدون فى السبت ، إذ
تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لايسبتون لاتأتيهم ، كذلك نبلوهم بما
كانوا يفسقون »

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن
مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا
منهم ، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا إنا نصارى

أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذُكِّروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون »

« وإذ قال موسى لقومه : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » . . .

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتُقبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقبَّلْ من الآخر ، قال لأقتلنّك ، قال إنما يتقبّل الله من المتّقين . . . فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » . . .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً »

تلك آيات نرى فيها جليا تباين الأوامر الإلهية التى أبلغها المرسلون لأقوامهم ، نتيجة اختلاف ظروف هؤلاء الأقوام المادية واحتياجاتهم النفسية والاجتماعية ، ما بين نهى عن الفاحشه وأمر بوفاء الكيل ، وصيحة بتحرير شعب . وهى تكشف عن أسلوب تقديم القرابين الذى جرى عليه ابنا آدم فى فجر البشرية ، وكيف استوحى القاتل أسلوب الدفن من نبش الغراب . . . وتبرز طابع القبيلة فى بنى اسرائيل ، وبيئتهم فى القرية وبجوار البحر ، والحظر المفروض عليهم يوم السبت ، والأمر بدخول (أرض مقدسة) ، ونزوعهم إلى التجسيم والتشبيه . . إلى آخر هذه الإشارات الموحية فى دراسة تطور المجتمعات والأديان . . . !

هذا هو الدين فى ماضيه . .

فهل بقى له ما يؤديه حاضره ؟؟

للضرورة ... أم للكمال ؟ ؟

هل كان الدين وقاء للإنسان البدائى فحسب ، يستحث جهوده ، ويعالج مخاوفه ، فإذا استطاع الإنسان أن يقضى حاجاته المعيشية عن طريق التعامل مباشرة مع سنن الكون وكشوف العلم ونظم الاجتماع والاقتصاد والحكم فقد صار الدين (غير ذى موضوع) ! !

كثير ممن يتظاهرون بالإنصاف يقولون هذا . . . ويجعلون الدين (ذا فضل تاريخى) قد مضى زمنه ، واستنفد أغراضه ، إذ غدت الإنسانية تستطيع أن تحقق بوسائلها الحاضرة من رغد العيش وسعادة النفس مالا تحتاج معه إلى دين يتحدث عن المغيب المجهول !

والحق أن الدين لا يستهدف الحفاظ على قوى الفرد ونوع الإنسان فحسب ، بل السمو بها وترقيتهما أيضا . . .

ولنتناول الإسلام مثالا على تحقيق هذه المهمة بشطريها ....

• إن الدين يقضى ضرورات العيش.. بأن يحفظ (للإنسان) كنوع مستوى يليق به : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وهو يقرر لكل إنسان حقه فى العيش الكريم ، مؤمنا كان أو كافرا ، مخلصا أو جاحداً : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد .... ومن

أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً » !

وعلى هذا الأساس الفلسفي الاعتقادى قررت شريعة الإسلام حقوق غير المسلمين المعاشية فى دولة الإسلام ، وفرض عمر بن الخطاب من بيت المال ليهودى رآه يسأل الجزية والحاجة والسن ، وضمن خالد بن الوليد فى عهده لأهل الأقاليم المفتوحة « أيما شيخ عجز عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدّقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله » .

وهذا الميدان من ميادين الدين ، يشترك فيه دعاة الدين مع دعاة الإصلاح من كل لون .... قد تكون الدعوة إلى إصلاح الدنيا عن طريق الدين أعمق جذوراً — لأسباب سنتناولها بعد وقد عرضنا لبعضها من قبل — ولكن موضوع الدعوة نفسها : وهو تحقيق ضرورات المعاش من مأكل وملبس ومأمن — يشترك فيه الدين مع كل داع إلى الخير والمعروف والإصلاح : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطّفكم الناس — فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات » ، « فليعبدوا ربَّ هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

* * *

● لكن الدين يرقى بالحياة ويسمو بالانسان إلى الكمال . . حتى لا تستغرقه معركة القوت والأمن فحسب ... هنا يتولى الدين تعميق الجذور وتوسيع الآفاق .

وبراءة الانسان من ضغوط الضرورات والحاجات لا تغنى عن الدين ،

بل تزيد التشوق إليه ... إن الانسان حين يأكل ويأمن يستطيع أن يفكر فى هدوء ، وقد تخلص من شغب المسغبة وإلحاح الحاجة .

وقضية الدين قضية فكر ونظر وتأمل وتبصر : « أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ، « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » ، « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » !

وأنى لمن تستهلكه مطالب القوت ، وهو يعيش من يده لفمه ، تهدده قرقرة البطن ومتربة العيال ، وأنى لمن تفزعه سياط الجلادين ومقارع الطغاة . . . أنى لهذا أو ذاك أن يجد : فسحة وقت ، وهدوء بال ، وحصافة عقل ، وحصيلة علم ، ليفكر فى الديانات والمذاهب والآراء ؟؟

* * *

يقولون إن هؤلاء الجياع العراة هم طليعة المتحمسين للدين ، المضحين من أجله ، المستشهدين فى سبيله . . . ويقولون إن هؤلاء (الشهداء) آمنوا فى يسر بالآخرة ، لأنهم لم يجدوا ما يخسرونه فى الدنيا ! !

والحق أن شهداء العقائد والديانات جموع لا نستبين كل أفرادهم ، وقد يكون فيهم كثير أو قليل من الضائقين بحياتهم ، ولكن الذى لا شك فيه أن بين هؤلاء الأتباع أصحاب نظر وفكر ، وجاه وثراء ، وصدق وشجاعة ،

آمنوا بالدين إيماناً لم يكونوا يفرّون به من واقع مهيض إلى خيال عريض !!

إن بولس فى تاريخ المسيحية علم خفّاق . . . كان موظفاً رومانياً قد ضمن عيشه ، وكره المسيحية حتى كان أداة فى حملة اضطهادها . . . وبولس هذا آمن بالمسيحية فكان إيمانه عجيباً رائعاً . وتردّد (أعمال الرسل) التى تلى الأناجيل الأربعة رحلاته وكلماته ومجادلاته ، فترى فيها قوة العارضة وبراعة المناقشة . . . وما أروعه وهو يجادل الموظفين الرومان الذين يتصدّون لحركته ويحاولون أن يحولوا بينه وبين الجماهير ! وما أبلغه وهو يطالب بحقوقه كاملة كمواطن رومانى !

هذا رجل حقّقت له وظيفته فى دولة الرومان ضرورات العيش والأمن . . . ورأى فى المسيحية ما هو أبعد وأعمق وأجلّ من مجرد العيش والأمن !

وجيوش الإسلام المظفّرة قد يكون فيها طلاّب الغنائم أو الضائقون بحسرات حياتهم الدنيا . . . ولكن لم تلمع أسماؤهم مثلما لمعت أسماء أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الله ابن عباس ، ومعاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله . . . هؤلاء الذين لم يؤمنوا بإيحاء الوعود البراقة واستهواء التهرّب من شقاوة العيش . . . وكم تسعد الإنسانية حين يكون المؤمنون أمثال هؤلاء الصادقين . . . ولا يكونون من أتباع كل ناعق ، الذين يتطلّعون لأى تغيير !

ودعاة الدين لا يضيقون بالمدنية والحضارة التى خفّفت عنهم أعباء معركة العيش والأمن ، إنهم يعتقدون أن هذه المدنية والحضارة قد أسدت إليهم خدمة كبرى . . . إنها نعمة من نعم الله السابغة التى سخّر بها للانسان ما يسد حوائجه لكى يجد الجهد والوقت اللذين يستخدمها فى إعمال فكره ، واستخدام عقله ، وتحقيق انسانيته .

مهمة الدين اذن مزدوجة ... وهى تحقق للناس الضرورات لكى يجدوا الفرص ليفكروا فى الكمال ... وإنّ دولة الإسلام دولة العدالة والرخاء حتى يرتقى مستوى البشر عن أن يكون صراعا من أجل اللقمة أو فراراً من الأذى والضيق لا غير !!

والدين يهيب بالعلماء أن يكتشفوا ويخترعوا ، لتسخو الطبيعة بقواها فتوفّر من جهد الإنسان ، ويهيب بالحكام أن يعدلوا ليأمن الناس المظالم والمغارم فيفرغوا للانتاج والإبداع ، ويهيب بالناس جميعاً أن يتناصفوا لتخفّ ضغوط الحاجة وشرور التنازع والخصام . .

وإلى هذا الحد لا ينفرد الدين بالعمل ، ولا يأبى الوحى للاقتصار على هذا المجال ، فالإنسان قد سعى طويلا وكسب طويلا فى هذا السبيل ، والدين لايخاصم ثمار الجهود الإنسانية فى العلم والتنظيم التى يسّرت الحياة أيّما تيسير ، ولا يعتبرها انتزعت منه ميدانا — بل إنها وفّرت عبئاً لم يكن من مهمته الأصيلة ، ولا ينظر إليها أنها أقفلت أمامه القلوب — بل إنها فتحتها أمامه على مصاريعها بما وفرت عليها من الشواغل والهواجس والهموم !!

يقول تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكّننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً . . . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » . . .

وهذه الآية كما توحى بأن المؤمنين إذا عبدوا الله مخلصين له الدين استخلفهم فى الأرض ومكّن لهم الدين ورزقهم الأمن بعد الخوف . . . توحى كذلك بأن استخلاف المؤمنين والتمكين لهم هو السبيل لعبادة الله فى الأرض دون فتنة ولا صدّ بإغواء أو ترهيب : « كأنه قيل : ما لهم يستخلفون ويؤمنون ؟ فقال : يعبدوننى موحّدين » — كما ورد فى تفسير

النسق . . . وعلى هذا يمهّد الاستقرار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الطريق أمام حرية الفكر والضمير فى عبادة الله ، ويأمن الناس من فزع الناس فلا يعبد فى الأرض غير الله ، ولا يستعلى على خلقه إلا العزيز الجبار المتكبر ، وهو الواحد القهار !

« والمقصد العام للشارع من تشريعه الأحكام هو تحقيق مصالح الناس بكفالة ضرورياتهم ، وتوفير حاجياتهم وتحسيناتهم . . .

وكل فرد أو مجتمع تتكون مصلحته : من أمور ضرورية ، وأمور حاجية ، وأمور كمالية . مثلا الضرورى لسكنى الإنسان : مأوى يقيه حر الشمس وزمهرير البرد ، والحاجى : أن يكون المسكن مما تسهل فيه السكنى بأن تكون له نوافذ وأبواب ، والتحسينى : أن يجمّل ويؤثث وتوفر فيه وسائل الراحة — وهكذا طعام الإنسان ولباسه وكل شأن من شئون حياته . والبرهان على أن كل حكم فى الإسلام إنما شرع لإيجاد وحفظ واحد من هذه الأمور الثلاثة ، هو استقراء الأحكام الشرعية الكلية والجزئية . . . »(١)

* * *

ولكن ماذا بعد هذا ؟

ما الذى يريد أن يحققه الدين فوق كفالة الضرورات ؟؟

• يريد إطلاق الفكر الإنسانى . . .

إن الاعتقاد تفكير ، وطريق الإيمان هو التبصّر فى آيات الله فى الآفاق ، وقد خاطب الله الذين يعقلون ويتفكّرون ويتدبّرون . . . ولن يوجد هؤلاء إلا إذا تحقّقت خصائص الإنسانية التى تتفرّد بها فى مستواها الرفيع . وكم يسخر

---

(١) خلاف : علم أصول الفقه

القرآن من الذين حجروا على عقولهم ، وغلّوا تفكيرهم ، وقنعوا بأن يكونوا أسرى الهوى أو السلطان !!!

● ويريد الدين تحقيق راحة النفس الإنسانية . . . عن طريق إحكام الرابطة بين الفكر والوجدان ، بين المنطق والعاطفة ، بين العقل والروح . . . فتنمو النفس بسياحة العقل فى محاولة كشف العلاقات ، والتعمّق إلى ما وراء الجزئيات ، وتهتدى إلى موضع الإنسان من الأرض ، وموضع الأرض من الكون ، وموضع الكون فى قصة الوجود والفناء . . .

« وكأين من آية فى السموات والأرض . يمرّون عليها وهم معرضون »

« أفلم يسيروا فى الأرض . . . فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ... فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

وتلك الأمثال نضربها للناس . . . وما يعقلها إلا العالمون . خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين »

« أو لم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ... كانوا أشدّ منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » ، « كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثاراً فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » !!

وهكذا يستريح الإنسان فى السراء والضراء ، حين يعلم سنن الكون وحكمة الخالق : « إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون » !!

* * *

وحتى فى تحقيق الضرورات ، للدين خصائصه وميزاته التى تعمّق الإفادة من آثار العلم والتنظيم :

فهو يجعل مطالب الحياة الكريمة من فرائض الدين، ويوكّل الكفاح من أجلها وصيانة ثمار هذا الكفاح إلى حراسة العقيدة ... فلا يكون هناك تعارض بين الدين والدنيا ، ولا تناقض بين احتياجات المعاش وقضايا الفكر والوجدان . والدين يرحب بكل جهود مثمرة تيسّر المعاش للناس ، ولا يريد أن تستغنى البشرية بالوحى والدين عن العقل والاجتهاد .

وهو إذ يضع الإنسان فى مستواه الرفيع ، فيقرن بين تحقيق ضرورات الحياة المادية والاستجابة لأشواق النفس الإنسانية ... يُسوِّى بين كل أفراد النوع الإنسانى فى تقرير هذه الحقوق وتحصيلها ، لأنّ الجميع عباد الله

« فذلكم الله ربكم الحق ...

فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ..

فأنّى تصرفون » !

الدين ... والحضارة الصناعية

لم تسكن الحضارة الصناعية كلها شراً على الدين والروح كما يظن البعض ...
لقد حملت الحضارة الصناعية فى طياتها هذه المزايا بغير جدال :

● تقدم المناهج العلمية فى البحث النظرى والتجريبى

● رقى وسائل النشر والإعلان ، من طباعة وصحافة وإذاعة . . إلخ

● نهوض سبل المواصلات وتهيئتها الفرصة لتحقيق الوحدة العالمية ، ورفع الحواجز المادية والمعنوية التى تعزل الأمم عن بعضها

● كثرة الخدمات الآلية ، التى توفر للانسان جهده ووقته للمتعة النفسية والذهنية

● تقرير مبدأ التخصص وتقسيم العمل ، الذى أعان على الإتقان والتجويد بأقل التكاليف والجهود

ونتيجة هذا كله . . . . توفير وقت فراغ للإنسان يتيح له الراحة ، كما يمنحه فرصة تنمية طاقته وشحن قواه . . . .

على أنه قد تخلف عن الحضارة الصناعية تزايد فى حساسية الإنسان للقلق....

وينبغى أن ينتفع الدين من هذا كله فى تقديم نفسه للناس، مستفيداً من مناهج العلم ووسائل النشر وسبل المواصلات، مستغلا فرص الفراغ، معالجاً أزمات القلق....

ولم يتحقق هذا فى أول الأمر ، ووقف فى طريق الدين رد الفعل المباشر الذي حدث فى بداية عصر النهضة . . .

وظن أناس أن العلم قد حمل معه الكفر ، وأن المعابد لابد أن تفسح

مكانها للمعامل والمصانع ... وأنه لم يعد مجال فى حضارة الآلة للأتقياء والقديسين !!

واستفادت من تمهيد طرائق البحث والنشر والاتصال صرخات الإباحة والتحلل ، والإلحاد والعربدة . . .

لكن جاء الدمار الذى أحدثته الحروب قاضياً على كل ثقة فى الآلة العجيبة وحضارتها الهائلة !!!

* * *

« ويبدوا أن بعض العلماء الاجتماعيين قد خلطوا بين ظاهرتين مختلفتين تمام الاختلاف وهما : الانحلال أو التقهقر ، وظهور الفروق بين الوظائف التى كانت مختلطة فى أول الأمر . فظهور الفروق هو بحق قانون التطور الديني ، ومع ذلك فليس ثمة صلة بينه وبين التقهقر . فالدين يفقد بعض مناطق نفوذه ، لأنه يتخلى عن بعض الميادين التى لا صلة له بها ، ولكن ما يفقده من جهة الامتداد يكتسبه من جهة العمق . حقاً كان الدين يحتل مكاناً كبيراً جداً لدى البدائيين ، ولكن ذلك يرجع إلى أنه كان مختلطاً بعناصر أخرى اقتصادية وسياسية وأسرية ، ومن ثم كان مجراه متسعا ، فى حين أن مياهه كانت محمّلة بالأدران . فليس القانون الأكبر فى علم الاجتماع هو السير إلى الفناء ، بل هو الاتجاه نحو استقلال الوظيفة الدينية التى تحقق اتصال المرء بربه » . . .

تلك كلمات دقيقة ، وضع بها (باستيد) الأمر فى نصابه .

وقد تحدث هذه الكلمات شيئاً من لبس ، عند من يحبون أن يعرفوا الدين على أنه شامل لكل شيء ، وما فرّط من شيء : دين ودولة وعقيدة وشريعة وروح ومادة ... ومعاذ الله أن يحصر الإله المعبود وهو رب كل شيء فى نطاق لا تتعداه ألوهيته ، وأحكامه وشريعته ، وليس من الصواب أن يجعل

الإنسان أو زاعاً وأشتاتاً تتنازع السيطرة على أشلائه الآلهة والأرباب !!

إن الله الواحد يمنح الإنسان بكل قواه وطاقاته ونوازعه عقيدة شاملة كلية ، تجعله يراقب الله فى اتصاله بالناس ، ويلتمس الآخرة فى طلب الدنيا ... ولكن هذا لا يعنى أن الوحى قد أتى بخطة مفصلة للانسان يعمل بها فى حقول الهندسة والطب والطيران والبترول والذرة . . . وإنما أتى الوحى بخطوط رئيسية فى العقيدة والشريعة هى مفتاح الطريق وأساس السلوك وملاك الهدى ، لا يستطيع المؤمن أن ينفصل عنها وهو يكدح فى فجاج الأرض ويعمل على الانتفاع من نواميس الكون ، لكن هذه الخطوط العامة لا تسد عليه مسالك فكره ولا تجثم كابوساً على عقله ولا تعوقه عن بحثه وسعيه :

« وكما أودع الله سر الحياة فى النواة والبويضة والبيضة ، لتتولد عنها كائنات لها أجهزتها وأعضاؤها ووظائفها ، ثم لا تلبث تنتقل بين دور ودور ، حتى تترك وراءها سر الحياة فى حلقة جديدة من سلسلة الأحياء ، وكما يتسع امتداد الخلق والحياة فى الزمان والمكان ، فلا يأخذ من سر الخلق وبذرة الحياة إلا القوة الدافعة والخصائص الكامنة دون الشكل الظاهر والمظهر الخارج ... كذلك الدين : انطلاق للحياة على الأرض ، يشع الدين خلاله على النفس والعقل والسلوك والتشريع ، دون أن ينحصر فى مجموعة من الكلمات والتعاليم والمظاهر الجامدة المتناهية التى تضمها الأوراق وتتناقلها الشفاه !! . . . إن الدين يخلق حضارة فى كل أرجاء الحياة ، حضارة تتجدد وتتطور كلما تتابعت الأجيال وتطورت البيئات ، لا مجرد رسوم وتعابير هامدة تكرر نفسها دون جديد» !![1]

(١) رسالة « الدين للواقع » — للمؤلف

ولا أجد إيضاحا لهذه الحقيقة أوفى مما أدلى به الأستاذ الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فى حديثه لجريدة (أخبار اليوم) عندما سئل عن محاولات الوصول إلى القمر ، قال :

« هذا جانب بشرى تركه الإسلام فى ذاته وفى وسائله للعقل البشرى ، ولم يحدّد له طريقا ولم يبين له فى حقيقة . نعم ، وليس من شأن الديانات السماوية أن تكشف الحقائق الكونية ، وأقرب مثال لنا أن القوم فى زمن التنزيل حينما رأوا القمر يصغر ثم يكبر ويكبر ثم يصغر ويتخذ أشكالا مختلفة وراعتهم هذه الظاهرة ولم يعرفوا عن أسبابها شيئاً اتجه بعضهم إلى النبى يسألونه ، فكان جواب الحكمة الإلهية أن أخذت بهم عن البحث فى هذا الجانب إلى بيان الثمرة والحكمة المترتبة على صغر القمر وكبره : « يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » . والآية تشير إلى أن التوجّه إلى بحث الكائنات أو تفسير الشرائع السماوية بالسنن الكونية إتيان للبيوت من ظهورها ، فعلى الناس أن يريحوا أنفسهم من تكلّف تطبيق القرآن أو تفسيره أو احتوائه على مظاهر الكون ، فالكون كتاب والقرآن كتاب ، والقرآن يدفع بالناس إلى البحث عن مظاهر الكون وتقصّى سنن الله فيه ، وليس من شأن الرسالات الإلهية سوى ذلك ، فلا تحمّلوها أكثر مما حمّلها الله[1] » .

وشريعة الإسلام القانونية كذلك قد أتت بالقواعد الكلية والأحكام الثابتة ، وتركت للناس التأويل والاستنباط ، والاجتهاد والقياس فى الفروع

(١) مجلة الأزهر — رمضان ١٣٧٨ هـ

المتغايرة ، والجزئيات المتجدّدة . . يقول ابن القيم فى (إعلام الموقعين) :

« قال ابن عقيل : السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحى . . قلت: هذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام، فرّط فيه طائفة: فعطّلوا الحدود وضيّعوا الحقوق وجرّأوا أهل الفجور على الفساد ، وجعلوا الشريعة قاصرة لاتقوم بمصالح العباد ، وسدّوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق التى يعرف بها المحقّ من المبطل، وعطّلوها مع علمهم وعلم الناس بها أنها أدلة حق ،ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع . والذى أوجب لهم ذلك نوع تقصير فى معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها . . . وأفرط فيه طائفة أخرى : فسوّغت منه ما يناقض حكم الله ورسوله . وكلا الطائفتين أتيت من قبل تقصيرها فى معرفة ما بعث الله به رسوله ، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض ، فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلّة العقل وأسفر صبحه بأى طريق كان فثمّ شرع الله ودينه ورضاه وأمره . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد ، وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى منه وأدلّ وأظهر ، بل بيّن ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط ، فأىّ طريق استُخرج بها الحق وعُرف العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها ، والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها ، وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد ، ولكن نبّه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها ... ولا نقول : إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة ، بل هى جزء من أجزائها وباب من أبوابها ،وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، وإلا فإذا كانت عدلا فهى من الشرع »!!

فالدين يعمل على إفساح مجالات للعقل الإنسانى من أول يوم ، مجالات كانت تظن البشرية فى طفولتها أن حلّها فى السماء لا فى الأرض . . . . وعرف الإنسان أن الحلّ بيده، فاضطرب قليلا كردّ فعل لفهمه السابق الساذج المعكوس، وردّ بصره عن السماء وتملكه الزهو . . ثم شرع يعود إلى توازنه من جديد !

والإسلام لم يقحم نفسه فى كل شيء ، ليحول بين الإنسان وبين أن يفكر أو يبتدع فى أى شيء ! ربما يكون المسلمون قد تخلّفوا فهيّأت لهم أوهامهم شيئاً من ذلك ، ولكن الحقيقة الصافية تسفر فى ينابيع الدين الأصيلة : من كتاب وسنّة ، والناس أعلم بأمور دنياهم فى دين الإسلام . . .

* * *

«إذا أردنا يوما أن نستحدث وجهة نظر دينية جديدة عن الحياة والعالم، تحتل من جديد أذهان الأحرار وتوقظ مشاعرهم ، فأول التغييرات إقامة أسس أخلاقية ايجابية ، لا أسس تدعو الى الخنوع والتسليم . أخلاق يتسامى بها الأمل، لا أخلاق يرتكس بها الخوف . ان الإنسان لم يخلق فى هذه الحياة ليكون كل عمله فيها أن ينسرق منها حثيثا لكى يتجنّب غضب الله ! إنّ الدنيا هى دنيانا نحن، ويتوقّف علينا نحن أن نجعلها فردوسا أو جحيما ، والقوة اللازمة لذلك هى قوتنا . والحياة الدينية التى يجب أن نجرى وراءها لن تكون شيئا من هذا الوقار العارض أو الحرمات الخرافية ! إنها لن تكون حياة حزن أو زهادة ! . . إنها يجب أن تستلهم الصورة التى يمكن أن تكون للحياة الإنسانية ، وأن تسعد ببهجة الإنشاء مستروحة أنفاسها فى عالم شاسع حر قائم على البناء والأمل . إن أساس هذه الحياة ينبغى أن يكون محبة البشر لا لمظهرهم ، ولكن لما يتوسّمه الفكر من الخير . إنها لن تدين بسرعة،

بل توجه الثناء للعمل الإيجابي أكثر مما توجهه للبراءة السلبية من الذنب . إنها ستُسبِّح ببهجة الحياة وبالودّ الأصيل وبالبصيرة البنّاءة .

لقد قاست حياة الروح فى الأزمنة الحديثة بالجمع بينها وبين الدين التقليدى ، وبعداوتها الواضحة لحياة العقل ، وبما أخذ يبدو من أنها تتركّز فى إنكار الذات . إن حياة الروح تتطلّب الاستعداد لإنكار الذات حينما تتاح الفرصة ، إلا أنها فى جوهرها يقينية بقدر ماهى قادرة على إغناء الوجود الفردى ، شأنها فى ذلك شأن العقل الغريزى . إنها تجلب معها بهجة الرؤيا ، وما فى هذا العالم من بهجة الغموض والعمق وبهجة التأمل فى الحياة . وفوق كل شىء بهجة الحب العالمى ... إنها تحرّر الذين يحصلون عليها من سجن العاطفة الشخصية الملّحة والاهتمامات الدنيوية ، إنها تمنح الحرية وسعة الأفق والمجال لأفكار الإنسان ومشاعره ، ولجميع علاقاتها بالآخرين . إنها تهيّء الحلول لشكوكنا ... إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة ، وتردّ الشارد إلى مكانه فى حياة الإنسانية . إن الذين ولجوا يوما فى عالم الفكر ليؤمنون بأن السعادة والسلام لا يمكن أن يعودا إلى هذه الدنيا إلا عن طريق الروح » ....

تلك كلمات بصيرة هادية ... للفيلسوف الرياضى العملاق برتراند رسل (١)، وهى تتجاوب تماما مع حقائق الإسلام . . . .

● فعلماء الدين عندنا ، كانوا مندمجين مع الجماهير ، متفاعلين معهم ، ينطقون بآمالهم وآلامهم ... هكذا رأينا ابن تيمية ، والعز بن عبد السلام ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، والكواكبى . . . .

« وفى يوم من أيام ربيع الأول عام ١٢٠٠هـ نهب حسين بك شفت وجنوده دارا لشخص ظلما وعدوانا ، فثارت ثائرة الأهالى واتفقوا على الالتجاء إلى

(١) نحو عالم أفضل — ترجمة عبد الكريم أحمد (الألف كتاب)

الإمام الدردير فقال : أنا معكم ، وغدا نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم . فأرسل ابراهيم بك نائبه للدردير معتذرا ، ووبخ شفت وطلب حصرا بما نهب لرده ... وفى ذى الحجة سنة ١٢٠٩هـ اشتكى فلاحو قرية من بلبيس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى من ظلم محمد بك الألفى ورجاله ، فبلغ الشيخ الشكوى إلى مراد وابراهيم فلم يفعلا شيئا ، فدعا إلى عقد اجتماع للعلماء بالأزهر ، فلبوا دعوته وأغلقوا أبواب الأزهر ، وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت استعدادا للمقاومة بالقوة ، وركب الشرقاوى ومعه العلماء وتبعتهم الجماهير ... وتحرج الموقف ، وفى اجتماع بين العلماء وابراهيم ومراد تقرر: ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب ، وأن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم ، وألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من الأمة إلا بالحق والشرع ، وكان القاضى الشرعى حاضرا فحرر حجة وقع عليها الأمراء » !![1].

● وشعائر العبادة فى الإسلام — وكما أوصت كتب الله المقدسة — كلها يقصد بها الجوهر لا المظهر.... « وفرائض الشعائر الأساسية محدودة معدودة ، وهى لا تخلو بعد ذلك من رخص تخففها عند قيام الأعذار . . . وما يزيد على ذلك من قربات ونوافل متروك لتباين الأفراد والعصور ، ويرتبط كل الارتباط بمدى (الفراغ) ، والواجب فى شغل الفراغ ، كما يرتبط بمستوى التكوين الأساسى للفرد . إنها دعوة للفلاح كما هى دعوة للصلاة ، أوصى بذلك الإنجيل كما أوصى القرآن »[2] . والعبرة بما تسكبه الشعائر فى أغوار النفس والضمير ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والصيام جُنّة ، والحج لا رفث فيه ولا فسوق .

---

(١) من مقال لفتحى رضوان

(٢) رسالة : (الدين للواقع) — للمؤلف

• والأخلاق فى الإسلام إيجابية ... « فما أظلم الصورة الشائعة بين الناس التى تحدّد الأخلاق الدينية بأنها أداء الصلوات واجتناب الخمر والميسر، والتى استفزّت كاتبا من العلماء حتى قال : إن الأخلاق الدينية لا تكفى ، أو لعلها لا تصلح مطلقا كى تكون أساسا لتقدير الأشخاص وتقويم الرجال ! ... إن القيام بالشعائر واجتناب الخمر والميسر من أحكام الإسلام ، لكن ليست وحدها هى الأخلاق الدينية ... هناك أخلاق للفكر : تأمر بالتعقل والعلم وتنفر من التقليد والتضليل ، ثم هناك أخلاق للنفس : تأمر بالصدق والأمانة والإحسان ، وهناك أخلاق للسلوك : وهى الآداب العامة وقواعد اللياقة »[1]. والقرآن جعل من وصف المؤمنين « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ». والمؤمن مأمور دائما بأن يكون إيجابيا فى علاقته بالكون وفى علاقته مع الناس : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . وأخلاق الإسلام الإيجابية هى أخلاق السماحة واليسر ، وليست انفعالات التعصب والتزمت : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » !

• والإسلام لا يسرق الإنسان من الدنيا ... إنه يعلن أن الله جلّ وعلا قد استخلف الإنسان على الأض وسخّر الكون للانسان : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » ، « خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » ، « وسخّر لكم ما فى الأرض جميعاً منه » ، « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم

---

(١) رسالة : (الدين للواقع)

الـكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الـكذب ، إن الذين يفترون على الله الـكذب لا يفلحون » . و الدنيا فى ديننا هى معبد الآخرة : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » . .

والإسلام لا يجعل الصورة المثالية للمؤمن هى العكوف على شعائر العبادة ، والانقطاع عن الدنيا ، واعتبار كتابه المنزل مورد العلم الوحيد !! إنه لا يصرف الإنسان عن الدنيا ، ولا يحجزه عن العلم ، وشعائره لا تستهلك الوقت ! إنه يجعل طلب العلم فريضة ، ويجعل السعى والعمل فريضة ، ويلفت النظر دائما إلى التدبر فى الـكون والنفس والتاريخ : « أفلم يسيروا فى الأرض فتـكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ، « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » !!

إن الدين يقدس العقل إذ هو نفحة من صنع الله ، والمؤمن يتعبد بإعمال عقله تحدثا بنعمة الله ، ويقدّر النتائج التى يتوصل إليها إخلاصا فى أداء الأمانة التى ائتمنه عليها الله ..

والإسلام لا يفتأ ينمى طاقة العقل ويبارك ثمارها ... وكيف لا يكون هذا موقفه وقد ائتمن العقل على أخطر قضية فى الوجود ـ قضية إدراك حقائق الدين الأساسية نفسها !!

فهل تستغنى عن هذا الهدى حضارة رشيدة ؟ ؟

من روائع « برجسون »

الانفعال الخلاق

« الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها »

هو فيلسوف الروح فى القرن العشرين . ..

وهو صاحب البدائع والروائع : (الطاقة الروحية) ، (التطور المبدع) ، (الزمان والحرية) .

لقد أبرز برجسون معالم (الانفعال) فى أغوار الإنسان ، وسجّل أرصاداً دقيقة فى جنبات الوجدان. . . وقدّم فى كتبه نتيجة دراساته ، لمحاول إيضاح حقيقة الانفعال ليتميز عن غيره من سائر الأحاسيس : فى طبيعته ، وفى نتيجته وفى وسيلته .

« وهنا نتذكر الطابع الانفعالى للنظرية البرجسونية ، فالفكرة الخالصة لا يمكن أن تنتهى وحدها إلى فعل ، والتصوّر لا يمكن أن يؤدى إلى غير تصوّر . إن تجريداتنا الفكرية وحدها لا تنبت الحركة مالم تكن ثاوية فيها من قبل !

ويمكن أن نشبه اعتراض برجسون على المذهب العقلى بالاعتراض الذى وجهه شبلنج إلى هيجل : إذا بدأنا بالتصوّر ، فمهما نوسّعه ونضخّمه ونمدّده — فلن نحصل أبدا إلا على تصوّر ! !

• فالعقل — كما بين برجسون فى (التطوّر المبدع) — شرطى ، ومن شأنه أن يقيم العلاقات بين الأشياء . . .

• أما الاختيار الفعال لممكن من الممكنات العديدة فهذا ما لا يمكن تفسيره بالعقل ، ولن يفسّره إلا الانفعال !

فبدون الانفعال لا تكون غاية ، ولا يكون (سبب كاف) ، بل تكون كل الممكنات سواسية !

إن الانفعال هو الذى يبث فى أفكارنا الشوق إلى الوجود . .!! » .

هكذا قدم الأستاذان الدروبى وعبد الدايم ترجمتهما لتحفة برجسون الذهنية الرائعة (منبعا الأخلاق والدين) ، وهو كتاب نقدم منه لمحات تبرز أهميته بالنسبة لدعاة الفكرة الدينية فى هذا العصر .

* * *

يقدم برجسون لدراسته بتبصير الإنسان بنزعاته الاجتماعية ...

« المجتمع — إنسانياً كان أم حيوانياً — إنما هو نظام ، لأنه ينطوى على اتساق وترتيب ، ويقتضى بوجه العموم خضوع العناصر بعضها لبعض . إنه جملة من القواعد والقوانين : إما أن يحياها المجتمع من غير أن يشعر بها — وهذا هو شأن المجتمع الحيوانى ، وإما أن يحياها ويتمثّلها — وهذا هو شأن المجتمع الإنسانى . . .

وإن مجموع الواجب كان يمكن أن يكون غريزيا ، لو أن المجتمعات الإنسانية لم تكن مزوّدة بعقل واستعداد للتبدل .. هو غريزة كامنة كتلك التى تكمن فى عادة الكلام » .

ومثل هذه النزعات الاجتماعية الضرورية ، ليست هى الأخلاق فى أفقها

السامق الشامخ الرفيع !! إنها امتداد للأنانية الشخصية ، وإن بدت فى قالب غير شخصى :

« لأن الفعالية العقلية التى قد تخيّرنا فى الواقع بين المصلحة الشخصية والمصلحة الغيرية يربض تحتها جوهر أصيل ، هو الفعالية الغريزية التى أقامتها فينا الطبيعة منذ البداية ، ويكاد فيها أن يختلط ما هو فردى بما هو اجتماعى ! !

إن الخلية تعيش لذاتها وتعيش للكائن الحى كله تمدّه بالحياة ، وتستمد منه الحياة ، وإذا اقتضى الأمر ضحّت بنفسها فى سبيل المجموع ، ولعلها تقول لنفسها حينذاك — لو كانت تعى — إنها تفعل ذلك من أجل ذاتها !!

إن الإلزام يتضمّن فى الأصل حالة يكون فيها ما هو فردى وما هو اجتماعى مختلطين لا يتميّز أحدهما عن الآخر ، والنفس لكونها فى هذه الحال فردية واجتماعية معاً تدور فى دائرة . . . فهى مغلقة !! » ، « لأن التضامن الاجتماعى لايكون إلا فى أن تنضاف فى كل منا (أنا اجتماعية) إلى (الأنا الفردية) ... »

* * *

فلنستمتع إذن مع برجسون بجولة فى آفاق الأخلاق الحقيقية العليا . . .
إنّ هذه الأخلاق تصدر عن انفعال مغاير متميز :

« إنّ الانفعال الجديد هو الذى تصدر عنه عظائم مبدعات الفن والعلم والحضارة ، لا باعتباره حافزاً يهيب بالعقل أن يعمل ، ويهيب بالإرادة أن تدأب — فحسب ، فالأمر أبعد من هذا . فهناك انفعالات خلاّقة للفكر ، والابتكار — وإن كان عقلياً — فإن الانفعال هو جوهره الثاوى فى أعماقه !

يجب أن نتفاهم على مدلول هذه الكلمات : انفعال ، عاطفة ، حساسية . . .

الانفعال هزّة عاطفية فى النفس ، ولـكن شتان بين رجّة تقوم على السطح وبين زلزال يعصف فى الأعماق ! الأثر فى الحال الأولى يتبدّد أما فى الثانية فيمكث لايتجزّأ ، هو فى الأولى اهتزاز الأجزاء من غير انتقال أما فى الثانيه فالـكلّ مندفع إلى أمام . .. ! !

هنالك نوعان من الانفعال . . . ضربان من العاطفة . . . شكلان من الحساسية . . . لا يشترك الواحد منهما مع الآخر إلا فى أنه حالة انفعالية مختلفة عن الإحساس ، لا تُرَدُّ مثله إلى الانعكاس النفسى لمنبِّه مادى :

● الأول : العاطفة التى تلى فـكرة أو صورة متمثّلة . . . فتـكون الحالة الانفعالية ناتجة عن حالة عقلية ، لاتدين لها بشىء بل تـكتفى بذاتها ، وإذا تأثّرت بها على صورة غير مباشرة خسرت أكثر مما تربح . . . فهذا هو ارتجاج الحساسية ، بتأثير تصوّر يقع على صفحتها .

● أما العاطفة الأخرى : فليست ناجمة عن تصوّر فتعقبه وتبقى متميّزة عنه ، بل هى سبب للحالات العقلية التى ستعقبها — لا نتيجة لها ! ! فهى حبلى بالامتثالات ، وهذه الامتثالات وإن لم تـكن تامة التـكوين إلا أن العاطفة ستنشلها من بذرتها بتطور عضوى .

الانفعال الأول : (تحت — عقلى) ، وهو مايعنى به علم النفس بصورة عامة ، وهو ما إليه يقصد حين يوازن بين الحساسية والعقل ، أو حين يعتبر الانفعال انعكاسا غامضا للتصوّر . أما الانفعال الثانى : فنحن نقول عنه إنه (فوق عقلى) . ولا يفهمنّ من هذا القول العلوّ بالقيمة فحسب ، بل السبق فى الزمن أيضا ، والنسبة بين ما هو مولِّد وما هو مولَّد !

إن الانفعال الذى يمكن أن يكون مبدعا لأفكار إنما هو هذا النوع الثانى . . . إن علم النفس لما يزل فريسة لخداع اللغة ، فإنه يسمى باسم واحد أنماطا شتى من الانتباه تختلف باختلاف الحالات ، يفترض أنها من نوع واحد ولا يرى فيها إلا اختلافا فى الشدة والمقدار ! ! . . أما نحن فلن نتكلم فى الاهتمام بوجه عام ، بل نقول إنّ الأمر الذى يثير الاهتمام : امتثال مبطّن بانفعال ! والانفعال — وهوهذا المزيج من حب الاطلاع والرغبة والفرح الذى يسبق حلّ مسألة معينة — إنما هو فريد كالامتثال ، وهو الذى يدفع بالعقل إلى أمام ، ويحطم الحواجز والصعوبات . وهو الذى ينعش العناصر العقلية التى يتّحد بها ، بل يحييها ويروح يلتقط كل ما يمكن أن ينتظم معها ، حتى تتفتّح معطيات المسألة . والأثر العبقرى فى الأدب والفن إنما هو نتاج انفعال فريد فى نوعه !

كل من توفّر على التأليف الأدبى قد عرف ما هنالك من فرق بين العقل الصرف ، وبين العقل الذى يحرقه انفعال أصيل فريد ناشىء عن اتحاد المؤلف بموضوعه — أى ناشىء عن حدس ...

الذهن فى الحالة الأولى يعمل فى برود : فيؤلف بين أفكار قد اندرجت منذ القديم فى ألفاظ وأسلمها إليه المجتمع جامدة متصلبة .

أما فى الحالة الثانية : فكأن المواد التى يقدمها العقل تنصهر فى بوتقة الانفعال ، ثم تخرج منها وقد صُبّت أفكاراً جديدة يعلنها الفكر ! وإذا وجدت هذه الأفكار ما يعبّر عنها من الألفاظ الموجودة كان هذا حظاً غير مأمول ، ولا بدّ فى الواقع من أن نساعد الحظ ونقسر معنى اللفظة حتى تتكيّف على حسب الفكرة ، والجهد هنا شاق مؤلم والنتيجة تابعة للصدفة فليست مضمونة !

ولكن هنا فقط يشعر الفكر أو يوقن أنه مبدع ، فهو لا يتناول

عناصر موجودة متعددة ثم يؤلف بينها ، فينتهى بها إلى وحدة قد رتبت فيها العناصر ترتيبا جديدا ، إنه ينتقل دفعة واحدة إلى شيء واحد فريد ، يحاول أن يعرض نفسه فى تصورات متعددة عامة مصبوبة سلفا فى ألفاظ » ! !

* * *

على أساس هذا التوضيح لسمات الانفعال الأصيل ، وهذا التمييز بينه وبين غيره ، يقيم برجسون تفرقة بين **نوعين من الأخلاق** :

« وعلى هذا فإن الأخلاق قسمان متميزان :

- الأول : علة وجوده البنية الأصلية للمجتمع الإنسانى
- والثانى علته المبدأ الذى أوجد هذه البنية

والإلزام فى الأول : هو ضغط عناصر المجتمع بعضها على بعض بغية الإمساك بصورة المجموع ، ونتيجة هذا الضغط مرسومة فى كل منا بجملة من العادات نأخذ بها أنفسنا . وهذه الآلية هى فى عناصرها عادات ، ولكنها فى مجموعها شبيهة بالغريزة وقد هيأتها لنا الطبيعة .

وفى الثانى : ثمة شيء سموه إن شئتم إلزاما ، ولكن هذا الإلزام هو قوة تطلع أو وثبة ، بل هو قوة هذه الوثبة نفسها التى أوجدت النوع الإنسانى وأوجدت الحياة الاجتماعية ، وأوجدت مجموعة من العادات تشبه الغريزة بعض الشبه ، ولكن الحافز يتدخل تدخلا مباشرا ، فلا يتخذ وسيطا تلك الآليات التى عبأ لولبها ووقف عندها مؤقتا » !

* * *

وقد نتساءل الآن عن مكان الايمان فى تصنيف برجسون لمعالم المشاعر المتباينة . . . . إنه يجيب :

« قالوا : إن الدين حين ينزل على الناس بأخلاق جديدة فإنما يفرضها بالفلسفة الميتافيزيقية ، التى يجعل الناس يسلمون بها وبما يأتى به من آراء فى الله وفى الكون وفى صلة أحدهما بالآخر . . . .

وأجاب بعضهم : لا بل إن الأمر على عكس هذا ، فالدين إنما يستميل نفوس الناس ويهيئها لنظرة جديدة فى الوجود بأفضلية الأخلاق التى ينزل بها . . .

وفى اعتقادنا أن كلا الرأيين خطأ !

فكيف يمكن للعقل أن يدرك أفضلية الأخلاق التى تعرض له ، وهو لا يقدر تفاوت القيم إلا بالموازنة بينها وبين قاعدة أو مثل أعلى ـ هما بالضرورة ما تقدمه الأخلاق الموجودة ! ! ؟ ؟

وأما النظرة الوجودية التى يأتى بها الدين ، فليست إلا فلسفة جديدة تضاف إلى مانعرف من فلسفات ، وهب العقل سلم بها فلن نرى فيها إلا تفسيراً نظريا يفضل على غيره من سائر التفاسير ! بل هبها لفرط انسجامها مع ذاتها تأمر ببعض القواعد الجديدة فى العمل ، فإن بين القبول العقلى والانقلاب الإرادى لشقة بعيدة ! !

* لا الفلسفة : من حيث هى امتثال عقلى محض تجعلنا نأخذ بالأخلاق أو نعمل بها ...

* ولا الأخلاق : من حيث هى مجموعة من القواعد يدركها العقل تجعلنا نفضل العقيدة تفضيلا عقليا . . .

فقبل الأخلاق الجديدة ، وقبل الميتافيزيقا ، هنالك الانفعال ! ! يتجلى من جانب الإرادة فى وثبة ، ويتجلى من جانب العقل فى تصوّر مفسّر ! ! !

انظر إلى هذه العاطفة التى بشرت بها المسيحية وأسمتها بالمحبة : انها اذا استولت على النفوس تبعها سلوك معين ، وانتشرت فى إثرها عقيدة معينة ! فلا هذه الفلسفة هى التى فرضت تلك الأخلاق ، ولا تلك الأخلاق هى التى جعلتنا نفضل هذه الفلسفة ... وإنما كلتا الفلسفة والأخلاق يعبر عن شىء واحد :

* الأولى تعبر عنه بلغة العقل ...

* والثانية : تعبر عنه بلغة الإرادة ...

ونحن نسلّم بكلا التعبيرين متى أحسسنا بالمُعَبَّر عنه » !

* * *

إلى هنا أوضح برجسون فلسفته فى تكييف الانفعالات وتصنيفها ، وطبّق أصولها على مشاعر الأخلاق والدين . . .

وهذا العرض ، محاولة لإبراز تفكير برجسون — التى تبهر روعته أشد مخالفيه جحوداً ! !

ويظفر القارىء بالمتعة الكبرى حين يصاحب برجسون مباشرة وحين يتابع كلامه فى أى موضوع — ولو كان (الضحك) ؛ فتذهله دقة العالم فى الملاحظة والمشاهدة والاستقراء ، وعمق الفيلسوف فى الاستبصار والاستنباط والحدس ...

ولبرجسون نظرات موفقة فى الآثار الاجتماعية للانفعال الأصيل الخلاق ، وفى الأدوات والوسائل التى تهيىء لهذا الانفعال مجال الانطلاق من مكامنه . . .

أخلاق السكون وأخلاق الحركة

يرى برجسون إذن أن الإلزام فى الانفعال الخلاق هو : « ... قوة تطلّع أو وثبة ، بل هو قوة هذه الوثبة نفسها التى أوجدت النوع الإنسانى وأوجدت الحياة الاجتماعية ، وأوجدت مجموعة من العادات تشبه الغريزة بعض الشبه ،ولـكن الحافز هنا يتدخل تدخلا مباشراً ، فلا يتخذ وسيطاً تلك الآليات التى عبأ لولبها ووقف عندها مؤقتاً » . . .

فما هى النتائج التى تتمخّض عن الانفعال فى واقع المجتمع الإنسانى ؟ ؟

وما هى مزيّة الانفعال الأصيل الخلاق عن غيره ؟ ؟

« إن الغريزة الاجتماعية التى وجدناها فى أعماق الواجب الاجتماعى — والغريزة ثابتة بعض الشىء — إنما تستهدف أبداً مجتمعاً مغلقاً ، مهما يـكن المجتمع واسعاً . . . لأن الأمة مهما اتسعت فإن بينها وبين الإنسانية ما بين المحدود واللامحدود ، ما بين المغلق والمفتوح !

ويحلو للناس أن يقولوا : إن الفضائل المدنية إنما نتلقّنها فى الأسرة ، فإذا أحببنا الوطن كنا نتهيّأ لمحبة النوع الإنسانى ! فالعاطفة — فى رأيهم — هى هى نفسها ، وإنما تتسع فى تقدم مستمر وتـكبر حتى تشمل الإنسانية جمعاء ! !

على أن هذه المناقشة مناقشة قبلية ، وهى نتيجة لفهم النفس فهماً عقلياً محضاً . فتراهم إذ يلاحظون أن هذه الجماعات الثلاثة : الأسرة والأمة والإنسانية التى ننتسب إليها تضم عدداً متزايداً من الأفراد — يستنتجون من

ذلك أن هذا الاتساع المتتالى فى موضوع الحب يقابله اتساع تدريجى فى الحب نفسه !!

ومما يقوّى هذا الوهم ، أن اتفق أن كان القسم الأول من هذه الحقيقة مطابقاً للوقائع :

• فالفضائل العائلية مرتبطة بالفضائل المدنية ، وذلك لأن الأسرة والمجتمع — المختلطين فى الأصل — ظلاّ متصلين أحدهما بالآخر اتصالا وثيقا . . .

• أما المجتمع الذى نعيش فيه ، فإن بينه وبين الإنسانية عامة ما بين المغلق والمفتوح من تضاد ، والفرق بين هذين الشيئين فرق فى النوع لا فى الدرجة فحسب!!

قارنوا بين عاطفة التعلق بالوطن وعاطفة محبة الإنسانية . . .

من ذا الذى لا يرى أن الالتئام الاجتماعى يعود فى جلّه إلى ضرورة دفاع المجتمع عن نفسه ، وأننا إن أحببنا الأفراد الذين نعيش معهم فعلى حساب كافة الأفراد الآخرين ؟ ؟

هذه هى الغريزة البدائية الأولى . . . وهى لا تزال موجودة إلى الآن ، وإنما اختبأت — لحسن الحظ — تحت مخلّفات الحضارة !

غير أننا مازلنا نحب آباءنا والمواطنين محبة طبيعية مباشرة ، على حين أن محبتنا للإنسانية مكتسبة غير مباشرة !! فترانا نقبل على هذه فى بعض التواء ، فعن طريق الله يأمر الدين بمحبة الإنسان للنوع الإنسانى ، وعن طريق العقل — الذى نشترك فيه جميعا — يثبت الفلاسفة كرامة الإنسان ويبرهنون على حق الجميع فى الاحترام !!

ونحن فى الحالين .... لا نصل إلى الإنسانية فى مراحل مارين بالأسرة فالأمة ،

بل نتخطّاها فى قفزة ، ونفوقها من غير أن نـكون قد اتخذناها غاية » ! ! !

* * *

إن برجسون يشرح المشاعر ويحللها .... بدقة العالم ، وعمق الفيلسوف .

وهو بهذا المسلك يغوص فى أعماق النفس الإنسانية ، فيطلعك على مكامنها ، ولا يدعك حتى تشعر كأنك — وإن كنت فى عالم الخوافى والمكنونات — تتحسّس الحقائق وتقبض عليها بين يديك !

لقد كشف الفارق بين المجتمع المغلق فى الأسرة أو الأمة وبين المجتمع الإنسانى المفتوح ، وميّز بين الإحساس الأسرى أو القومى الذى هو فطرى طبيعى لا مكابدة ولا مجاهدة فى اصطناع النفس عليه ، وبين الإحساس الإنسانى الذى يحتاج إلى تعبئة جبّارة لقوى الإرادة والعقل ... والروح قبل ذلك جميعا !!

وعلى أساس هذه التفرقة وهذا التمييز ، يقدم برجسون تفرقة أخرى فى عالم الأخلاق :

« فإذا نحن بدّدنا الظواهر حتى لمسنا الوقائع ، وأهملنا الثوب المشترك الذى لبسته فى فكر المفاهيم وعالم اللغة الأخلاق بنوعيها — اللذين ذكرناهما — بسبب ما تبادلا من تأثير ، وجدنا على طرفى هذه الأخلاق : **الضغط والتطلع** :

• فأخلاق الضغط : أخلاق تتضمّن فكرة مجتمع لا يبغى إلا البقاء ، فحركته الدائرية التى يسوق فيها الأفراد تجرى فى مكانها لا تحيد عنه ، فتحاكى ثبات الغريزة بوساطة العادة !!.. ولعلّ الشعور الذى يصاحب تحقيق هذه الواجبات الصرف حين تُحقّق هو الشعور بنعمى العيش ودعة المجتمع ، وهو كالشعور الذى يصاحب سير الكائن الحى سيراً طبيعياً سليما ، وهو أشبه باللذة لا بالفرح !!!

• أما أخلاق التطلّع : فتتضمّن شعوراً بالتقدّم والانفعال ، والذى يبعث

عليها هو الحماسة للمضىّ قدماً . . . بل إن التقدم والمضى قدماً يتحد ان أحدها بالآخر ! !

وبرجسون يبقى على التمييز بين المجتمع المفتوح المتحرك والمجتمع المغلق الساكن حتى فى عصرنا الأخير : « فمهما تحضرت الإنسانية، ومهما تبدّل المجتمع، فإن الاتجاهات الأساسية للحياة الاجتماعية قد بقيت على ما كانت عليه فى البدء . فنرى أن بنية الإنسان الأخلاقية : البنية البيئية الأساسية — إنما خلقت لمجتمعات بسيطة مغلقة . وهذه الميول العضوية لا تبدو لشعورنا فى وضوح ، على أنها من أقوى العناصر التى يتألف منها الإلزام الأخلاقى » !

والضغط والتطلع يتلاقيان ... ولكن يتمايزان : « إن التطلّع يميل إلى التصلّب فيأخذ شكل الإلزام المحدود ، والإلزام المحدود يكبر ويتسع فيشمل التطلع — فكأنهما إذن على ميعاد !! يلتقيان فى منطقة الفكر حيث تصنع التصورات ، ثم يسفر هذا اللقاء عن امتثالات يجمع الكثير منها بين ما هو علة ضغط وما هو موضوع تطلّع ، حتى لقد يغيب عن نظرنا الضغط المحض والتطلّع المحض اللذان يؤثران فى إرادتنا ، فما نرى غير التصوّر وقد انصهر فيه الموضوعان المتميزان اللذان كان يتعلق أحدهما بالضغط وثانيهما بالتطلع ، فنحسب أن هذا التصور هو الذى يؤثر فينا ! وبهذا الخطأ نستطيع أن نعلّل إخفاق النظريات الأخلاقية العقلية ، أى بوجه العموم إخفاق معظم النظريات الفلسفية فى الواجب . وليس معنى هذا طبعاً أن ليس للفكرة المحضة من تأثير فى إرادتنا ، ولكن هذا التأثير لا يكون ناجعاً إلا إذا اتفق له أن يكون وحده فى الميدان ، وإلا فمن الصعب عليه أن يقاوم التأثيرات المعاكسة ، وإذا ظفر عليها كان تأثير ذلك أن الضغط والتطلع اللذين تنازل كل منهما عن تأثيره الخاص فتمثّلا معاً

فى فكرة ، يعودان الآن فيظهران فى فرديتهما واستقلالهما ويبذلان كل ما لهما من قوة » .

* * *

ويعزز وجهة النظر التى أدلى بها برجسون، أن كثيراً من مجتمعات الغرب المعاصرة على حظها من المدنية والتقدم ، لم تصل بعد إلى مستوى الأخلاق الإنسانية فى انفعالها الخلاق ، الذى تزول معه الحواجز وتتفتح المجتمعات !

فالنزعات العنصرية قائمة فى الولايات المتحدة ضد الزنوج . وهى نفسها قائمة — إلى حد كبير — فى بريطانيا ، ولكن فى الأغوار النفسية البعيدة وعليها طلاء من مظاهر التسوية القانونية والمجاملات الشكلية . وقد أقامت ألمانيا مجدها على أهوال حرب ضروس أشعلتها من أجل خرافة سيادة الجنس الآرى . وأما فرنسا — بلد الإخاء والمساواة — فقد شنت حرب الإبادة فى الجزائر على ملايين العرب أصحاب البلاد ، من أجل تثبيت أقدام الفرنسيين النازحين للاستغلال !!

وما أروع برجسون وهو يعلل الانتكاس الذى يصيب مجرى التقدم الإنسانى بقوله : « ولو أن النفس الإنسانية وثبت من الأول ولم تبلغ الآخر ، لوقفت عند هذا الحد الوسط ولسادتها أخلاق النفس المغلقة ، فلم تبلغ أو تبدع أخلاق النفس المتفتحة ، ولكانت حالتها — وهى حالة النهوض — فى مستوى العقلية (أى ما دون الانفعال الخلاق) !!

إن هناك طريقاً واحداً للانتقال من العمل المحصور فى دائر ، إلى العمل

المطوّف فى الفضاء الفسيح ، من التردد إلى الإبداع ، مما هو دون العقل إلى ما هو فوق العقل ! ! ومن يقف بين الطرفين فهو بالضرورة فى منطقة التأمل والنظر ، لأنه لم يقف عند الأول ولا هو بلغ الثانى ، فطبيعى أن يكون آخذاً بهذه الفضيلة النصف وهى الانعزال » ! !

* * *

ما أروع برجسون ...

فلنمض معه فى البحث عن السبيل إلى تربية أخلاق الحركة وتكوين المجتمع المفتوح

القدوة الحية لأخلاق الحركة

● أوضح برجسون سمات الانفعال الأصيل الذى يفترق عن العقل الصرف: إذ « الذهن فى الحالة الأولى: يعمل فى برود، فيؤلف بين أفكار قد اندرجت منذ القديم فى ألفاظ وأسلمها إليه المجتمع جامدة متصلبة. أما فى الحالة الثانية: فكأن المواد التى يقدمها العقل تنصهر فى بوتقة الانفعال، ثم تخرج منها وقد صبت أفكاراً جديدة يعلنها الفكر ... »

● وعلى أساس هذه النظرة أقام برجسون تفرقته بين أخلاق السكون وأخلاق الحركة: « فإن بين القبول العقلى والانقلاب الإرادى لشقة بعيدة .. ». وقد تكلم عن الأخلاق التى يأتى بها الدين فقال: « قبل الأخلاق الجديدة، وقبل الميتافيزيقا — هنالك الانفعال: يتجلى من جانب الإرادة فى وثبة، ويتجلى من جانب العقل فى تصور مفسر! انظر إلى هذه العاطفة التى بشرت بها المسيحية وأسمتها بالمحبة: إنها إذا استولت على النفوس تبعها سلوك معين وانتشرت فى إثرها عقيدة معينة، فلا هذه الفلسفة هى التى فرضت تلك الأخلاق، ولا تلك الأخلاق هى التى جعلتنا نفضل هذه الفلسفة! وإنما كلتا الفلسفة والأخلاق تعبران عن شىء واحد: الأولى تعبر عنه بلغة العقل، والثانية تعبر عنه بلغة الإرادة. ونحن نسلم بكلا التعبيرين متى أحسسنا بالمعبر عنه »!

● كذلك فرق برجسون بين المجتمع المغلق والمجتمع المفتوح: « إن الغريزة الاجتماعية التى وجدناها فى أعماق الواجب الاجتماعى إنما تستهدف أبداً مجتمعا مغلقا، مهما يكن هذا المجتمع واسعاً ... لأن الأمة مهما اتسعت فإن بينها

وبين الإنسانية ما بين المحدود واللامحدود، ما بين المغلق والمفتوح . والفرق بين هذين الشيئين فرق فى النوع لا فى الدرجة فحسب » ! وفى المجتمع المغلق تسود أخلاق الضغط ، بينما تسود فى المجتمع المتحرك أخلاق التطلع : « فالنوع الأول : أخلاق تتضمّن فكرة مجتمع لا يبغى إلا البقاء ، فحركته الدائرية التى يسوق فيها الأفراد تجرى فى مكانها لاتحيد عنه ، فتحاكى ثبات الغريزة بوساطة العادة . ولعل الشعور الذى يصاحب تحقيق هذه الواجبات الصرف حين تُحقّق هو الشعور بنعمى العيش ودعة المجتمع ، وهو كالشعور الذى يصاحب سير الكائن الحى سيراً طبيعياً سليما ، وهو أشبه باللذة لا بالفرح ! أما أخلاق التطلع : فتتضمّن شعوراً بالتقدم ، والانفعال الذى يبعث عليها هو الحماسة للمضىّ قدماً . . . بل إن التقدّم والمضىّ قدما يتحدان هنا أحدهما بالآخر » ....

ماهى السبيل إلى الانفعال الأصيل الخلاق ، الذى يبعث أخلاق الحركة ويخلق المجتمع المفتوح ؟ ؟

هنا يتحدث برجسون عن (الوسط الحى) ، الذى لا بدّ أن ينتقل خلاله إشعاع هذا النوع الإنسانى من الأخلاق ، خلافا للنوع الآخر الاجتماعى الذى تكفى فيه النظريات ....

• فبينما نرى الأخلاق (الاجتماعية) : تزداد صفاء ونقاء على قدر مانستطيع ردّها إلى قوانين لا شخصية

• نجد أن الأخلاق (الإنسانية) : لا تكون هى هى ذاتها ما لم تتجسّد فى شخصية ممتازة تتخذ قدوة تحتذى.

فعمومية الأولى : تأتى من قبول الناس عامة قانونا من القوانين

بينما عمومية الثانية : تأتى من محاكاة الناس لمثال يحتذونه . . .

والحق أن هذه الشخصية ترتسم فينا منذ نصطفى المثال ، فالرغبة فى المماثلة — وهى التى تولد نظريا الشكل الذى ينبغى اتخاذه — تصبح هى المماثلة نفسها ... إن الأخلاق الأولى كلما كانت ترد بوضوح إلى واجبات غير شخصية كانت أقوى وأشد ، وأما هذه فهى على عكس ذلك : فبعد أن تكون مبعثرة فى قواعد عامة يقابلها العقل من غير أن تصل إلى أن تهز الإرادة ، إذا بها تصبح جارفة قوية بنسبة ما تنصهر مواعظها المتعددة العامة فى وحدة إنسان فرد !

فالأخلاق الأولى هى التى نفكر فيها عادة حين نشعر أننا ملزمون إلزاما طبيعيا ، وفوق هذه الواجبات الواضحة تمام الوضوح نحب أن نتصور واجبات أخرى غامضة تتنضد فوق الأولى — كالإخلاص وبذل النفس وروح التضحية والمحبة . . على أنه يكفى أن تكون هذه الكلمات موجودة ، فسوف تستعيد معناها وتمتلىء بفكرتها الفعالة حين تتاح الفرصة ، وقد لا تتاح لكثيرين وقد يرجأ العمل بها إلى حين ! فبعض الناس لا تهتز إرادتهم إلا خفيفاً ، وتكون الهزة من الخفة بحيث يمكن أن يقال عنها إنها هى الواجب الاجتماعى نفسه وإنما تمدد واتسع وضعف . أما إذا امتلأت الصيغة بالمادة ، ثم اضطربت المادة بالحياة، فإن حياة جديدة تؤذن نفسها ، فنفهم ونحس أن ثمة أخلاقاً أخرى تنبثق !

وقد يحق لنا أن نتحدث هنا عن حب الإنسانية . . . والذين يشتغلون فى تربية الشبيبة يعرفون حق المعرفة أن الظفر على الأنانية لا يكون بالنصح بالغيرية ، حتى لقد يتفق أن ترى نفساً كريمة تتحرق للتفانى فى همة صادقة فإذا عرفت أنها تعمل فى سبيل (النوع الانسانى) أصابها فتور وركود ، لأن الموضوع واسع والثمرة مشتتة » !

ومن ميزات أخلاق الحركة أصالتها الباقية وحيويتها الكامنة ، وترابطها وتفاعلها معاً : « وقد يخلف الانفعال ثفالة — هى الأوامر التى استقرت فيما يمكن أن نسميه بالوجدان الاجتماعى إبان تكوّن المفهوم الجديد للحياة — أو قل الموقف الجديد منها الكامن فى هذا الانفعال .

فنحن إذن أمام رماد انفعال قد انطفأ ، فلن تستطيع الأوامر التى تبقت أن تهز إرادتنا ما لم تأخذ — بالعدوى — من الأوامر الأخرى التى تعبّر عن المطالب الأساسية للحياة الاجتماعية شيئاً مما تتصف به من إلزام . وهكذا تغدو الأخلاق الأولى والثانية كأنها أخلاق واحدة ، أخذت الثانية من الأولى صرامة وأكسبتها فى مقابل ذلك معنى إنسانياً ، لا اجتماعيا ضيقاً . حتى إذا هززنا الرماد قليلا ، وجدنا أن ثمة أجزاء ما تزال حارة ، ثم ما تلبث الشرارة أن تنبجس ، فيمكن للنار أن تشتعل ثانية ولكن بالتدريج !! أعنى أن قواعد هذه الأخلاق الثانية لا تفعل فينا منعزلة بعضها عن بعض — شأن مواعظ الأخلاق الأولى ، فما تكاد إحدى هذه المواعظ تتخلص من التجريد وتمتلىء بالمعنى وتكتسب قوة الفعل حتى تلحقها سائر المواعظ ، فإذا بها تلتقى جميعاً فى هذا الانفعال الحار الذى خلفها من قبل وراءه . . . » !

أما المحرّك الذى يثير نار الانفعال خلال الرماد حتى يستعيد الحياة والتوهج ، فهو الأنبياء والمصلحون . . . هم القدوة الحية ، وهم الذين يشيعون الحيوية فى المحيط الذى يعيشون فيه . وهم التجربة الشخصية الواقعية للانفعال الخلاّق وأخلاق الحركة ، وعن طريقهم تنبعث الحياة فى المجتمع فيتحرّر ويتفتّح وينطلق :

« إن الضغط كلما كان غير شخصى وكان أدنى إلى القوى الطبيعية

التى تسمى عادة أو غريزة كان أتمّ ، وأما التطلّع فيزداد سلطانا كلما كان الذى يوحى به إلينا أشخاصاً وكلما كان أكثر ظفراً على الطبيعة . . . يجب أن نمر بالبطولة حتى نصل إلى الحب ، والبطولة لا يوعظ بها وعظا ، وليس عليها إلا أن تظهر على المسرح حتى تهزّ الناس وتبعث فيهم الحركة ! ذلك أنها فى نفسها عودة إلى الحركة ، ولأنها تنبع من انفعال يمتّ إلى الفعل المبدع بقربى . وهذه الحقيقة هى ما يلمّح إليه الدين بقوله : إننا نحب الناس فى الله ! ! إنّ للإرادة عبقريتها كما للفكر ، والعبقرية تتحدّى كل تنبّؤ ، فعن طريق هذه فى الإرادات العبقرية استطاعت وثبة الحياة التى تجرى فى المادة أن تحصل من المادة على وعود تتعلّق بمستقبل النوع ما كانت تخطر على بال حين كان النوع يتكوّن ! !

وهكذا فإننا بالانتقال من التعاون الاجتماعى إلى الأخوة الإنسانية ، نقطع صلتنا بنوع من الطبيعة لا بكل الطبيعة ، فنستطيع إذن أن نقتبس عبارة سبينوزا بعد أن نحوّر معناها فنقول : إننا ننفصل عن الطبيعة المطبوعة ، لنرتدّ ثانية إلى الطبيعة الطابعة . . . » ! !

ويتابع برجسون بيانه المشرق ، فيبرز دور التأثر الشخصى ويجلّى أهميته وخطره : « إن كل ما يستطيعه العقل هو أن يورد حججا ، وهذه الحجج من المباح دوما أن نردّ عليها بأخرى ! ! فيجب ألا نكتفى بالقول إنّ العقل الموجود فى كل منا يفرض علينا احترامه وينال خضوعنا لقيمه السامية ، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أن هناك وراء العقل الرجال الذين أسبغوا على الإنسانية حلّة الألوهية ، فطبعوا العقل — وهو الصفه الأساسية فى الإنسان — بطابع إلهى ، وهؤلاء هم الذين يجذبوننا إلى المجتمع المثالى ، فى نفس الوقت الذى نخضع فيه لضغط المجتمع الواقعى » .

ويسوق برجسون مثالا على تأثير القدوة الحية من المسيحية التى يحبّها ويفتتن

بشخصية صاحبها : « لقد انقضى ثمانية عشر قرناً قبل أن تعلن حقوق الإنسان في أمريكا أولا على يد المتطهرين ، ثم في فرنسا على يد رجال الثورة ، ولكن هذا لا يبطل أنها بتعاليم الإنجيل بدأت ثم استمرت بعد ذلك لا يحدها شيء ! وشتان بين مثل أعلى يقدمه للناس حكماء وإن كانوا جديرين حقاً بالإعجاب ، وبين مثل أعلى يقذف إلى العالم رسالة مترعة حباً تبشر بالحب » !!!

ترى ما هو السر الدفين وراء هذا التأثير الرائع العميق : « الحق أن الأمر هنا ليس أمر حكمة محدودة يمكن أن تصاغ جميعها في قواعد ، بل هنا اتجاه ومنهج . . . إن ذكرى النفوس الصوفية وما فعلته ثاوية في ذاكرة الإنسانية لا تبارحها ، وفي وسع كل منا أن يحييها في نفسه ، ولا سيما إذا قارب بينها وبين صورة شخص ساهم في هذه الصوفية وأشاعها من حوله ، وبقيت صورته حية في النفس . . وكما أنه وجد عباقرة وسعوا حدود العقل ، فأتيح لأفراد من حين إلى حين أكثر مما كان من الممكن أن يوهب للنوع دفعة واحدة ، كذلك قد انبثقت نفوس ممتازة شعرت أنها تمت بقربى إلى سائر النفوس ، فلم تقف عند الحدود الجماعة ، ولا اكتفت بالتضامن الذى أقامته الطبيعة ، بل ارتفعت — في وثبة من حب — إلى الإنسانية كافة » !

* * *

تلك كلمات من كتاب برجسون : « منبعا الأخلاق والدين » . . .

كلمات منيرة هادية ، تكشف عن حقيقة (الطاقة الروحية) في الإنسان ، وتبرز دور (الإيمان) في تربية النفوس والمجتمعات . . .

ودعاة الدين في حاجة دائماً إلى مطالعة مثل هذه التأملات الفكرية الرائعة ، والتماس الحكمة من شتى مصادرها .. . ليجادلوا في الله على علم ، وهدى ، وكتاب منير .

الإسلام والشيوعيّة

يعتقد الكثيرون أنه ليس هناك مايمنع من قبول أى نظام دون نظر إلى موضع « الله » فيه ، إذ نستطيع أن نستدرك هذا النقص بتلقين الدين للصغار والكبار ، للانتفاع بثمراته الروحية فى الوقت الذى ننتفع فيه بمزايا هذا النظام المادى !

هذا التصوّر خاطىء تماما ، فالإيمان بالله واليوم الآخر فى الدين ليس مسألة مستقلة بذاتها ، منفصلة عن الحياة الاجتماعية ، يمكن أن يُرقّع بها أى نظام !! إنّ الدين نظرية متكاملة ، وفلسفة شاملة ، ونظام متوازن فى إقامة الحياة الاجتماعية الفاضلة . فإذا كانت هناك فكرة قائمة على التجرّد من الإيمان فى معالجة الأوضاع الاجتماعية فهى أسلوب آخر فى التفكير والإصلاح ، وهيهات أن يجتمع التفكيران !

فالذى يظن أننا يمكن أن نكون شيوعيين مسلمين ، أو ماركسيين محمديين : جاهل لوحدة التفكير الإنسانى ، ووحدة الحياة الإنسانية ، كما هو جاهل لما ينبغى أن يراعى من الاتساق الفكرى إزاء هذه الوحدة فى التوجيه العام . لذلك كان من الضرورى أن يبحث الأساس الفلسفى للشيوعية والإسلام ، لتظهر طبيعة كل مذهب كفكرة كلية عامة متميزة .

أولا : الأساس الفلسفى

الأساس الفلسفى للشيوعية :

• على فلسفة « هجل » الجدلية : قامت النظريات الشيوعية . فهجل يقول: «إن الفكرة وحدة عضوية»، فالبرعم والزهرة والثمرة، وإن تميز بعضها على بعض ، بل وإن تضادّ بعضها مع بعض ، فإن طبيعتها التى تسرى فيها كلها تكوّن منها دقائق من الوحدة العضوية ، بحيث لا تتعارض إحداها مع الأخرى فحسب ، بل يكون لوجود كل منها من الضرورة ما للأخرى تماما . وهجل يرى أن الوحدة بين الأضداد يقبلها الفكر ، إذا علا بنظره إلى مجموعة الحقيقة ككلّ واحد مرتبط الأجزاء .

• إذن فالكون عند هجل عملية نمو وتقدم ، وهنا يرى هجل فى كلّ حركة (مطلقا) كامنا لا يزول : لا كعنصر مستقل وحده ؛ بل كروح سارية فى كل شىء لتكشف عن نفسها ، وليس تقدّم الفكر إلا ظهورا بالفعل لما كان موجودا بالقوة . فالله يكشف عن نفسه فى الفكرة المنطقية ، ويتجلّى فى الطبيعة والعقل .

• أخذ « ماركس » طريقة «هجل» ، ولكنه طبقها على العالم الموضوعى أو الظاهرى : عالم التجارب اليومية ؛ فعالم التجارب ليس ساكنا بل كل شىء فيه يتغيّر ؛ والقوى المحركة هى قوى الإنتاج . فكلّ مرحلة من التطور تحققها قوى الإنتاج ، تخلق مجموعة من العلاقات الاقتصادية بين أفراد المجتمع ، يترتب عليها الهيكل الأساسى والاجتماعى الذى ينظم المرحلة الجديدة ويكفل لها الاستقرار

المؤقت. وهذه العلاقات الاقتصادية تؤدى إلى انتظام الناس فى طبقات دنيا وعليا، ومن ثمّ ينشأ صراع الطبقات .

هذه « المادية الجدلية » ، تستخدم لتفسير التاريخ الإنسانى : من صراع الأشراف والعبيد، إلى صراع أمراء الإقطاع والبورجوازية ، ثم صراع الرأسماليين والعمال ... ومن ثمّ سمّى هذا الاتجاه « بالمادية التاريخية » .

● ولئن قال هجل إنّ الحقيقة النهائية التى هى أساس الحقائق جميعا هى « المطلق » ، فإن ماركس يأبى أن يسلم بهذا ، ويثور ضد هذه المثالية المجردة . لذلك يقول يوسف ستالين : إن ماركس وانجلز عندما يضعان طريقتهما الجدلية يشيران عادة إلى هجل باعتباره الفيلسوف الذى صاغ القسمات الرئيسية للجدلية ، ثم يستدرك — بأنهما لم يأخذا عن جدلية هجل سوى نواتها الترشيدية ، نابذين غلافها المثالى ، ومن ثم تطوّرا بتلك النواة حتى أكسباها شكلا علميا حديثا .

الأساس الفلسفى للإسلام :

● يقوم الدين على الإيمان بالله : والإيمان شىء فى فطرة النفس يتجه إليه الخلق كما تتجه ذرات الحديد إلى المغناطيس : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، وقد سلّم علم النفس الحديث « بنزعة التدين » وأدرجها بين مباحثه ، وسجّل التاريخ وعلم الاجتماع اتجاه الناس من قديم لارضاء هذه الفطرة فى نفوسهم ، وأثبت الواقع المعاصر سعى الناس لسدّ فراغهم الروحى بالتماس أسباب التفاؤل والتشاؤم والتبرّك . ولا يزال الشعور بنقص الانسان يستحثه على الكشف عن (مصدر ثقة) يواجه بها الأحداث ، ويتغلّب به على أزمات النقص أو الاضطراب اللذين قد يخلاّن بالانتفاع من طاقة الفكر فى إيجاد الحلول العقلية أو طاقة المادة فى سد الحاجات الإنسانية ، إذ أن هذه الثقة قد تهيّىء من السكينة النفسية

ما يتيح تفكيراً هادئاً يوصّل إلى برّ النجاة . لذلك لابدّ أن يضطرب الإنسان فى الأرض ويعمل فى المحسوس ، وقد هيمن على نفسه شعور الاعتماد على كائن: كامل يسدّ كل نقص ، قادر يمد بكل عون ، عادل مقسط فى الرزق والجزاء ، خالد لا يغيب ولا يتغيّر . وهذا الشعور بالرعاية والحماية ضمان للوقاية من الأزمات النفسية التى تذهب بالطاقة الانسانية : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ،ويجعلكم خلفاء الأرض . أإله مع الله قليلا ما تذكّرون ؟ أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون؟» . وهذا الإيمان الفطرى شىء يدفع إليه منطق الأشياء ، فكل كائن لا بد له من مكوّن ، حتى ينتهى المطاف إلى مكون لا نهائى . « هو الأول والآخر »،« أم خلقوا من غير شىء،أم هم الخالقون؟» .والتسليم بالبداية يدعو إلى التسليم بالنهاية ، وليست هناك نهاية أليق من دار الجزاء ، وهى نهاية تجدر بحكمة الخالق وبتفكير العقل السليم: « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا،وأنكم إلينا لا ترجُعون؟ فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم » .

● هذا الإيمان هو مذهب فى الإصلاح : إذ أنّ غاية الدين هى نفع العباد، لأن الله غنى عن العالمين . وهذا النفع محقّق فى الدنيا التى فيها تطبق رسالات السماء ، قبل أن يحقّق فى الآخرة التى يتلقى فيها الناس الجزاء . والإيمان إذ يجاوب الفطرة ويوافق المنطق فإنه يكفل سلامة الأداة الانسانية بتوفير موافقاتها ، وبهذا يتأتّى لها أن تنتج إلى أقصى حدود الإنتاج - إذ يكون قد استقرّت أوضاعها ، وانتظم جهازها . والإيمان إذ يسدّ النقص ويمدّ بالعون فإنه يقى الإنسان من الضعف الكسير أو القوة المغرورة سواء بسواء، إذ أنّ إسلام زمام النفس لله هو إحكام « لصمامتها » حتى لا تتبدّد قواها بالالتصاق بالأرض

أو الشموخ فى السماء . والإيمان يضع أمام الفرد والمجموع أسس « تميز الفكرة » ومقومات « تكون الشخصية » بما يطبع به المؤمنين من سمت فكرى عام ، وما يرسم لهم من خطوط رئيسية عملية : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، « الإيمان بضع وستون شعبة » . والإيمان بعد ذلك يعطى فرصة أوسع لتفهمه والانتفاع به حين يصاغ فى « أحكام دين » ، ولا يكون مقصورا على مجرد « نظرة فلسفية » ، فهناك فرصة فسيحة لتداول الإيمان وممارسته عمليا . لذلك يبدأ الله كثيرا من التكاليف الشرعية العملية بخطاب « الذين آمنوا » ، ويجعل بعض التكاليف علامة الإيمان : « إن كنتم مؤمنين » ، « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وهكذا . وتطبيق هذا « البرنامج العملى » للمؤمن بهذا الأسلوب، يعين على إتقان العمل إذ يناشده الإيمان فى التنفيذ ، كما يعين على تثبيت العقيدة حين يستشعر المرء أنه يعمل فى مجالات المؤمنين وفقا لأوامر رب العالمين .

● والإيمان باليوم الآخر: يطمئن الإنسان على خاتمته ، وخاتمة الكون الذى يضطرب على ظهره ، وحساب الأرباح والخسائر فى النهاية . فهو تصور منطقى لنهاية معقولة للكون ، ينتهى عندها التطور ويقوم التقدير الصحيح : « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة »، وفيها التعويض الوافى عما عمل الناس فى الدنيا ، سواء من عُجِّل لهم جزاؤهم فيها ، أو من ابتلوا رغم خيرهم أو أملى لهم فى شرهم ، وعدالة الله تستقصى ما هو أصغر من مثقال ذرة لتنصف الجميع . فإذا كانت نظريات الماديين تقف بالتطور عند مجتمع سعيد ، فإن هذا « الفردوس الأرضى » فيه فراغ روحى : إذ بنى على أسس المادة ولم يراع فيه حق « الجهاز الروحى » من أجهزة الإنسان ، وفيه ثغرة جدلية : إذ قال أصحابه بالتطور ووقفوا به عند فردوسهم !! أما الإسلام فلا يقف بعجلة التطور

ولا يقيم «العالم الكامل الخالد» إلا حين تقف عجلة الكون لتقوم الساعة ، وعند ذاك يقوم عالم جديد وحياة جديدة بخصائص جديدة : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » ، وهذا أقوم بإرضاء الفطرة والعقل وعقيدة اليوم الآخر تردع الظالم عن البغي على أخيه حتى لا يفوت بذلك أجره فى «دار الخلود» من أجل «متاع الغرور» ، وهى فى الوقت نفسه تستنفر المظلوم للاستشهاد من أجل حقّه المغصوب طمعاً فى إحدى الحسنيين : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » . لذلك يصوّر القرآن الطغيان بأنه انصراف عن الآخرة : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى » ، « إنى عذت بربى وربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب » .

والإيمان باليوم الآخر يحمى صاحب الفكرة من مزالق التخاذل : إذ يطيل أنفاسه فلا تتراقص أمامه الأهداف ، ويربطه بثواب الله وهو خير وأبقى إن سقط صريع الكفاح ، ويثبّته على رسالته فلا يضعف عنها أو يتاجر بها : « لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، قالوا : معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون » . فإذا وُفّق صاحب الفكرة إلى الفوز ، حماه الإيمان باليوم الآخر من البطر والتعاظم ، وردعه عن استباحة اللذائذ على أشلاء الحق والعدل : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . وأخيراً ، فإن الإيمان بالله واليوم الآخر هو الإيمان بالمحكمة التى لا فرار منها والقاضى الذى لا تحايل عليه ، وهكذا تحرس العقيدة النفس التى قد تستطيع أن تتهرّب من نصّ القانون أو رقابة القائم عليه ، ولكن لا يتأتّى لها أن تتهرّب بحال ممن يعلم السرّ وأخفى ، وهذا أدعى لإحكام الأعمال وتجويدها .

* أما التطوّر : فالقرآن يقرره فى مواضع : « وخلقناكم أطوارا » ،

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » . وهو يقرر طبيعة البشر فى الصراع : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ، إذ الصراع نتيجة طبيعية لتباين الذى هو أساس الفاعلية الحيوية الاجتماعية: « ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم » . والإسلام نفسه لا يخلق باعتناقه ملائكة كاملين يقف عندهم التطوّر ، إنما هو يخلق بشرا فاضلين ترجح عوامل الخير نوازع الشر فى نفوسهم مع استمرار التطور والتدافع فى نطاق النفس المؤمنة : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم » ، « فإن تنازعتم فى شيء ، فردّوه لى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . » .

هذا التطوّر سنة من سنن الله ، فالنظرة اليه انما تكون فى حدود الإيمان ، وهذه النظرة على هذا النحو تعين المؤمن على مسايرة التطور والوثوق بالنتيجة ، فلا يتردّد ولا يتراجع ولا يطفر . ولكن عزل التطوّر من سنن الله وإخضاعه فقط للمحسوسات المادية ، واقتطاع المسألة برمتها من فلك الوجود الناطق بمبدعه — شيء يتصادم مع « فكرة الإيمان » تصادما عنيفا .

ولقد تقدّم كيف أبى ماركس أن يسلم « بالمطلق » عند هجل ، وأن ينظر الى الأشياء على اعتبار أنها غايات نهائية وحقائق ومن هنا جعل قاعدة هجل : « إنّ ما هو عقلى حقيقى وما هو حقيقى عقلى » منحصرة فى المادة والمحسوس ، وهذه النظرة تتناقض مع فكرة الإسلام ، اذ أنّ ميزان الحياة فيه يجعل الإيمان بالله مهيمنا على كل شيء ، ويجعل فكرة الإصلاح قائمة على فلسفة الإيمان . وتنحية الله عن فكرة واعتبارها من الميتافيزيقا ، أسلوب مناقض لأسلوب الدين فى علاج مشكلات الحياة . واجتماع النقيضين فى الحياة العملية أشد

استحالة ، إذ كيف ينحّى المرء عقيدته تماما فى وقت ما ولا يؤمن إلا بالمحسوس ، ثم يترك هذا المحسوس فى وقت آخر ويؤمن بالغيب ؟؟ وكيف يكون مؤمنا بالمذهب المادى حين يصلّى ، ومؤمنا بالدين حين يدرس المادية الجدلية ؟ ؟

لم يبق إلا أن تفسح احدى الفكرتين مكانها للأخرى ، وتنحية العقيدة فيها مجافاة للفطرة والمنطق ، وفيها مخاطرة إذ نثق فى « الانسان الناقص » كقوة مستقلة بذاتها ، تبدع «فكرة صحيحة» مطلقا ، يترتب عليها إقامة «عالم كامل» فى الدنيا منقطعا عن الآخرة ! !

وهذا عند أهل العقل مرفوض بكثير من أدلة العقل ، وهو إلحاد شنيع عند أهل الدين !

● وإنما يكون أسلوب معالجة التطور الانسانى فى دين الله بأخذ سنن الله موصولة بالله ، مذكّرة به ، نافعة للناس فى حياتهم ، متمشّية مع الفكرة الكلية الواحدة فى الإسلام ، فكرة الإيمان .

إن الإيمان عقيدة وعمل ، فهو برنامج حيوى شامل متوازن متكامل للإنسان بكل وظائفه وطاقاته . والعلم فى فكرة الايمان : تسبيح بكشف بعض سرّ الصانع ، وتحميد بتذليل كونه لانتفاع خلقه ، فيزداد العباد إيمانا بعظمة الخالق بالنسبة للمخلوقين ، ويتيقّنون استحالة أن يستطيعوا إسعاد أنفسهم بما أوتوا من علم محدود وطاقة محدودة فى دنياهم ، على النحو الذى يسعدهم الخالق بعلمه المحيط وقدرته غير المحدودة ، وأسرار خلقه التى لم يعرفوا منها إلا قليلا حين يُردّون إليه فى آخرتهم . ومن هنا يبذلون قصارى جهدهم فى تحقيق أكمل « محاولات » ممكنة لإقامة المجتمع السعيد بشرع الله فى الدنيا ، لينالوا السعادة المطلقة الدائمة فى دار الخلد

« لا يمسّهم فيها نصب ، ولا يمسّهم فيها لغوب » . وكل نظرية تتنافر مع دائرة الإيمان الكبرى ، نظرية لا يتأتّى لها أن تنتظم مع جزئيات سلك حياة المؤمن إذ أنها قامت على أساس كلى خاطىء ، لا يغنى مع خطئها الأصيل ما تصيبه من توفيقات جزئية . ومن أجل ذلك قال تعالى : « فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، إنّ ربّك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .

فى ظل الإيمان تتوفّر كل احتياجات المجتمع الإنسانى ، وتُرضى الوظائف العضوية والروحية جنبا إلى جنب ، فينتظم سير الحياة فى فلك موزون . وهذا هو القرآن يزاوج بين المظاهر الجسمية والنفسية للراحة الإنسانية : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

ثانيا : الجانب الاقتصادى

الجانب الاقتصادى للشيوعية :

• يوجه ماركس تحليله ومنطقه المادى إلى الرأسمالية : فينظر إليها بالمنظار التاريخى فيجدها قابلة للتغير كما سبقها من نظم ، ولا يقبل أن ينظر إلى علاقات الملكية الموجودة حاليا والتى هى أساس الهيكل الاقتصادى الحاضر كأنها علاقات مقدسة لا يصح أن تمس ، بل يعتبر نظام المشروعات الرأسمالية الخاصة حلقة من سلسلة مستمرة . فالهيكل الاقتصادى الذى هو أساس الحياة الاجتماعية ليس إلا علاقة ملكيات ، فعندما يسود نظام الملكية الخاصة ينقسم المجتمع إلى فئات تتميز بعضها على بعض تبعا لمركزها من ملكية أدوات الإنتاج . وقد يكون الأصل فى هذا التنظيم الاجتماعى طبيعيا فى أول الأمر ، ولكن متى قامت العلاقات الاقتصادية فإن عملية الإنتاج فى ذاتها تجعل هذه العلاقات عرضة للتغير ، فإذا بدت أثناء مدة معينة كأنها شروط ضرورية للانتاج ، فهى بالنسبة لمدة أخرى سابقة نتيجة لطرق الإنتاج القائمة حينئذ .

— فعندما يصبح المجتمع فى وسعه إنتاج مايفيض على حاجات أفراده الضرورية ، يكون هذا الفائض موضعاً للملكية الخاصة ، ومنذ هذه اللحظة تصبح الملكية الخاصة من الصفات اللازمة للهيكل الاقتصادى وتمتد حتى إلى الإنسان نفسه .

— وعندما يصبح هذا النظام غير ملائم ، يحل محله نظام الإقطاعيات وما فيه من أنصاف العبيد والأتباع .

— ولا يلبث هذا النظام أن يفسح الطريق للرأسمالية ، حيث لا يبقى المشتركون فى العملية الإنتاجية جزءاً من الثروة المملوكة ، بل يصبح العامل المنتج محروما من ملكية أدوات الإنتاج .

● هذا الدور قابل للتغيّر كسوابقه ، والقوّة المحركة للتغيّر هي التعارض. وينحصر هذا التعارض الأساسي في نظام الرأسمالية الخاصة في أنّ الإنتاج تزداد صفته الاجتماعية التعاونية من يوم ليوم نتيجة لتقدّم طرق الإنتاج من جهة ، بينما تقوى وتنمو الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج من جهة أخرى ومظهر هذا التعارض انقسام المجتمع إلى فئتين : أصحاب رأس المال ويملكون أدوات الإنتاج ، والعمال ولا يملكون إلا قوة العمل — وهذا التعارض ينجم عنه تصادم مصالح الفئتين .

● وحين يعرض ماركس لموضوع القيمة : فهو لايحاول أن يفسّر الأثمان كما هي في الحاضر أو يحلّل تقلّباتها ، إنما قصد أن يبيّن كيف يُستغلّ العمال في ظلّ النظام الرأسمالي . والمجهود البشرى هو وحده منبع القيمة عند ماركس ، ووسائل الإنتاج التي يهيّئها الإنسان بالتعاون مع عناصر الطبيعة لكى تعين الإنسان على الإنتاج المستقبل ليست عنده إلا مجرّد وسائل لحفظ المجهود البشرى ، ووظيفتها حفظ ونقل القيم لا خلق الجديد منها .

● ويقرر ماركس أن وحدة العمل تشترى بما يعادل قيمة الأشياء الضرورية لحفظ حياة العامل وقدرته على العمل بمقدار هذه الوحدة : والمموّل الذي يدفع أجر العامل يصبح له الحق في استعمال العمل كمشترى أية سلعة ، كما يصبح له الحق في تملّك ما ينتجه العامل الذي يبذل جهوده في معالجة الأدوات والمواد ؛ فتفوق قيمة ما ينتجه العامل من كمية العمل المباشر والعمل غير المباشر قيمة الأشياء الضرورية اللازمة له أثناء العمل .

ومن خصائص نظام المجتمع الرأسمالي أن يستولى المموّل على هذه « القيمة الفائضة » : بل إن المموّلين يرون من صالحهم تنمية الكفاية الإنتاجية

للعمال مع العمل على خفض قيمة الأشياء التي تقوم بأودهم حتى تزيد القيمة الفائضة .

• أما المجتمع الشيوعى فتلغى فيه الملكية الفردية : وقد جاء فى بيان الحزب الشيوعى الصادر سنة ١٨٤٨ «المانيفستو» عن الأغراض العاجلة التى يتسنى تنفيذها عند ما تنتزع الطبقة العاملة السلطان السياسى : إلغاء ملكية الأرض وتخصيص كافة أنواع ريع الأرض للأغراض العامة ، وتركيز الائتمان فى يد الدولة عن طريق إنشاء بنك أهلى تقدم له الدولة رأس المال اللازم وتمنحه احتكاراً خالصاً ، وتركيز وسائط المواصلات والنقل فى أيدى الدولة ، وتوسيع نطاق المصانع وأدوات الإنتاج التى تملكها الدولة ، وربط الصناعات الزراعية والصناعية ، ووضع نظام لتوزيع السلع مقابل بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجيات معيشته ، وسيطرة الدولة على التجارة الخارجية . أمّا نظام الأجور فتطبق فيه القاعدة : « من كلٍّ حسب قدرته ، ولكلٍّ حسب حاجته » .

الجانب الاقتصادى للإسلام :

• يصعب الفصل بين جوانب الفكرة الإسلامية إذ أنها متكاملة . وتحقيق أهداف الخير للناس يتم عن طريق كل الوسائل المتعددة التى يجعلها الدين تكاليف شرعية .

فجانب العدالة الاجتماعية تحققه عقيدة الإسلام : التى ردّت على الناس حقوقهم يوم سلبت من الخلق جميعاً التأله بالذات أو بالواسطة ، بالاسم أو بالصفة ، ونادت فى الأرض أن « لا إله إلا الله » لتقطع الطريق على الخلق حتى لا يبغى بعضهم على بعض ، فكل من يتحكمّ فى عباد الله عن طريق ما رزقه الله من ثروة أو سطوة فكأنه ينحل لنفسه صفات القهّار والرزّاق ، وإن لم يُسَمِّ نفسه إلٰهاً بالاسم فقد جعل من نفسه إلٰهاً بالوصف . وسمّى الإسلام

هذا العدوان على حقوق الشعوب شركا من باب العقيدة ، وجعل رسالته ودعوته : « ألاّ نعبد إلا الله،ولا نشرك به شيئا،ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ». وتتضافر شعائر الإسلام على تثبيت معانى المساواة والتكافل : ففى الصلاة إعزاز للضعيف بقوة الله وتخفيف لصولة القوى أمام كبرياء الله — يسوّى بينهما صف الصلاة الجامعة ، وفى الصوم رياضة نفسية وتسوية عملية ، وفى الزكاة كفالة اجتماعية ، وفى الحج إنسانية عالمية . وهكذا تعمّق العقائد والشعائر الأسس لإقامة صرح العدل بين الناس ، ليأتى دور الأخلاق والنظم : فالأخوة شعيرة إيمان ونظام تكافل « والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم ،يحبون من هاجر إليهم ،ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ؛ والتشريع يستهدف تحقيق مصالح الناس والعدل بينهم ولذلك قال ابن القيم : « إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثمّ شرع الله ودينه » ...

كل هذا فى فلك الإيمان الواسع ... الذى يجمع هذه النواحى جميعا ويزكيها ويهيمن عليها ، كما أنه — هو الآخر بدوره يثبُت ويقوى بمداومة تنفيذ هذه الطاعات . وإذا كانت غاية الخلق هى عبادة الله ، فالعبادة المبتغاة ليست الصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر بذواتها فحسب ، بل المقصود أداؤها والانتفاع بدروسها : فى إظهار نعم الله بحسن استعمالها ، والابتغاء من فضل الله بالعدل فى اقتسام خيره .... فإذا بالعلم والعدل تسابيح كالتكبير والتحميد ، وإذا بتسوية صف الأمة بإزالة الفوارق الجائرة مستفاد من تسوية صف الصلاة ، وإذا برقابة

موارد الكسب ومصارفه لتزكية الثروات وإيقاف البغي والضرار نتيجة مأخوذة من فلسفة الزكاة . وإنما العبرة في الشعائر بثمراتها ، وكأنها دروس على حصص ؛ من انتفع بها في سعيه خارج الميقات والمحراب غفر له ما بينها وتقبلت منه ، إذ هي ليست طقوسا تعوّض غيرها من أعمال الحياة في معادلة رياضية !! فالإسلام هو الحياة نفسها بكل ما فيها ، يسبح الإنسان فيها ربّه باللسان حين يذكر اسمه أو ينطق بفضله أو يبشّر بدعوته أو ينشر بين الناس خيره وعدله وسلامه ، ويسبّح الله بالجوارح في ركعة الصلاة وضربة الفأس وكتابة القلم وحرب المعتدى وتحية المسالم سواء بسواء .

● فعقيدة الاسلام : « فكر مستقيم ونفس سويّة » ، وعبادة الاسلام : « عمل صالح » ، وليس ما اصطلح عليه الناس في العقائد والعبادات إلا أجزاء مبتورة من برنامج الإسلام الحيوى المتكامل . ودين الله بعقائده وعباداته ، ومثله ونظمه ، إنما هو لنفع الناس وخدمة الشعوب . وفي ثنايا هذا الأفق المحيط الاسلام نجد لفتات قرآنية كثيرة إلى العدل الاقتصادى ، تارة في « الأمر بالإنفاق » : مقرونا بالإيمان أو بالصلاة — وهذه آية واحدة تجمع العدل السياسى والاقتصادى إلى الإيمان والصلاة : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » . ويشير القرآن كذلك إلى الزكاة ويسميها بعض أهل التفسير العبادة المالية ، ويعتبر من تخلف عنها مشركا : « وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة » . وينعى القرآن كذلك على من يجحد حق المسكين : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحضّ على طعام المسكين » ، « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدعّ اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين » . ويدين القرآن انحرافات (الارستقراطية والبلوتوقراطية) : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال

مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » . كما يجعل الله « الطيبات » من مظاهر الكرامة الآدمية والعزة الإنسانية : « ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، « فآواكم ، وأيّدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات » . وهذا هو مستوى المعيشة فى حدّه الأدنى المقرر للفقير فى فقه الإسلام : « فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بدّ منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة » — كما ذكر ابن حزم .

ولكن الإسلام لا يعزل العامل الاقتصادى عن بقية العوامل الأخرى ، وهو يقيم بنيانه على إرضاء الاحتياجات المادية والروحية للانسان فى تقدير متوازن لا تتم السلامة الاجتماعية بغيره ، والإشارات إلى ذلك جلية ناطقة فى آيات الله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض » ، « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » — فهذا مزج بديع للعناصر اللازمة للجهاز الإنسانى فى وظائفه البدنية والروحية .

• يعبّر القرآن عن العلاقة بين الناس والمال بقوله تعالى : « جعلكم مستخلفين فيه » ، وإنما يتقرر الاستخلاف على اعتبارات وشرائط خاصة ، إن قامت صحّت الخلافة وإلا زالت صفتها عن صاحبها إذ أنه غير أصيل . والآيات التى تعزّز هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ، « وما بكم من نعمة فمن الله » . ولقد قال عمر : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت

لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على فقرائهم » ، وقال عقب أزمة عام الرمادة : « لو أن الله ما فرّجها لكنت أدخلت على كل ذى سعة من المسلمين مثل عدد عياله ، وما كان لولدين أن يجوعا من طعام ولد واحد » . وعلى هذه الأصول كانت القاعدة الشرعية : « إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد » .

● أما بالنسبة إلى قيمة « العمل » : ففى القرآن لفتات محكمة إلى تقدير الجهد الإنسانى ، وتقويم العمل التقويم السليم... فالفقير هو المحروم من القدرة على العمل ، وليس فقط هو المحروم من رأس المال : يقول تعالى « للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم » ، ويقول تعالى « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض » . ويعتبر الإسلام الصدقة نفقة من المال أو الجُهد على حد سواء ، ففى صحيح البخارى : « على كلّ مسلم صدقة . قالوا : يا نبى الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة » .

● والدولة باعتبارها القائمة على شريعة الله والحارسة لأحكامه هى التى تسهر على سلامة الأوضاع الإقتصادية وعدالة التوزيع وتوازن الملكيات ، ولها حق الملكية العامة على كثير من الموارد والمرافق وخاصة الأراضى والمناجم . يقول أحمد إبراهيم : « لا تكون الأراضى الداخلة فى دائرة الدولة الإسلامية ما لا مباحاً بل هى معدودة من أموال الدولة ، وما كان من مال الدولة وكان أصله مما ملك بسبب الفتح فهو غنيمة وفىء ، وليس لأحد أن يختص بشىء من ذلك إلا بإذن الإمام » . ويقول محمد أبو زهرة : « . . . وهذا المعنى — وهو أن الملكية لا تثبت إلا بإثبات الشارع وتقريره — أمرٌ متفق عليه بين.

فقهاء الإسلام ، لأنّ الحقوق كلها ومنها حق الملكية لا تثبت إلا بإثبات الشارع لها وتقريره لأسبابها . فالحق ليس ناشئاً عن طبائع الأشياء ، ولكنه ناشيء عن إذن الشارع » .

• وتستطيع أن نجمل أصول السياسة الإقتصادية الإسلامية فى ضوء هذه النظرات فيما يلى :

ا — يقرر الإسلام سلطة الدولة فى تكييف الأوضاع الإقتصادية: على أساس أن ملكية المال لمجموع المسلمين وتمثلهم الدولة .

ب — يقوم التملك الفردى بإذن الإمام : إذ أن الإسلام لا ينكر الملكية الفردية على إطلاقها ولا يبيحها على إطلاقها، بل ينظمها فى حدود السياسة الاقتصادية العامة : « فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون » . ذلك أن إلغاء كيان الفرد الاقتصادى مثل إطلاق حريّته مطاقاً فى الضر سواء بسواء . والعدل إنما يكون فى توفير تكافوء الفرص ، وإباحة الملكية الفردية فى حدود السياسة العامة ، إرضاء لغرائز النفس فى التملك ، وتشجيع لها عل الاجتهاد الذى يلحق أثره بالفرد والجماعه ، مع عدم الإخلال بالتوازن العام .

ج — هدف السياسة الاقتصادية العامة للدولة الإسلامية هو قول الله « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » : فينبغى أن تهيأ فرص الكسب والتملك للجميع فى حدود تشرّعها الدولة حتى لا يبغى بعض الأفراد على بعض . وعلى الحكومة الشرعية أن تراقب المصادر والمصارف : فتحرّم « الربا » والكنز والغبن والاحتكار وصور السلب من رشوة وسرقة وحرابة وغيرها ، كما تحرّم إنفاق المال فيما يخلّ بالتوازن كالخمر والميسر واللهو والسرف والترف . ولها أن

تضع الحدود لتقييد الملكية : استعمالا لحقوقها الشرعية ، ورعاية للمصالح المرسلة ، وقياماً بالواجب الذى لا يتم واجب العدل إلا به . والحديث الشريف ينضح بالرغبة الصادقة فى أن يشاطر كبار الملاك غيرهم فيما زاد عن طاقتهم الاستغلالية ، إذ جاء فى فضول الأرضين : « من كانت له أرض فليزرعها ، أو ليمنحها أخاه ، ولا يكريها » . وليست الزكاة ونظام الميراث والوصية والوقف إلا وسائل لتحقيق العدل وتعميم النفع فى توزيع الثروات . ولا بأس أن يساير هذا نظام تعاونى فى الاستغلال ، يكون أقوم بمصالح الملكيات الصغيرة .

فقاعدة الإسلام فى التوزيع تقف موقفاً وسطاً بين سلطة الدولة وحرية الفرد .

د — أما فى الإنتاج : فالإسلام يوجه النظر إلى رفع مستواه حتى يتكفل بتحقيق المستوى المعاشى الكريم المُبتغى . ومن عبادة الله استغلال نعمه وإبراز خيره : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . ولقد أشار القرآن إلى مصادر الثروة النباتية والحيوانية والمائية والمعدنية ، ووجّه النظر إلى عدم الاقتصار على الزراعة فحسب ، ففى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى سكة وشيئاً من آلة الحرث فقال : « لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الذل » !

وقد يكون السبيل إلى عدالة التوزيع وترقية الإنتاج أن تؤمم بعض المرافق . روى أحمد وأبو داود : « المسلمون شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » . يقول الأستاذ على الخفيف : « ويرى المالكية فى أشهر أقوالهم أن ليس شىء من الأنواع للركاز : المعادن والفلزات والسوائل فى محالها من الأموال المباحة حتى يتملكها من وجدها واستولى عليها ، وإنما هى ملك للمسلمين استولوا عليها باستيلائهم على أرضها لأنها منها وثمرة من ثمراتها ، ولكنها مع ذلك لا تعدّ تابعة لها فلا تملك

بامتلاكها ... فبقيت للمسلمين ، أمرها للإمام ، يستغلها بعمّاله أو يقطعها نظير مال أو مجانا إن رأى مصلحته فى ذلك . وأن أقطعها ، لم يجز له يقطعها تمليكا وإنما انتفاعاً ، ولا تورث بل يرد أمرها إلى الإمام » .

هـ — وعلى الدولة أن تكفل للعامل العمل . ولقد كان المتعطلون كثيراً مايشكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيوفّر لهم رأس المال أو سبيل العمل. وعلى الحكومة أن تراقب إنصاف العامل فى أجره ومعاملته ، كما أن عليها أن تؤمّن الأفراد اجتماعيا حين يعجزون عن العمل . ولقد رأى بعض أهل التفسير أن الفرق بين الفقير والمسكين هو أن الأول قادر على العمل ولا يجده فهو « مفتقر » إليه ، والثانى « سكن » به الضعف عن أن يلتمس وسائله ، ومصارف الزكاة تفرض للجميع « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » . ولقد رأى عمر سائلا يهوديا مسنّاً، ففرض له من بيت المال ما يكفيه . وقال خالد : « أيّما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ،أو كان غنيا فافتقر ،طرحت جزيته وعيل من بيت المال هو وعياله» . وفى الحديث مايقرر مسئولية الحاكم عن الضمان الاجتماعى لكل فرد : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك ديناً أوضياعا فعلىّ » . ويلحق بهذا الإمداد بالعون فى أزمات التعطل أو غيرها من الظروف التى تستدعى عناية خاصة ، ولذلك جُعل من مصارف الزكاة سهم للغارمين .

كذلك على الدولة أن تكفل وسائل الترفية الأدبية والروحية بعد الإنصاف المادى ، بضمان حق التعليم ، وإتاحة فرص الثقافة والرياضة وتنظيم شغل الفراغ .

و — تحقق الدولة سياستها الاقتصادية والاجتماعية،عن طريق :التشريع الذى

يقنن الأصول السابقة «فى مراقبة مصادر المال ومصارفة ، تحديد سياسة التملك ، ترقية الإنتاج، ضمان حقوق الأفراد المادية والأدبية» ، كما تقوم الدولة بجمع الزكاة وماتفرضه من ضرائب لتنفقه فى صالح المجموع علاوة على ما يتيسر لها من غنائم الحرب . ولها فى أوقات الضرورة أن تلجأ إلى تدابير استثنائية لتحقيق التوازن والتكافل عملا بسلطتها العامة . والحكومة الشرعية هى الأداة التى إليها مناط النظر فى تحقيق التوافق بين مصالح الفرد والمجموع . وهى أداة قائمة على شرائط سياسية محددة تكفل عدالتها وأمانتها .

● أما نظرية القيمة الماركسية : فيرى الدكتور نظمى عبد الحميد « أن إيضاح كيفية تكوين الأثمان هو الغرض من جميع نظريات القيمة المعروفة ماعدا نظرية ماركس . . . ومن هنا كانت سخافة الجهود التى بذلها كثير من الاقتصاديين للتدليل على خطأ نظرية القيمة الماركسية على اعتبار أنها نظرية موضوعة لتفسير أثمان السلع والخدمات . . فالحق أن نظرية تكوين الأثمان وأسس توزيع هذه الأثمان على العناصر المشتركة فى إنتاج السلع لاتتعارض مع نظرية ماركس فى القيمة التى كان الغرض منها إيضاح كيف يستغل العمال فى النظام الرأسمالى ، ولم يكن الغرض منها إثبات أن أثمان السلع تتناسب مع كميات العمل المبذول فى صنعها بصرف النظر عن عناصر الإنتاج الأخرى . . . وماركس يقدّر قيمة الشىء لا بمقياس ما ينتجه العامل من قيمة ، ولكن بكمية العمل المبذول فى انتاجه . وعلى هذا فقيمة كمية من عمل معين منسوبة إلى نفس الكمية من نوع آخر من العمل ، هى كنسبة نفقة إنتاج الكمية من النوع الأول إلى نفقة إنتاج نفس الكمية من النوع التالى . ولا شك أن هذا حلّ معقول إذا ما أردنا مقارنة قيم المهارة الحرفية التى يمكن للفرد المتوسط المقدرة أن يحصل

عليها بطريق التدريب ، أما إذا كنا بازاء نوع من المقدرة التى ترجع لمواهب المرء الطبيعية ، فالقاعدة التى ارتضاها ماركس لا يصلح تطبيقها » .

والواقع أن تقدير الفروق الفردية فى حدود ـ كتقدير الملكية الفردية فى حدود ، من الخصائص الطبيعية للمجتمع الإنسانى . وقد يعالج أمر هذه الفروق بوضع حدّ أدنى لايحيف بإقامة الحياة الإنسانية الكريمة ولا يتجنّى على الميزات والكفايات ... فإن التسوية المطلقة قد تجرّ إلى خفض الأعلى إلى الأدنى ، بدلاً من أن تؤدى إلى رفع الأدنى للأعلى ! !

على أن الإسلام يدعو دعوة حارة إلى إنصاف الأجير : ففى الحديث « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » ... وواضح أن تفصيل السبيل الذى به يتمّ الإنصاف فى تقويم السلع والخدمات وتحليل الأثمان شىء ليس من مهام الإسلام فى مصادره الأولى من كتاب وسنّة ، إنما هو من واجب علماء المسلمين . وإذا كانت نظرية القيمة تحليلية وليست تطبيقية — على رأى الدكتور نظمى عبد الحميد ، فإن الإسلام قد ألمع الى قيمة العمل وأنصف العامل ، ثم أفسح المجال للمجتهدين لإبداع النظريات والأنظمة التى تحقق هذه القاعدة .

● وأخيراً ... هل إستهدف الإسلام قيام المجتمع البرىء من الفوارق الجائرة؟

جاء فى صحيح البخارى فى روايات متعددة : « تصدّقوا ، فإنه يأتى عليكم زمان يمشى الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها ! يقول الرجل : لو جئت بها بالأمس لقبلتها ، فأما اليوم فلا حاجة لى بها » ! !

خاتمـــة

يخلص بنا البحث إلى الحقائق التالية :

● من ناحية القاعدة الفكرية الرئيسية : التى يرتكز عليها الإسلام — ونعنى لها (الإيمان بالله واليوم الآخر) — لا يمكن أن تتوافق هذه القاعدة مع أساس المذهب المادى

● من ناحية أصول العدالة الاجتماعية : يوفّر الإسلام الضمانات العامة لحقوق الأفراد والشعوب ، ويرسم الكتاب والسنّة خطوطا رئيسية للأهداف الاجتماعية ،والوسائل التنفيذية التى تحقق هـذه الأهداف . والإسلام غنى بهذه الأصول ، وهو يتميز بأنه يقرّر العدل الاجتماعى نابعاً من العقيدة ، مستفاداً من الشعائر ، محققا عن طريق التربية الخلقية والتشريع التنظيمى معاً ... وهذه ميزة الإسلام كنظام إصلاحى واسع الشمول عميق الجذور .

● من ناحية النظريات الفرعية والأنظمة المفصّلة : فى الإنتاج والاستهلاك والتوزيع والمبادلة ، يفسح الإسلام المجال أمام علمائه ليفصّلوا القول فى هذا الباب،غير مقيّدين بنظريات الاقتصاد الرأسمالى أو الاقتصاد الاشتراكى ، فانها نظريات تفرّعت عن أفكار ومناهج لا ترتكز إلى أساس إسلامى عام ، فضلا عن أنها لم تسلم من النقد . وليس هناك ما يمنع من أن يثمر الفكر الإسلامى فى تفاعله الجديد، نظريات وقوالب مبتكرة ،تتضامن مع فكوته الكلية العامة .

« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه المصير . »

الدّين ...
على فطرته

الدّين ... حرّيّة !

«يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ،
ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ،
ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»

أغلى حقائق الإنسانية ... الحرية !

فالإنسان لا يسير وفق نواميس آلية مطّردة كالجماد ، ولا يسير بتوجيه الغريزة وحدها كالحيوان ....

لكن الإنسان يتمتع بإرادة . . . تتجلى مظاهرها فى الاختيار ، ومن هنا تتوفّر مقدمات بعينها فى ظروف بعينها ، ولكنها لا تعطى النتائج نفسها بالنسبة لتصرّفات الإنسان !

وأداة ممارسة الاختيار ومباشرة الإرادة هى العقل والتفكير ... وهذه الأداة من خصائص الإنسان المتميّزة .

فإذا أردنا أن نعبّر عن الإنسانية بخصيصة واحدة مفردة ، تكون علما على الإنسان وصورة لطبيعته ، لقلنا : إن الإنسانية حرية ...

* * *

تلك حقيقة قرّرها الفلاسفة بمنطقهم ، وتغنّى بها الفنانون بمختلف أساليبهم وألوانهم ... وهى حقيقة سجّلتها الوثائق الدستورية ، بعد أن استخلصتها دماء غالية وأرواح عزيزة ... فى كفاح ما أقدسه من كفاح !!!

والدين . . ما باله فى هذه القضية الكبرى ؟؟

إذا كانت حقيقة الإنسانية هى الحرية ، فإن مهمة الدين هى تقرير هذه الحقيقة وتقديسها ...

إنه يعمّق مشاعر الحرية فى مسالك النفس والعقل ، وفى أغوار الفرد والمجموع ، وفى جذور الأمة والدولة ، وفى أصول العقيدة والشريعة ... فتتجاوب فطرة الله فى نفس الإنسان مع دين الله المنزّل على رسله والمودع فى كتبه ، وتتجاوب نواميس الله الكونية مع نواميسه الشرعية ، ويتجاوب كتابه المشهود مع كتابه المقروء !

إن الله يريد أن يستخلص النفس الإنسانية حرّة كريمة عزيزة كما يراها ... وهو يؤكد هذه الحرية والعزة والكرامة أيّما تأكيد ...

● يؤكدها فى قصة خلق الإنسان أصلا ... فإن فيه من روح الله مالا ينبغى أن يذل أو يهون ، بل ما استوجب من أطهر خلق الله الإجلال والتكريم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » !

● حتى إذا ما خلق الإنسان وهبط إلى الأرض ، أكّد الله مكانه فى الكون بين المخلوقات : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، « ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

● والله يؤكّد حرية الإنسان واختياره : « وهديناه النجدين » ، « بل الإنسان على نفسه بصيرة » ، « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . .

وعلى أساس هذه الأصول الكبرى ، عرض الإسلام نفسه على الناس ... فدعا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل بالتى هى أحسن ، ونفى — أقطع نفى — أن يكون الإلزام والإرغام طريقه لسوق العقائد إلى القلوب :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟؟!!

« أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » ؟؟ !!

« لا إكراه فى الدين ، قد تبيّن الرشد من الغى » ...

وأنزل الله العظيم آيات كتابه ، يناقش ويبرهن ،ويورد الاعتراضات ويردّ ، سبحانه تقدّست أسماؤه وجلّ فى علاه !!!

تقرأ قول الله العظيم : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »...

وتقرأ قول الله العظيم : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ؟ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » !!!

وتقرأ قول الله العظيم : « وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » ؟؟ !!

وتقرأ قول الله العظيم : « أم خلقوا من غير شىء ، أم هم الخالقون » ؟

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون » ؟؟!!!

وتعجب من هذا النقاش الرائع الأمين ، والجدل الذى يجريه رب العزة مع مخلوقه العزيز ،وتطرب لهذا المنهج الربانى الأقدس فى تربية المؤمن المفكّر الحرّ !!!

ونسمع فى كتاب الله العظيم تسجيلا دقيقا لكل دعاوى المنكرين والمتشككين: « وقالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر»، « قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » ، « وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم ،يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ ؟ قل : إنّ الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ... » !!!

ثم تقرأ بعد ذلك آية الآيات فى أدب الخطاب والجدال ، فترى التحدى

الذى لا يتخلّى عن الذوق السامى الرفيع : « قل لا تُسئلون عما أجرمنا ، ولا نُسأل عما كنتم تعملون » ؟؟!!

* * *

هذا الإنسان الحر الكريم . . . هل يكون غنيا عن العالمين ؟؟

إنه مخلوق ... يأنس ويستوحش ، يقوى ويضعف ، يستكبر ويستخذى . . . فتحريره وإطلاق قواه لن يلغى طبيعته كمخلوق !

إنه دائم الإحساس بالحاجة إلى استمداد العون والتماس السكينة ...!!

وتحرير الإنسان يبلغ أقصاه ، حين يرضى الدين فيه احتياجاته بما لا ينال من قوته وطاقته وحقيقته الكبرى ...

والدين هنا ينقذ الإنسان من أن تستهلكه الشكوك والأهواء الباطلة ، ويعلمه : من يعبد ، وبمن يستعين !

• إنه يشفق على الإنسان من أن تستعبده الطبيعة ... الجميلة الجليلة ، بنواميسها الصارمة البديعة المذهلة ! فيتصاغر المخلوق الحرّ العزيز أمام الشمس التى تبعث الضوء والحرارة والحياة ، وأمام القمر الذى ينشر النور والجمال ، أو أمام أعاصير الريح ، أو غيث المطر ، أو أمام ما يسخّر بين يدى الإنسان من نفاثات وذريات وصواريخ الفضاء !!

• ويشفق الدين على الإنسان من أن تستعبده الأهواء . .من أن يسبيه إيحاء الأفراد ، أو استهواء الجموع . . . من أن يجرى المخلوق الحرّ العزيز الكريم خلف مطالب جزء منه ، فيجرجر كيانه كله تبعاً للقمة ، أو شهوة ، أو انقياداً لإنسان سواه من عباد الله !!

• ويفجّر الدين الطاقة الإنسانية العارمة البناءة ، حين يربط الإنسان — في استعلائه واستسلامه — بالله الواحد القهار ! !

إن الله — وحده — هو الذي « ليس كمثله شيء » « ولم يكن له كفواً أحد » . . .

والله — وحده — هو الذي له الحكم والأمر ، وهو — وحده — إذا قضى أمرا فلا يكون لمؤمن خيرة من أمره ، بل عليه الطاعة والامتثال ...

والله — وحده — هو الذي لا يسئل عما يفعل ، وهو — وحده — الذي يحمد على السراء والضراء ولا يحمد على مكروه سواه ...

والناس ...؟؟

الناس جميعاً — أيًّا كانت منازلهم — أنداد وأمثال وأشباه ، فالعباد سواء لا يستعلي عليهم إلا الإله المعبود ، والخلق سواسية يتعاونون ويتحاسبون ، وهم يحسنون ويسيئون !

هذه هي الحرية ... في أبعد أعماقها !!!

ومن هنا تنطلق الطاقة الإنسانية ... في أضخم إمكانياتها !!!

إن الحرية عند المؤمن لم تعد صرخة بشريته ونداء فطرته — فحسب ؛ إنها دينه الذي يعبد الله به ويلقاه عليه ، فيرضي نزعته في الانقياد والاستسلام لقوة كبرى ، في الوقت الذي ينطلق فيه إلى أرحب الآفاق ...

إسلام لله ... بالانطلاق في الكون

وعبادة لله ... بالتحرر من كل سلطان سواه

وهكذا يكون نداء الكون هو نداء الدين ، ونداء الخضوع هو نداء

العزة ... ويكون تكريم الإنسان هو وحى الله

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ... ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

« ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » !

* * *

هذه القوة الكبرى التى يدين لها المؤمن فيعتز ، ويسلم فيتحرر ، هى أكرم قوة وقدرة يخضع لها الإنسان ... فضلا عن أن تكون أجدر قوة وقدرة بوجوب الخضوع لها والتسليم !

إنها قوة الغيب . . . علت عن كثافة الحس ومطالبه ، ونطاقه العاجز القاصر !!! إنها ترضى فى الإنسان أشواق الروح للإيمان بالغيب ، فى الوقت الذى تطلقه فى عالم الشهادة يعبد الله بالتعامل مع الكون والناس ...

إنها لا تتطلب من الإنسان (أتاوة) خضوع : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » ! لا تتطلب عصبية هوجاء ولا أحقاداً عمياء ، فالله لن يزيد ملكه بطاعة الطائعين ولن ينقص بمعصية العصاة !! فليس الخضوع لله إعلاء لدكتاتورية فرد ، أو سيطرة حزب ، أو احتكار طبقة ، أو تغلب جنس أو أمة ، أو تحكمّ قبيلة أو أسرة ...

وليس فى الخضوع لله محاباة للخاضعين كطائفة ، ولا تحامل على المنكرين كطائفة : « ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، « ولايجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

هذا هو ربّ العالمين بحق ، ربّ المؤمن والكافر على السواء ، ربّ كل

الأفراد والأجناس والأقوام والطبقات والطوائف على السواء !

لا عجب أن كانت قوته . . . أنزه قوة كبرى يخضع لها الإنسان ، وأكرم قوة كبرى يخضع لها الإنسان ، فضلا عن أن تكون أجدر قوة بأن يخضع لها الإنسان ...

« أأرباب متفرقون خير ... أم الله الواحد القهار » ؟؟!!

* * *

هذا الإله العظيم ... الذى يدين له الإنسان الحرّ العزيز فتنطلق طاقاته المذخورة من مكامنها ، دون أن تبتذل فى مراسم خضوع تمسخ بشريته وتشوّه معالمه وتبدّد قواه . . .

هذا الإله العظيم ... الذى يرعى الناس جميعاً والخلق جميعاً بربوبيته الرحيمة ، يعلم أنه ما من فرد أو جمع يطيق أن يعيش منفرداً فى الكون ، فلا بدّ لرعاية حرية فرد أو مجتمع من تمكين كل الأفراد والمجتمعات من ممارسة الحرّية ، ومن هنا كان لا بد أن تتقابل الحقوق والواجبات ...

وأتت شريعة الإسلام تنظّم ما فجرته عقيدة الإسلام من طاقات الإنسان وقواه ..

جاءت عقيدة الإيمان تعزّ الضعيف بعزة الله ، وتطامن القوى أمام جلال الله ، وجاءت شريعة الإسلام ترعى حق المجموع ولا تهدر اعتبار الفرد ، وتقرر المساواة ولا تغفل الحرية !

وقال الخليفة المسلم الصدّيق : « والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » !

فإذا ما دعت الضرورات التنظيمية إلى المساس بحرية الفرد من أجل حريات

الآخرين ، فما أسرع ما يعود الشرع إلى الأصل المقرّر فى الحرية — هذه الحقيقة الإنسانية الكبرى . . .

• قد يمس التشريع مال الفرد لصالح المجموع . . . فلا يكاد ميزان العدل يستوى حتى تعود للفرد حرماته وحرياته : « وإن تبتم ... فلكم رءوس أموالكم ، لا تَظلمون ولا تُظلمون » !

• ويعلن التشريع الحرب على الفئة الباغية صيانة لحق جماعة المسلمين . . . ولكنها ليست حرب إبادة واستئصال : « فإن فاءت ... فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » !

• وتقاوم دولة الإسلام المحاربين من المخالفين فى الدين ، فإن كفّوا عن العدوان عادت لهم حرماتهم الإنسانية مهما كانوا على غير دين الدولة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ... أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » !

فما أولى الأحرار بالاحتفال برسالة الحرية الكبرى . . . التى قد تغتفر للانسان أى شىء إلا أن يفرط فى حريته ؛ فهى إنسانيته وهى عقيدته فى الوقت نفسه . . .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ... »

أصول الحرية فى منهج التفكير الإسلامى

لكل نظرية أساس ... ولكل مبدأ قاعدة

هذه حقيقة واضحة لمن يراجع مذاهب العصر القائمة ، وهى حقيقة مهمة لما ينبنى عليها من أساليب العرض بالنسبة للمذاهب المختلفة .

● فالديمقراطية : تقيم مذهبها على (الحرية والمساواة) ، وعلى أساسهما تقيم الديمقراطية نظمها فى شتى الميادين – فى السياسة والاقتصاد والتعليم ... الخ .

● والشيوعية : تقيم مذهبها على نظريتها الخاصة فى (القيمة) ، وعلى (المادية الجدلية) ، وما تولد عنها من (مادية تاريخية) و (صراع للطبقات) ، وهى تطبق فلسفتها على العالم الزاخر بالمتناقضات ، الفائر بألوان الصراع ، فتخرج بتعاليمها فى حقل الإنتاج ، وما يترتب على معالجة حقل الإنتاج من آثار فى مختلف الحقول – حتى الفنون والآداب ! !

● والدين عموما – والإسلام خصوصا – له أساس وقاعدة ينبنى عليهما نظامه المحكم ، ولا بد من تبين هذه الحقيقة سواء بالنسبة لعرض الإسلام الفكرى ، أو تطبيقه العملى .

* * *

كل الناس يعرفون أن الدين عقيدة وشريعة ، أو إيمان وعمل ، أو عبادة ومعاملة ... إلى غير ذلك من المقابلات التى تميز بين شطر الأساس الفلسفى العقلى الذى يتقرر فى الذهن وتطمئن إليه النفس ، وشطر الأفعال البشرية التى يستجيب بها الإنسان لدواعى الحياة .

ولـكننا حين ندعو للإسلام أو نطبّقه ، نغفل عن هذه الحقيقة المهمّة ، فنقيم الإسلام فى أذهان الناس ، أو فى ميادين الحياة جزئيات وتفاريق ، منفصلة عن أساسها الاعتقادى الذى يثبّت أصولها وينظم مجراها ، ويحكم وضعها .

فقد يهتمّ دعاة الإسلام بأن يعرضوا شريعة الإسلام فى تنظيم الأسرة ، أو فقهه فى علاج شئون الدولة أو الاقتصاد ، ولـكن دون أن يصلوا هذا بأصل الإسلام الأصيل الذى يكفل — وحده — النجاح لنظامه ، ويميّزه عن غيره . وبغير هذا الأصل يغدو الإسلام مجرّد إصلاحات جزئية موضعية ، وميزات عارضة سطحية ، لا تمسّ جذور التـكوين النفسى العقلى للأمة ، ولا تصوغ روحها وقيمها ومفاهيمها وموازينها .. ومن ثمّ تختلط على الناس السبل فتفرّق بهم عن سبيل الإسلام ! ! !

فهذه الميزات التنظيمية التى تهدف إلى إقرار العدل وإشاعة الخير لا يخلو منها مذهب عصرى ... أفلا يحق للناس إذن أن يزهدوا فى الدين وتبعاته التى لا ينهض بها إلا الرجال أولو العزم ، وحسبهم أن تتحقّق لهم لماعة من زخرف المتعة تتخلّف لهم من الجرى وراء المذاهب السائدة هنا أو هناك ! !

وليس يعنى هذا ألا يتحدّث دعاة الإسلام عن نظم الإسلام السياسية والاجتماعية والاقتصادية ليجابهوا بها ما تصوغه المذاهب من أساليب الدعاية والإعلام ...

ولـكننا نرى أن يعرض نظام الإسلام ... مرتبطا بأساسه العقائدى

هذا الأساس المتميّز الذى أخرج أمة وصاغ حضارة . . .

هذا الأساس الذى مهما تناحرت المذاهب العصرية فى عرض التفصيلات والتفريعات ، وانتفعت من تجارب الإنسانية التاريخية الطويلة فى محاولة سدّ الثغرات والتماس الإحكام ، فسيبقى للروح الأصيل المهيمن على النظام الإسلامى تفرده وتميزه الذى لا يتطاول عليه فيه سواه !!!

فكما يعرض الديمقراطيون والشيوعيون وكل أصحاب المذاهب حلولهم وتطبيقاتهم الجزئية مشفوعة بفلسفاتهم وأصولهم (الجذرية) ، يجب على المسلمين أن يسلكوا هذا المسلك ويطبقوا هذا المنهج . . .

والمسلمون فى هذا لا يقلّدون . . . بل هم ينتفعون من هدى دينهم . فلم يكن عبثا أن أرست الديانات الإلهية المبكرة على أيدى رسل الله الأوائل قواعد العقيدة وحدها ، ولم تتعرّض للتشريع إلا بتدرّج يزيد من نصيب الأحكام على مرّ الأجيال وتتابع الرسالات حتى تبلغ الغاية فى الإسلام . وإن مقارنة ماجاءت به رسالات الله الأولى على قدر ما نعرفه منها ، بما أتى به محمد صلوات الله عليه وسلامه ينهض على هذه الحقيقة شاهدا ودليلا .

والاسلام نفسه حين بدأ ، ظل ثلاثة عشر عاما يثبّت قواعد العقيدة ، ومن بعدها بدأ الوحى ينزل بآيات التشريع . وما زالت عقيدة التوحيد الاسلامية هى أخصّ الخصائص التى يقوم عليها دين الإسلام ... وحضارة الإسلام ، ودولة الإسلام،وتاريخ الإسلام ... حتى آثار المسلمين المعمارية وزخارفهم الفنية ! !

فهل نغفل عن هذا الأصل الثابت ، والجذر الضارب ، حين نعرض الإسلام أو نحاول تطبيقه ؟ ؟

وهل نغفل عن لفتات القرآن ، وهو دائب يقرع أسماعنا بذكر العقيدة ... حتى فى معرض بيان أحكام المعاملات وسائر مجالات التشريع ؟ ؟

* * *

العقيدة فى الإسلام محدّدة واضحة منضبطة

وهى تتلخّص — كما أبان الحديث الشريف — فى : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ...

فهل هذا ما تراني قصدت التكليف بمداومة بيانه ، وربط الأحكام والنظم الإسلامية به ؟؟

إن الإيمان على هذا النحو ذائع شائع معلوم . . . فما الذي قصدته إذن أن يذاع ويشاع ويعلم ؟

إنما أقصد أن يبيّن للناس أمران :

• المنهج العقلي الذي سلكه الإسلام للوصول إلى تقرير عقيدته : لأنّ هذا المنهج الذي استخدمه الدين وهو بصدد تناول أخطر قضية في الوجود ، يعدّ منهجا نموذجيا ودستورا فكريا مثاليا ، يستمدّ منه المسلمون (تشكيلهم) الذهني و (تكوينهم) العقلي ، الذي على هديه يمارسون سائر قضايا الفكر والعمل

• النتائج المنطقية التي تترتّب على تقرير المسائل العقائدية البحتة في عالم الحياة العملية : فهذه النتائج هي التي تؤسّس عليها نظم الإسلام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

* * *

في الإسلام منهج عقلي لإثبات صحة عقيدته وإقرارها في العقول والقلوب ، هو تراث خالد ، وأساس ثابت لحضارة تقوم على تقدير العقل وتكريم الانسان .

إن المنطق الذي عرض به الله — جلا وعلا — دينه ، وحرص فيه على إيراد كل معارضة ، ومناقشة كل مخالفة ، ومناهضة كل نزوة ... هو منطق لم تصل البشرية في كفاحها الطويل المخضّب بالدماء إلى أروع منه في أمانة العلم وإحقاق الحق وتحرير الفكر !!!

وإذا كان الله — سبحانه — قد ضرب لنا المثل الأعلى ونحن نستقرىء في القرآن نقد المخالفين ونستجمع قلق المرتابين ، ونتعقب هذا كله بالبحث والتمحيص ... أفليس أولى بالبشر أن يتبعوا أصول عن هذا المنهج الرصين ! !

ولقد بلغ من أمانة عرض القرآن لدعاوى المعارضة ، أنك لو فكرت اليوم في كل ما يهاجم به الدين من صور البيان ، لما خرجت بجديد في عصر (العلم الذرىّ) عما جاء به هذا الكتاب منذ أربعة عشر قرنا ! !

إن خطاب القرآن ... كله تكريم للانسان والإنسانية ، وتقدير للعقل والعلم ، وإقامة للبرهان والمنطق ، ودعوة لإعمال الفكر والفقه والتّدبر

وإن خطاب القرآن ... كله هجوم على الانقياد لهوى النفس ، وإيحاء العرف والتقليد ، وقهر السلطة ... إنه استنهاض لحيوية الإرادة الإنسانية التي بها يغدو الإنسان قوة إيجابية فعالة ، وليس مجرد أداة سلبية كما في عالم الجماد وفي كثير من عالم الحيوان ! !

هل استطرد إلى الآيات التي تعزّز هذا ، وهي مقروءة محفوظة متداولة ...؟؟

حسبي أن أشير إلى هذه الآيات من « سورة الأعراف » ...

• إنها تقيم في نفس كل فرد شاهدا من عقله ووعيه على قضية العقيدة ، وتقطع عليه طريق الاحتجاج والتنصل :

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا : يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ! ! ! وكذلك نفصّل الآيات ، ولعلهم يرجعون » ! !

• ثم تستطرد الآيات ... ترسم صورة منيرة لمن يؤثر المروق من حصانة العقل إلى نزوات الهوى ، ويختار التمرّغ في مواخم الضلال :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها . فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب — إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا ، فاقصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذّبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون » ! !

• ثم يصوّر القرآن هذا الذى ظلم نفسه ، فعطّل فيها كل أدوات الاستدلال وأجهزة الاستقبال :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ! !

• وتقرأ فى الآيات التالية بعد ذلك :

« أو لم يتفكّروا ، ما بصاحبهم من جنّة ، إن هو إلا نذير مبين » !

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون » !

« يسئلونك عن الساعة : أيّان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربى ، لا يجلّيها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة — يسألونك كأنك حفىّ عنها ، قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

« قل : لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنىّ السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ... » !

« أيشركون ما لا يخلق شيئا ، وهم يخلقون ؟ » !

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم — فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » !!

هذه قطعة واحدة ،من سورة واحدة ،من السور المكية فى القرآن ...

إنها إذ تقيم عقيدة الدين ، إنما تقيم البناء العقلى لكل فرد من أفراد الأمة...

إنها تميز (العقل المؤمن) بصورة تناقض ما يشغب به المهوشون ... إنه العقل الذى راضه القرآن — بتقريراته ومحاوراته وسائر صور بيانه — على : النشاط ، والحياد ، والحرية !

واقرأ إن شئت الوعيد لمن حجروا على عقولهم فى سورة سبأ :

« ... ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم الى بعض القول - يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ! قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين اوقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . . . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا - هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » !!

وتستطرد سورة سبأ - وهى مكية أيضا - تعدد صور الذين جحدوا نعمة العقل التى حباهم بها ربهم :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » !

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات،قالوا:ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان

يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » !

« قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة — إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » !

« قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد . قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » !

* * *

وإذ يسرى هذا المنهج الجدلى البرهانى فى خلجات النفس وبين ثنايا العقل ، ويتفاعل مع الفرد والمجموع ، وينتقل خلال الأجيال ، فان فلسفته تسكب روحها فى كل ميدان ، وتطبع بطابعها طرق التربية فى الأسرة ، وأساليب التعليم فى المدرسة ، وألوان النقاش فى البرلمان والصحافة ...

فتصبح عقيدة الإسلام منبع تخريج الأحرار أولى الألباب

وتغدو أمة الإسلام أمة العقل والعلم ، أمة الحجة والدليل ، أمة الحق وحده

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » .

* * *

وحين تستقر عقيدة الإسلام خلال هذا المنهج الحكيم فى القلوب والعقول ، فإن هذه العقيدة تشر نفائحها فى الفكر والعمل .

إن عقيدة الإسلام ليست مناقشة مشكلة ميتافيزيقية باردة ، أو مزاولة عملية تجريبية جامدة ، أو حلّ مسألة حسابية جافة . . .

إن تأليه الله وإنكار ألوهية من سواه ، يعنيان تحرير الفرد والمجموع من ألوهيـة الأهواء والتقاليد والطغيان ...

● فالله وحده هو الذى يمتلك حق التشريع الأصيل الذى لا يردّ : « إن الحـكم إلا لله » ، « ألا له الخلق والأمر » ؛ وكل من عداه محكومون بأصول دينه وشريعته : « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ...

● والله وحده هو الذى لا يُحاسب ولا يُحاكم : « لا يُسئل عما يفعل ، وهم يسئلون » . .

● والله وحده هو المتفرّد بخصائص يستعلى بها على من سواه ، فهو الخالق ومن عداه يستوون فى أنهم مخلوقون ، وهو المعبود والجميع سواء فى عبادته « ليس كمثله شىء » وهو وحده « الـكبير المتعال » ، « العزيز الجبار المتـكبر » ...

● والله وحده هو المالك لخزائن السموات والأرض ، لـكن الناس محاسبون على تداول رزقه وفقا لشرعه : « وأنفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه » ، « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ...

وهكذا تثمر عقيدة الإسلام نتائج ، تعتبر أصولا سياسية واجتماعية واقتصادية لنظام الإسلام وشريعته ... وهو ما يعبر عنه المودودى فى « نظرية الإسلام السياسية » بأجلى بيان حيث يقول :

« والذى ينبغى أن نعرفه قبل كل شىء ولا نغفل عنه أبدا ، أنّ الإسلام

ليس بمجموعة من الأفكار المبعثرة وطرق العمل المتفرقة ، بل هو نظام جامع محكم أسس على مبادىء حكيمة . وأركانه الكبيرة المهمة إلى الجزئيات الصغيرة الدقيقة كلها ترتبط بتلك المبادىء ارتباطا منطقيا ، وكل ما وضع فيه للحياة الإنسانية لمختلف شعبها من النظم إنما قد أخذ روحه واقتبس جوهره من تلك الأصول الأولية ...

ماذا كان يريده الأنبياء بتوحيد الإله ؟ وما معنى عبادة الواحد الأحد وحده ؟ وماذا كان وراء قولهم : ما لكم من إله غيره ؟ وما بال من مضوا من الأمم كلما جاءهم رسول يدعوهم إلى عبادة الله الواحد واجتناب الطاغوت انقضوا عليه ؟ ... أتراهم قد أصيبوا فى عقولهم ، حتى يمنع الحكام رعاياهم الوفية المطيعة عن إتيان الفروض والمناسك وهى شعائر لا تضر بمصالحهم ؟ ؟

إذا نظرت إلى المجتمع الإنسانى استيقنت أن منبع الشرور والفساد الحقيقى إنما هو (ألوهية الناس على الناس) ، إما مباشرة وإما بواسطة . . . وقد بينت التجارب التاريخية أن الإنسان لا يعيش من غير أن يتخذ لنفسه إلها وربا ، وإن لم يرض بالله ربا وإلها ، فحينذاك يتسلط عليه جنود مجندة من الأرباب والآلهة الباطلة !

وحيثما وجهت نظرك وجدت أن أمة اتخذت نفسها إلها لقوم آخرين ، أو طبقة سلطت ألوهيتها على طبقات أخرى ، أو حزبا سياسيا استولى على مناصب الألوهية والربوبية واستبد بها ، أو تجد مسيطرا ينادى الملأ (ما علمت لكم من إله غيرى) !

وليس لهذا الداء من دواء إلا أن يقوم الإنسان فيكفر بالطواغيت جميعا ،

ويؤمن بالله العزيز الذى لا إله إلا هو ، ويخصّه تقدّست أسماؤه بالألوهية والربوبية، فهذا هو الطريق الوحيد لنجاة البشر من براثن ذئاب الإنسانية وقطّاع سبيل البشر ! وهذا هو الصلاح الحقيقى الذى ظهر فى المجتمع الإنسانى على أيدى رسل الله الكرام ، وهذه هى النظرية الصالحة التى بعث بها الأنبياء إلى الناس »!!

* * *

إن الدين ليستقيم أمره فى العقول والقلوب إذا سار دعاته على هذا النهج ، وربطوا نظمه وشرائعه بفلسفته الاعتقادية فى أصولها المنهجية ونتائجها الفكرية .

فهل نتبيّن معالم الطريق . . .

وهل نجادل فى الله . . . على علم ، وهدى ، وكتاب منير ؟ ؟

تبياناً لكل شيئ ... من رب كل شيئ

اختتم عام ١٩٦١ من ميلاد المسيح ، بحدث دينى ضخم فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، فقد انعقد مؤتمر دينى عدّته مجلة « تايم » الأمريكية أضخم اجتماع مسيحى منذ القرن السادس عشر ! ! !

لقد كان الانعقاد الثالث للمجلس العالمى للكنائس فى دلهى عاصمة الهند . وقد أعرب أحد أقطابه : الرئيس (هنرى تينى فان دوزن) عن إيمانه بأن هذا الاجتماع سيعدّ بحق :« أحد الأحداث المبكرة فى ثانى إصلاح كبير فى المسيحية» !!!

لقد أخذت كل الكنائس تحسّ بالحاجة إلى تعبئة الجهود ، وتنسيق الخطط، وتعاون القوى ... للانطلاق ! ! !

الكنائس الأرثذوكسية اجتمعت فى رودس...والبابا يوحنا يؤمل فى وحدة الكنيسة ، ويسير إلى الأرثذوكسية الشرقية والبروتستنتينية الغربية بروح من المودة . . . أما البروتستنتينية فى أمريكا فتريد أن تجمع هى الأخرى شتاتها ...

وفى هذه الظروف جاء اجتماع دلهى ، وهو حدث ينبغى أن يدرسه دعاة الأديان فى كل مكان . . .

لقد اجتمع ٥٧٧ مندوبا ،ليحاولوا تحديد إطار للمسيحية غير الكاثوليكية ، وتناقشوا ١٨ يوما متابعة ... وقد أرسل الفاتيكان لأول مرة مراقبين عنده إلى هذا الاجتماع « بصفة رسمية » !

وكان أكثر الموضوعات التى ألقيت أصالة واستثارة ماقدّمه الدكتور (يوسف

سيتلر) أستاذ اللاهوت فى كلية الإلهيات بجامعة شيكاغو . . .

● إنه يرى أن الشيوعية : ليست مادية صرفة ... إن الذى هيأ للشيوعية فرصة هو اتجاهها لإعطاء كل شىء « قيمة » و « هدفا » ، ووضعها إياه فى مكانه من النطاق الضخم لمجموع الإنسان والعالم ! !

● وعلى العكس من ذلك ، يرى الدكتور سيتلر أن المسيحية : قد تضاءلت وانحسرت ، حتى لم تعد أكثر من سناد للعجز ، وقرين للوحدة ، وخادم سماوى للأغراض القومية المحلية !

● وهو يرى أن الذى تحتاجه المسيحية : نظرة توجيهية شاملة ، أصدق وأوسع وأثبت من النظرة الماركسية ، مع روحانية فى الأعماق تنير الطريق : « فى مجالات الاقتصاد ، والسياسة ، وشتى مجالات النشاط الإنسانى » ! !

إن الدكتور سيتلر يريد « مسيحية عالمية إيجابية فعالة » Cosmic Christology ، لا يوضع فيها المسيح ضد الواقع وضد مجرى الطبيعة ! إن الذى كان لدى المسيحيين هو مسيحية (التاريخ) ، لكن الذى يحتاجونه هو مسيحية (الطبيعة) ! !

وقد أثارت كلمات الدكتور سيتلر جدلا كثيرا . . .

وتمسك هو بالدعوة الحارة إلى الوحدة : « إن الكنيسة قد وجدت كثيراً من الطرق (المستيرية) للتعبير عن خلافاتها ، ولكنها وجدت طرقا أقل للتعبير عن وحدتها ! ولكن إذا دعونا حقا إلى الوحدة ، وإذا استجبنا لهذه الدعوة فى صورة مسيحية عصرية تتسع لتستوعب نظرة الإنجيل الشاملة ، فقد يكون من الجائز أن نلتقى بعد ذلك على وحدة أكمل ، لأننا سنكون أهلا لتوفيق الله » ! !

وقد وضع المؤتمر قراراته التوجيهية التى شملت كل شىء ... من الاستعمار البرتغالى فى أنجولا إلى الاعتراف بالصين الشيوعية عضوا فى الأمم المتحدة !

ودعا المؤتمر إلى أن تكون الكنائس على وعى كامل بالتغيرات الاجتماعية وأثرها فى الحياة المسيحية ، وأهاب بها أن تكافح بجدّ فى سبيل المساواة بين الأجناس ، وحثّ الشعوب الغنية على مساعدة الشعوب المحرومة ، كما استنهض همم المسيحيين للعمل من أجل قيام المنظمات السياسية التى تشجع اشتراك كل المواطنين فى الحياة السياسية ، والتى تحمى كلا من حرية الفرد فى ضميره وحريته فى تعبيره .وقد كانت توصيات المؤتمر قوية فىصدد الدفاع عن الحريات الإنسانية، وأنذرت أنّ أيّة حكومة لا تستند إلى رضاء المحكومين لا يمكن أن يؤيدها المسيحيون فى هذا العصر ! ! !

* * *

يفعل هذا دعاة الدين الذى قال داعيته الأول : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » !

فماذا يفعل دعاة الدين الذين يقرأون : « ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ! !

لقد فصلت أوربا بين الدين والدولة ... فماذا كانت النتيجة ؟ ؟

يقول روجيه باستيد R. Bastide فى كتابه مبادىء علم الاجتماع الدينى :

« ... مع أنّ التفرقة بين الهيئات الكهنوتية وبين الدوله قانون مطرّد ، فهناك طغيان متبادل بين هاتين السلطتين عندما تكونان منفصلتين . وهنا يجب علينا أن نفحص ثلاث حالات :

أولا — طغيان الكنيسة : التى تطالب بنصيب فى التشريع ، وبالحصانة من توقيع العقوبات ، والتى تكرس الملوك ، وتخلق الأحزاب السياسية

ثانيا — طغيان الدولة : التى تحلّ الهيئات الدينية ، وتنص على عدم مشروعية نظام الرهبنة

ثالثا — ويوجد أخير طغيان غير شعورى : ينجم عن هذا الأمر ، وهو أنّ نفس الأفراد ينتمون فى آن واحد إلى كلتا الناحيتين، وأنهم يجدون مشقة كبيرة فى تقسيم نشاطهم قسمين » ! !

هذا رأى علم الاجتماع ، وعلمائه الغربيين ..

وقد عالجت فى كتابى الأخير : « مع المسيح » قضية « الدين والدولة » فى ضوء تعاليم المسيحية . . . . وكان مما قلته فى ذلك :

« ... والكنيسة فى الغرب كثيراً ما تتدخّل فى شئون السياسة ، وهى ما برحت حتّى اليوم ذات تأثير كبير — فى بعض الدول على الأقل . وقد تولّى أسقف مسيحى أخيرا رئاسة السلطة الزمنية فى قبرص دون أن يخلع رداء الكهنوت، والاتجاه المسيحى يلوّن النزعة الاشتراكية عند بعض أحزاب ألمانيا وانجلترا وبلجيكا الاشتراكية والديمقراطية ، ويبدوا أثر الدين واضحا فى كتابات تشرتشل وأتلى وأيزنهاور ودلاس ... وعندما أتيحت للمسيحية فرصة الإفادة من السلطان لم تتردّد — فى الدولة الرومانية الشرقية أو فى الدول الأوربية فى الغرب . . . وقد تحمس الأباطرة البيزنطيون منذ قيام ليو الثالث رأس الأسرة الإيسورية سنة ٧١٧ م لنزعة فى الدين عرفت باللاصورية Iconclast ، وسعى الأباطرة لفرض هذه الفكرة ومحاربة مخالفيها بكل سبيل ... وجرى الصراع بين البابوية وبعض رءوس السلطات الزمنية فى أوربا ، وكان الفصل الظاهرى الرسمى لسلطتى الدين والسياسة يحمل معه أسس النزاع حول سيادة أيهما على الأخرى » !

* * *

والمسلمون اليوم . . . . عليهم أن يكونوا على وعى بيّن بتطوّر الأمور فى أرجاء العالمين :

• والحقيقة الأولى التى ينبغى أن يعوها جيداً : أنّ فى العالم مجاعة روحية، وحنيننا إلى العودة إلى الدين، وإلى تغشية كل مجالات الضمير والسلوك والتنظيم بهذه الهداية السابغة الرحيمة

• والحقيقة الثانية : أن الفصل الظاهرى بين « الدين والدولة » فى تاريخ المسيحية، ينبغى أن يدرس فى ضوء حقائق التاريخ وعلمى النفس والاجتماع، وينبغى لدعاة الإسلام أن يتابعوا أحدث ما يقوله فلاسفة المسيحية فى هذا العصر عن هذا الموضوع ....

فهل نقدر الأمانة ... وننهض بعبء الرسالة ؟ ؟

هل نعى دقة موقفنا فى هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الحضارة الإنسانية ؟ ؟

هل ندرس ما يسمى « بالاستراتيجية الإيديولوجية » فى صراع الأفكار والمذاهب ؟ ؟

إننا نقدّس دستورنا الخالد، الذى لم يفصل بين النظام والعقيدة وبين الجسد والروح، وبين الأجهزة الحاكمة الضابطة والروح الموجهة ... ولا نفتأ نبدأ ونعيد فى شمول القرآن، وإحاطة القرآن، وعلاج كل الأمور فى القرآن !!

وتدخل هذه الحقيقة إلى أذهاننا . . . . لتعيش على وفاق عجيب ووئام منكر مع متناقضات كثيرة فى أذهاننا وسلوكنا وواقعنا ...

• منها : أن للدين صلة بين العبد وربه فحسب ...

• ومنها : أن الدين ينحسر فى هذا العصر ... وأنه قد انحسر تماما فى الغرب ...

• ومنها : أن أصول الدين نفسه .... تبرّر هذا الانحسار ! !

وأقوم سبيل للاحتفاء بدستورنا (للقرآن) : أن ندرس موقف « الدين » فى العالم ، وموقف « الإسلام » بين الأديان ...

وأذكر هنا كلمات منيرة هادية ، للأستاذ الدكتور محمد البهى ، فى كتابه « الفكر الإسلامى الحديث » :

« إن رجال السياسة فى الغرب عامة يعرفون جيداً الثمن الذى دفعوه للفاتيكان مقابل تأييده للحلفاء ضد النازية والفاشية فى الحرب الأخيرة ، ويعرفون جيدا الثمن الذى يدفعونه الآن لقاء تعضيده مقاومة الشيوعية فى العالم المسيحى . . . والتاريخ السياسى الحديث لم يزل يذكر ثورة الأرجنتين على ديكتاتورها السابق عندما شق عصا الطاعة على رجال الكنيسة الأرجنتينية . ومع أن (مثنوية) الإنسان التى قام عليها الفصل بين الدين والدولة تعتبر فكرة غير سليمة من الوجهة العلمية ، وغير عملية من الوجهة التطبيقية — فإن دعاة (التجديد) فى الفكر الإسلامى الحديث لم يزالوا يرونها (تجديدا) لأنّ الغرب المتحضّر قال بها يوما.!

إن تجديد الشرق فى الفكر الإسلامى الحديث ، تقليد لفكر الغرب فى القرن التاسع عشر ... تقليد لفكر إنسانى انكشف ضعفه وهواه ، وانتهى أجله واعتباره . . إنه الشرق يستورد ولا يخلق . . هل نرجو الآن أن يكون قد وعى ، وأن يخلق لبينى ، ثم يورد لغيره كما كان ؟؟ »

أدعو الله ... أن يحقق الرجاء !

من وحى الله... لا من صنع البشرية

من وحى السماء لا من صنع الأرض . . .

ذلكم هو نظام الإسلام . . .

وآية ذلك أن النظام الإسلامى عبر القرون ليساير الاتجاه العالمى الآن نحو الاشتراكية — مع تميّز وأصالة ، فى حين أنه نزل فى عصر الرق ، وهذه طفرة لا تتأتى إلا لنظام ربانى ! !

والدارس للبيئة العربية ، بل للفكر المتداول فى العالم المعروف وقت الجاهلية ، يجد أن الأفكار الإسلامية لا يمكن أن تكون نتيجة الظروف الاجتماعية والفكرية القائمة وقتذاك .

ونحن نستطرد على هامش تلك الحقيقة . . . . لنثبت الفكرة ، ونسوق المثل والأدلة .

● عالمية وإنسانية :

عاشت الأمة العربية فى جاهليتها على العصبية التى تفرق بين الشمال والجنوب ، بل بين القبيلة والقبيلة ، بل بين الأفخاذ والبطون فى القبيلة الواحدة ! وكان العالم كله فى ذلك الوقت حديث عهد بالأوطان الصغيرة والنزعات المحلية والآفاق الضيقة ... وكان توسيع الرقعة وتكوين الإمبراطورية لاينجح أحيانا فى (تذويب) شخصية بعض البلدان المقهورة والشعوب المغلوبة بحال من الأحوال .

وفى هذه الظروف .... يأتى الإسلام ليجعل وطنه فى جميع العالم ، ويجعل أمته

مشاعة بين كل الأجناس . فباستثناء أمتار مربعة من الأرض فى مكة — هى البيت الحرام ، وأمتار أخرى فى المدينة — هى المسجد والروضة النبوية المطهرة ، وأمتار فى ثالث الحرمين — فى المسجد الأقصى ... باستثناء هذه المواضع الثلاثة ، كل الأرض سواء وجميع الأوطان سواء ، والأرض كلها جعلت مسجداً وطهوراً .

والدنيا بتخومها الجغرافية وحدودها السياسية لا تصلح لأن تكون سبباً للنزاع ، وأساساً للعواطف الموضعية المحدودة ، فكلها تشترك فى صفة « الأرض » .... لذلك ترد هذه الكلمة كثيراً فى سياق القرآن لتذكر الناس بحقيقة الوضع : « يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون » ، « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . وهكذا تصبح الأرض مسرحاً للنشاط البشرى كوحدة ، تتداول عليها الأجيال دون أن تتعقد النفوس حول تضاريس الطبيعة وفواصل السياسة !!

وأبناء الإسلام فى حركة قد تدعوهم إلى الهجرة ، فالأرض كلها سواء : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة » ! فلا يصح أن تحتجز المسلم أرض عن أرض : « ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » ؟! وفى الحج تدريب على إجبارى على تغيير الأرض وهجرة الوطن إلى أرض لا تقصد من أجل سياحة أو متعة ، حتى لا يكون المسلم أسير إلف ولا عادة : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ، وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها — أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد

فى سبيله ،فتربّصوا حتّى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » !

والقانون الدولى فى الإسلام لا يعرف التقاسيم الجغرافية والسياسية ، إنما يعرف أنّ الأرض كلها سواء . . . وهى محكومة بحكم العقيدة التى تنفسح لكل أرض وتنفسح لها كل أرض ، فهى إما دار حرب أو دار سلام ، ثم هى محكومة بحكم العهود والعقود !

ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم غرس هذه العالمية بسيرته ... فهاجر إلى «المدينة» رغم نشأته فى «مكة» وحبه لها ، وقد أرسل الوفود لكل حاكم معروف فى وقته . وحين هزم المسلمون فى أحد ، لم يشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدع هؤلاء المسلمين للحقد والضغينة والطيرة — ولو بالنسبة لشبر من الأرض ، فقال:« إن أُحُداً يحبنا ونحبه » !

ومن مقتضيات العالمية : « الإنسانية » . . .

والإسلام كان إنسانياً لأنه لم يقدّس جنساً ليسود على سواه، كما لم يقدّس أرضاً إلا فى أضيق نطاق: « كلكم لآدم وآدم من تراب».... واختلاف الشعوب والقبائل إنما هو من أجل التعارف والتعاون والتكامل: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »!

وحلقة الإسلام الأولى كانت « عصبة أمم » ، ففيها:عرب من أنساب وقبائل مختلفة ... وفيها : صهيب الرومى وبلال الحبشى وسلمان الفارسى ، وما أكثر الأحاديث فى فضل هؤلاء من غير العرب !

واذا كان الإسلام قد كرّم الجيل الأول من المؤمنين المشهود لهم بحسن البلاء والمبشّرين بحسن الجزاء ، فهذا الجيل الأول ممن صحبوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فيهم مختلف الأجناس والألوان !

وإذا كان الله قد اختار العرب ليكونوا حملة رسالته ، فإن هذا يقطع بأفضليتهم لهذا العبء والتشريف ، ولكنه لا يعنى أن تكون هذه « الميزة التاريخية » ضربة لازب فى كل حال وفى كل حين !

وإذا كان الله قد اختار العربية لتكون لسان دينه الأخير ، فإن الإسلام قد فتح الباب لتعلمها على مصراعيه ، حتى تصبح العروبة لوناً ثقافياً ، لا عصبية دموية !

ولقد كان انتصار الإسلام ، انتصاراً للحق المطلق الذى قامت به السموات والأرض فى كل زمان ومكان ، لا انتصاراً لأرض على أرض ولا لشعب على شعب . .

وعمر بن الخطاب الذى أوصى واليه عمرو بن العاص بسكان مصر ، لم يكن عمر العربى الذى لا يأبه بما تصيبه يدا عمرو العربى ما دام يكسبه من غير العرب ، وما دام يحكم قطراً غير جزيرة العرب !

هذه عالمية ، وهذه إنسانية .... ليس فى وسع عقل أن يلحقهما بالفكر البشرى فى وقتهما ، وقد كان لا يعرف إلا العصبية !

إنها تقدمية تساير القرن العشرين ... الذى يبشر فيه بالعالم الواحد والأسرة الإنسانية .. مع فارق واحد، هو الفارق بين الحق والباطل ، وبين الإخلاص والخداع !

فالعالمية ، والإنسانية ، قامتا فى الإسلام فى ظل عقيدة تنير الضمير وتكون الضمان ، والعالمية والإنسانية الآن صيحتان لتبرير الاحتلال والاستعمار ، حتى تنسى المظالم فى بحار العالمية .... وما أكثر ما يكون دعاة العالمية من غلاة الوطنية فى أضيق وأسوأ مفاهيمها ! !

• الحرية . . . لا الرق :

والأمة العربية عاشت فى جاهليتها وهى تقرّ الرق فى أوضاعها الاجتماعية ، وقد قامت عليه حياتها الاقتصادية . والعالم كله جرى على الاسترقاق فى الحروب إبان ذلك الوقت .

والإسلام يأتى ليقول إن الحرية أصل والرق عرض

ويجعل النص الصريح فى معاملة الأسرى المنّ والفداء

ويجيز الاسترقاق على قاعدة المعاملة المعاملة بالمثل ، لأن هذا كان هو الوضع العالمى وقتذاك . . .

وهو يضيق مصادر الرق حتى يقصر على الأسر فى حرب شرعية ، ولا يجيز واجب الحكومة النخاسة والخطف ... وهو كذلك يوسع مصارف الرق فيجعل تحرير الرقاب من فى حصيلة الزكاة : « وفى الرقاب » ، ويجعل تحرير الرقاب شريعة على المحكومين فى الكفارات والقربات ، ويدفع الرقيق إلى العمل على التحرّر دون أن ينتظر أن يأتيه ذلك من (أعلا) ؛ فله أن يتفق مع صاحبه على أن يعتقه ويدفع له مالا ويسمى هذا بالمكاتبة ، وللإمام أحمد فى رواية أنها واجبة متى دعا الرقيق سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر ، وللرقيق الاتجار والكسب ليدفع للسيد الأقساط ، وعلى السيد أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء ، والمالكية تجبره على الكسب ليتحرر مادام قادراً عليه إذا لم يكن معه مال ، والحنفية تجبره على أداء مال المكاتبة إذا امتنع عن السداد وكان معه مال . ويشترط الفقهاء أن يراعى فى عقد المكاتبة حال الرقيق ، كما يرون أن أقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضرورياً[1] !

---

(١) الإسلام دين الفطرة — عبد العزيز جاويش .

وما يتبقى بعد ذلك من رقيق «شكلا»...فإن الإسلام يلغى رقّهم موضوعاً ، إذ يمنع من إرهاقهم بالعمل ، ويأمر بمعاونتهم فيما يغلبهم ، وينهى عن إيذائهم حتى بكلمة «عبد» أو «أمة» ، ويجعل لهم لباساً وطعاماً كطعام السيد ولباسه ، وبذلك يصبح الرق مغرماً لامغنما ! وإيذاء المملوك بعد ذلك كفارته العتق وحده دون أى شىء آخر !!

وحاشا للإسلام وقد ضمن للرقيق هذا العيش الرغيد ، وضيّق الحدود على الاسترقاق ، أن يجيز الرق كمبدأ وكقاعدة .... واستمع معى إلى علماء المسلمين يقررون ذلك :

يقول النسفى فى تفسير قوله تعالى « ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة » : « قيل لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء ، لزمه أن يدخل نفساً مثلها فى جملة الأحرار ، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، من قِبَل أنّ الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرقّ أثر من آثار الكفر ، والكفر موت حكما : (أو من كان ميتاً فأحييناه) »[1] .

ويقول الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم فى حكم الوقف : «قال أبو يوسف: يزول ملك الواقف بمجرد القول قياساً على الإعتاق بجامع إسقاط المال فى كلٍّ . وقال محمد: لا يلزم الوقف إلا بالتسليم إلى المتولى قياساً على الصدقة المنفذة بجامع التبرع فى كلٍّ . ولا وجه لقياسه على الإعتاق، لأن الإعتاق إتلاف للمالية وإرجاع للشىء إلى أصله ، إذ الأصل فى بنى آدم الحرية ، وأما الأموال فإنها خلقت لتملك وينتفع بها»[2] !!

واتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد إنسان غلام بالغ عاقل ، وادعى عليه أحد

---

(١) حـ ١ ص ١٨٩ — طبعة الحسينية (٢) المعاملات الشرعية المالية ص ٣١٤

أنه عبده فكذّبه الغلام، فالقول للغلام مع يمينه بأنه حرّ ! وبتطبيق القاعدة المشهورة: « البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر » تجد أن الشرع قد اعتبر أنّ حرية الإنسان هي الأصل وأنّ الرق أمر عارض ، فكلّف من ادّعاه بالبيّنة واكتفى ممن أنكر باليمين! أضف إلى ذلك إجماع الفقهاء على أنه إذا التقط شخصان لقيطاً، فادّعى مسلم أنه عبده ، وادعى كافر أنه ابنه ، فإنه يقضى ببنوّته للكافر حتى يكون حرّاً ، ولا يقضى للمسلم حتى لا يكون رقيقاً » [1] !!!

فهل يمكن أن يكون هذا التشريع من نتاج عقول البشر في عصر الرق ! ؟

إن فلسفة العصر كانت تقسيم الجنس البشرى إلى : « حرّ بالطبع » و « رقيق بالطبع » . .. فما أبعد الفرق ، ثم ما أبعد الفرق !

- فإذا انتهت طريقة الإسلام التشريعية في التدرج بالإنسانية إلى أن يقلّ الرقيق بتضييق موارده ، ويزيد العتق بفتح أبوابه ....

- وإذا تغيرت القاعدة الدولية في الاسترقاق ....

- فإن القاعدة الشرعية المقررة المقررة في اعتبار الرق أمراً عارضاً هي التي تكون محل التطبيق ، وتتعامل دولة الإسلام مع غيرها على أساس المقابلة بالمثل بعد زوال عرف الاسترقاق في الحروب .

وفي هذا الضوء يفهم الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر وصححه السيوطي في الجامع الصغير : « شر المال في آخر الزمان المماليك » !

(١) الاسلام دين الفطرة : ص ٦٢ ، والنظم الإسلامية لحسن وعلى ابراهيم : ص ٣٦٥

• تكافل اجتماعي ... لا طبقية :

وفى عصر الرق ، يتخطى الإسلام العصر ، بل ويتخطى عصر الإقطاع وعصر الرأسمالية من بعده ليساير الاتجاه الاشتراكى !

فهو يعتبر الملكية وظيفة اجتماعية، وليست تسلطاً وتجبراً ... يقول تعالى فى سورة الأنعام : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم » ...

« فالله حين مايز بين الناس فى درجاتهم ، فإنما كان هذا من أجل ابتلائهم واختبارهم ، لا من أجل تأبيد التفرقة بينهم ، وإقامة الفوارق الجائرة الجامدة بين طبقاتهم . فمن أوتى مالا فهو مطالب بأن يؤدى واجبه إزاءه ، ومن حرم المال فهو مطالب بأن يطالب بحقه ويبتغى من فضل الله. وبذلك تتساند القوى فى إقامة صرح الحياة ، ويتعاون رأس المال مع العمل على أساس من الاشتراك فى الغنم والغرم ، فيندفع تيار الحياة الاجتماعية وتستمر حركة تداول الثروة ، كما يسير التيار الكهربى بين الموجب والسالب . وصدق الله العظيم . « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم»

أما أن تتحكم طائفة فى احتجاز الثروة ، وتستهلك طائفة فى الحرمان ، فإن معنى هذا مخالفة خطيرة لمقصد الشارع من تباين درجات الناس ، وتجميد الطبقات القائمة ، وتضييق لمجال التداول والنشاط الاقتصادى . فينقسم المجتمع قسمين : أحدهما قسم موجب مكتظ الخزائن ، والآخر سالب معروق الأبدان — دون أن يتصل التيار الاجتماعى بينهما بما يحقق التوازن وينير الحياة ! وفى هذا الضوء يصدق ما قاله الأستاذ الدكتور محمد صالح رحمه الله : « ... التكاليف التى فرضت على المالك تجعل من الملكية وظيفة اجتماعية ، إن لم يضطلع بها المالك على هذا الوجه زالت ملكيته [1] » .

(١) بحث المؤلف « الإسلام وتحديد الملكية » — الجامعة الشعبية

والتكافل الاجتماعي له سنده الإسلامي فيما يتعلق بمرافق الإنتاج وبضرورات الاستهلاك... فمن ذلك ما رواه أحمد وأبو داود عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «المسلمون شركاء في ثلاثة: الماء، والكلأ، والنار». وروى البخاري عن جابر ورافع: «من كانت له أرض فليزرعها، أو ليمنحها، فإن أبى فليمسك أرضه».(٢) ومن ذلك ما رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له — فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لاحق لأحدنا في فضل».

وأخرج الطبري عن حبيب بن أبي وائل: قال عمر بن الخطاب: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين». كما قرر عمر ابن الخطاب فيما أخرجه الطبري عن السائب بن يزيد أنه ما من أحد إلا وله في مال الدولة حق يتقاضاه وفقاً للقرآن والسنة، «فالرجل وبلاؤه، والرجل وقدمه، والرجل وغناؤه (كفايته)، والرجل وحاجته»!

ومن كلام عمر يظهر أن الدولة الإسلامية كانت هي التي تلتزم إقرار التكافل الاجتماعي باعتبارها تمثل المجموع ... لذلك جرد أبو بكر الصديق الجيوش الجرارة في أدق ظروف الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، دفاعاً عن الزكاة حق الفقير!

ونسوق إلى القارىء كيف فهم فقيه من القرن الخامس الهجري نصوص الإسلام هذا الفهم التقدمي العظيم ...

---

(٢) روى مثله مسلم عن أبي هريرة، وأورد أحاديث في هذا المعنى أبو داود والنسائي. وهذه حجة للمبدأ الذي يقول: الأرض لمن يزرعها.

يقول الإمام ابن حزم فى كتابه « المحلى » :

« وفرض على الأغنيـاء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ،إن لم تقم الزكوات بهم ، ولا فىء سائرأموال المسلمين بهم . فيقام لهم : بما يأكلون من القوت الذى لابدّ منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يـكنّهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » !!

ويستعرض ابن حزم نصوص القرآن ، ثم يستعرض نصوص الحديث،ويعلق عليها بما يدعم به هذا الرأى .... فيروى بالسند الصحيح : « من لا يرحم الناس لايرحمه الله » ثم يقول : «ومن كان على فضلة ، ورأى المسلم أخاه جائعاً عريان ضائعاً فلم يغثه ، فما رحمه بلا شك » !!

ويروى أيضاً بالسند الصحيح عن عبد الرحمن بن أبى بـكر الصديق : « أن أصحاب الصفة كانو ناساً فقراء ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » !

ويروى كذلك : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » ثم يقول : « من تركه يجوع ويعرى — وهو قادر على إطعامه وكسوته — فقد أسلمه » !!

إلى أن يقول ابن حزم : «والنصوص من القرآن والأحاديث تـكثر جداً »!!

ثم ينقل ابن حزم عبارة عمر : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ... الخ » ويقول عن إسنادها : «وهذا إسناد فى غاية الصحة والجلالة » ...

وينقل عن على بن أبى طالب بسنده : « إن الله تعالى فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يـكفى فقراءهم ، فإن جاعوا أو عروا فبمنع الأغنياء ، وحق

على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذّبهم عليه » !

وعن ابن عمر : « فى مالك حق سوى الزكاة » .... وعن عائشة والحسن ابن على وابن عمر أنهم قالوا كلهم لمن سألهم : « إن كنت تسأل فى دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع ، فقد وجب حقك » . وصح عن أبى عبيدة وثلاثمائة من الصحابة أن زادهم فنى ، فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم فى مزودين ، وجعل يقوتهم إياها على السواء ....

إلى أن يقول ابن حزم : « فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة رضى الله عنهم ، لا مخالف لهم منهم »!

ثم ينتقل ابن حزم بعد الاستدلال بالقرآن والسنة ثم أقوال الصحابة ، إلى من يلونهم فيقول : « وصحّ عن الشعبى ومجاهد وطاوس وغيرهم — كلهم يقول : فى المال حق سوى الزكاة » .

ثم يختتم ابن حزم كلامه بقذيفة حق :

« ولا يحلّ لمسلم اضطّر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير ، وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى ، لأنّ فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير . وله أن يقاتل على ذلك ، فإن قتل فعلى قاتله القود ، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله، لأنه منع حقاً ، وهو طائفة باغية . قال تعالى « فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى الله » ، ومانع الحق باغ على أخية الذى له الحق ... وبهذا قاتل أبو بكر الصديق مانع الزكاة »(١) !!

---

(١) المحلى : ج ٦ طبعة المنيرية ص ١٥٦ : ١٥٩

وهكذا يبرز ابن حزم بالنسبة لحق قوّتين تسهران على حق الفقير : الإلزام الحكومى ، والكفاح الشعبى .

ترى ... أفى القرن الخامس الهجرى كان يعيش ابن حزم ، بل كان يعيش الصحابة والتابعون الذين استند إلى أقوالهم وأعمالهم ، أم فى القرن الرابع عشر الهجرى الذى نعيش فيه ؟

لقد علّق محقق كتاب المحلى الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر على هذه النصوص فقال :

« من هذا ، ومن أمثاله فى الشريعة الإسلامية ، يرى المنصف أنّ التشريع الإسلامى فى الذروة العليا من الحكمة والعدل . وليت إخواننا الذين غرّتهم القوانين الوضعية وأشربتها نفوسهم يطّلعون على هذه الدقائق ويتفهّمونها ، ليروا أنّ دينهم جاءهم بأعلى أنواع التشريع فى الأرض : تشريع يشبع القلب والروح ، ويطّبق فى كل مكان وكل زمان ، (إن هو إلا وحى يوحى) . ولو فقه المسلمون أحكام دينهم ، ورجعوا إلى استنباطها من المنبع الصافى والمورد العذب : الكتاب والسنّة ، وعملوا بما يأمرهم به ربهم فى خاصة نفسهم وفى أمورهم العامة وفى أحوال اجتماعهم — لو عملوا هذا لكانوا سادة الأمم . وهل قامت الثورات المخرّبة الهادمة ، والفتن المهلكة إلا من ظلم الغنى للفقير ، ومن استئثاره بخير الدنيا وبجواره أخوه يموت جوعاً وعرياً ! والمثل كثيرة ... ولو فقه الأغنياء لعلموا أنّ أوّل ما يحفظ عليهم أموالهم إسداء المعروف للفقراء ، بل القيام نحوهم بما أوجبه الله على الأغنياء . .. فليفقهوا أو ليعلموا أو يعملوا ، فقد جاءتهم النذر ! هدانا الله جميعاً » ! !

* * *

• علم ... لا أمية :

نزل القرآن فى بيئة تفشو فيها الأمّية ، وصدع بتبليغه نبىّ أمىّ ... فكان انعكاس البيئة هنا أن تهادن الأمّية ، أو يفلسف الأمر الواقع !

ولكن القرآن افتتح خطابه للبشرية بالدعوة إلى القراءة والعلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علّم الإنسان مالم يعلم » ...

وحفل القرآن بأوامر التدبر والتفكر والتعلم ، وبتكريم العلماء وأولى الألباب ..

ووهو يشير إشارات دقيقة إلى كتاب الكون ، تستثير البصائر والأبصار ، وتحفز الهمم للبحث والكشف ، ثم الإبداع والاختراع : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » ...

وكثير من الباحثين ألم — فى إجمال أو تفصيل — إلى ما ورد فى القرآن من إشارات تتعلق بمباحث علم الفلك : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ، « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ... وإشارات تتعلق بموضوعات من علم النبات : « وأرسلنا الرياح لواقح » ، « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » ... وإشارات لها صلة بعلم طبقات الأرض : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها » ... أو بعلم المناخ : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمّن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلّب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » ... كذلك يلمع القرآن إلى علم الأجنّة : « يخلقكم فى بطون

أمهاتكم ،خلقا من بعدخلق،فى ظلمات ثلاث » ، « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » ....

والآيات فى ذلك كثيرة ، حتى استلهم الكتاب من بعضها انقسام الذرة ، حين ترد عبارة « مثقال ذرة » ثم يرد من بعدها : « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » . . . وهكذا !

هذا الاستنهاض للعلم ... لم يتركه الإسلام لحب الاستطلاع وحده ، بل جعله فريضة لازمة ،كما ورد فى روايات للحديث النبوى كثيرة ومن طرق كثيرة صحيحة . وفى غزوة بدر كان فى الأسرى المشركين من يكتب ، ولم يكن فى الأنصار من يحسن الكتابة ، وكان منهم من لا مال له ، فيقبل منه أن يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة ويخلى سبيله . قال عامر الشعبى : إنّ فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية ، فمن لم يكن عنده علّم عشرة من المسلمين، فكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم . وأخرج الإمام أحمد من حديث عكرمة عن ابن عباس حديثا يتضمن هذه الواقعة[1] .

والعلم إذا قصد به وجه الله وامتثال أمره كان عبادة قدسية ، فيها تسبيح للخالق الصانع المبدع بكشف الغطاء عن إتقان الصنعة وإحكام الخلق ، وفيها حمد لله بنشر نعمه وآلائه المودعة فى خلقه والمطمورة عن أعين الناس ، وفيها إفادة من قوى الكون التى سخّرها فاطره للإنسان ... ومن هنا تكون المعرفة الصحيحة بالبارىء المعبود : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » !

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى : ص ١٠١

وفى الشرع ما يسمى بالواجب الكفائى ، وهو ما لو قام به البعض فقد أدّى الواجب وسقط الإثم والحرج عن باقى الأمة ، وإذا لم يقم به أى فرد من المكلفين أثموا جميعاً بإهمال هذا الواجب . ومن ذلك ما يحتاج إليه الناس من مهن وصناعات وحرف ، ومنها الطب والهندسة والطيران والصناعات المختلفة من آلية وكهربية وكيماوية وغير ذلك . وليس من سبيل لرفع الإثم عن الأمة جميعها وأداء هذا الواجب الكفائى ... غير التعلّم !

يقول الإمام ابن حزم فى كتابه « الإحكام فى أصول الأحكام » ، بعد أن أبان الحد الأدنى الواجب من التعليم لتصحّ من الناس عباداتهم ومعاملاتهم :

« قال الله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) — فبيّن الله فى هذه الآية وجه التفقّه كله ، وأنه ينقسم قسمين . أحدهما : يخص المرء فى نفسه وذلك مبين فى قوله تعالى (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) — فهذا معناه تعليم أهل العلم لمن جهل حكم ما يلزمه . والثانى : تفقّه من أراد وجه الله تعالى بأن يكون منذراً لقومه وطبقته ، قال تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) — ففرض على كل أحد طلب ما يلزمه ، على حسب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه فى تعرّف ما ألزمه الله تعالى إياه » ...

وقد جعل ابن حزم الحاكم فى الدولة الإسلامية ملزما بتوفير الحدّ الأدنى من التعليم للعامة :

« إن كلّ مسلم عاقل بالغ ، من ذكر أو انثى ، حرّ أو عبد ، يلزمه الطهارة والصلاة والصيام فرضاً بلا خلاف من أحد من المسلمين ، وتلزم الطهارة والصلاة

المرضى والأصحاء ، ففرض على كل من ذكرنا أن يعرف فرائض صلاته وصيامه وطهارته وكيف يؤدى كل ذلك .

وكذلك يلزم كل من ذكرنا أن يعرف ما يحلّ له ويحرم عليه من المآكل والمشارب والملابس ، والفروج والدماء ، والأقوال والأعمال .

فهذا كله لا يسع جهله أحدا من الناس : ذكورهم وإناثهم ، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم . وفرض عليهم أن يأخذوا فى تعلّم ذلك من حين يبلغون الحلم وهم مسلمون ، أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم ، ويجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ماذكرنا ، إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلّمهم ، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك ، وأن يرتّب أقواما لتعليم الجهال » . . .

وبعد هذا القدر المشترك ، يعدّد ابن حزم ما فرض من العلم على كل طائفة وفق ظروفها الخاصة فيقول :

« ... ثم فرض على كل ذى مال : تعلم حكم ما يلزمه من الزكاة ، وسواء الرجال والنساء والعبيد والأحرار ، فمن لم يكن له مال أصلا فليس تعلّم أحكام الزكاة عليه فرضا .

ثم من لزمه فرض الحج : ففرض عليه تعلّم أعمال الحج والعمرة ، ولا يلزم ذلك من لا صحة لجسمه ولا مال له .

ثم فرض على قواد العساكر : معرفة السير ، وأحكام الجهاد ، وقسم الغنائم والفيء .

ثم فرض على الأمراء والقضاة : تعلم الأحكام والأقضية والحدود ، وليس تعلّمُ ذلك فرضا على غيرهم .

ثم فرض على التجار : وكل من يبيع غلته تعلّمَ أحكام البيوع وما يحلّ منها وما يحرم ، وليس ذلك فرضا على من لا يبيع ولا يشترى .

ثم فرض على كل جماعة مجتمعة : فى قرية أو مدينة أو دسكرة — وهى المجشرة عندنا — أو حلّة أعراب أو حصن أن ينتدب منهم لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها » .

فهل تكون هذه الدعوة الحارة للعلم . . . إلا ممن « علّم بالقلم ، علّم الإنسان مالم يعلم » !

* * *

• تقدير المرأة :

ثم ما مكان المرأة فى ذلك النظام الإسلامى البديع ؟ ؟

إن الإسلام يأتى فى البيئة التى كان يحدث فيها أحيانا أن توأد البنت ، وكان يحدث أن تعضل ، أو تورث كرها ، أو تزوّج قسرا ، أو تحرم الإرث …

إن الإسلام يأتى فى هذه البيئة لينصف المرأة … من جهة الجنس ، ومن جهة الحقوق الشخصية ، ومن جهة الحقوق المدنية والاجتماعية .

فأما من جهة الجنس : فالمرأة من الرجل ، فلا تطاول ولا تحقير : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء » ، « فاستجاب لهم ربهم ، أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى عن عائشة رضى الله عنها ، والبزار عن أنس رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما النساء شقائق الرجال » ، وصحح السيوطى فى جامعه هذا الحديث .

وقد قدّم القرآن الكريم فى قصصه نماذج رفيعة لنساء كريمات ، مثل أم موسى ، وامرأة عمران ، ومريم ابنة عمران ، « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون » .

وقدّم تاريخ الدعوة الإسلامية نماذج ممتازة من إيمان النساء ، فدور خديجة زوج رسول الله فى أول رسالته ، وبطولة سميّة زوجة ياسر وأول شهيدة فى الإسلام — من خير الشواهد على ذلك . ولا ينسى التاريخ أسماء عائشة ، وزينب بنت جحش ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية . ومغازى رسول الله صلى الله عليه

وسلم تضم فى ثناياها أسماء لامعة لنساء مؤمنات : مثل عائشة ، وأم سليم ، وأم عطية ، فضلا عن أم عمارة .

وكفاح الجور يشهد لأسماء بنت أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير بموقفها من الحجاج .

والمرأة حين تبذل فى الإسلام ما تبذل ، فهى إنما تفعل ذلك عن عقيدة فى دين أنصفها ورعى حقها ... فى مختلف المجالات !

لقد حفظ لها مكانتها فى الأسرة ، فقدّر لها رأيها فى اختيار زوجها ، وفى إدارة بيتها ، وفى تربية أولادها : « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور ، فلا جناح عليهما » . وحفظ حقها أثناء الزواج ، وعند وفاة الزوج ، وعند الطلاق .

والمرأة فى شريعة الإسلام لها نصيبها المقرر فى الميراث ، ولها حقها فى أنه تتولى أمورها المالية ، ولها استقلالها الاقتصادى وحقوقها المدنية كاملة .

والإسلام قد حفظ للمرأة حقوقها الاجتماعية ، كما حفظ لها حقوقها الشخصية والمدنية . فلها حق التعليم ، بل هو واجب عليها فى الوقت نفسه . روى أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى فى السنن عن أنس : « أن النساء أتين يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون من غلبة الرجال على مجالسه ويطلبن وقتا خاصاً ، ليتعلمن أحكام دينهن ، فأجابهن إلى ذلك » .

والمرأة تستطيع أن تفعل الخير للناس على قدر طاقتها وفى حدود الشرع : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » . وإن جهود امرأة عمر مع المرأة الفقيرة التى جاءها المخاض ، تتوج نشاط المرأة فى ميدان

الخدمة الاجتماعية . ولزبيدة زوجة الرشيد مآثرها المذكورة المشكورة فى إسالة عين ماء يشرب منها الحجاج فى الحجاز ، ولقد أتت بالفنيين وفتحت لهم الخزائن ، وقالت لمدبر ذلك الأمر ، أو مدير ذلك المشروع : « اعمل ، ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا » !!

ولقد قال الإمام ابن حزم الأندلسى فى تعليم المرأة : « ويجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا ، إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم » .

وقد ناقش فى موضع آخر مسئوليات المرأة المختلفة فقال :

« فإن قالوا : فأوجبوا الجهاد فرضا على النساء ، قيل لهم وبالله تعالى التوفيق : لولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة — إذ استأذنته فى الجهاد : « لكن أفضل الجهاد حج مبرور » — لكان الجهاد عليهن فرضا ، لكن بهذا الحديث علمنا أنّ الجهاد على النساء ندب لا فرض، لأنه عليه السلام لم ينهها عن ذلك ، ولكن أخبرها أن الحجّ لهن أفضل منه . . . فإن قالوا : فأوجبوا عليهن النفار للتفقه فى الدين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قلنا وبالله تعالى التوفيق : نعم هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال ، وفرض على كل امرأة التفقه فى كل مايخصها ، كما أنّ ذلك فرض على الرجال. ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم ، وما يحلّ وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس — وغير ذلك كالرجال ولا فرق . ولو تفقّهت امرأة فى علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها ، وقد كان ذلك ... فهؤلاء أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وصواحبه، قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا فى ذلك.

فمنهن : سوى أزواجه عليه السلام ، أم سليم ، وأم حرام ، وأم عطية ، وأم كرز ، وأم شريك ، وأم الدرداء ، وأم خالد ، وأسماء بنت أبى بكر ، وفاطمة بنت قيس ، وبسرة ، وغيرهن . ثم فى التابعين: عمرة ، وأم الحسن ، والرباب ، وفاطمة بنت المنذر ، وهند الفراسية [ويقال القرشية ، وهى هند بنت الحارث صاحبة أم سلمة وروت عنها] وحبيبة بنت ميسرة ، وحفصة بنت سيرين وغيرهن »[١] .

وحسب الفقه الإسلامى دليلا على أنه لم يتعصّب ضد المرأة كجنس ، أن «مذهب الطبرى والمذهب الظاهرى، جوّزا للمرأة أن تكون قاضيا على الإطلاق فى كل شىء ، خلافا لأبى حنيفة الذى لم يجوّز لها ذلك إلا فى قضايا الأموال ، وخلافا لباقى الفقهاء الذين أبوا عليها ذلك الحق مطلقا »[٢] . ونحن لسنا هنا بصدد إقرار هذا الرأى أو رفضه ، ولكن بصدد الدلالة على خلوّ الفقه الإسلامى من كل أثر للتعصب ضد المرأة كجنس ، والنظر كل النظر فى حجية الدليل الشرعى دون متابعة الأهواء .

يقول ابن رشد فى كتاب الأقضية : الباب الأول : فيمن يجوز قضاؤه : —

« وكذلك اختلفوا فى اشتراط الذكورة فقال الجمهور : هى شرط صحة الحكم ، وقال أبو حنيفة : يجوز أن تكون المرأة قاضياً فى الأموال، وقال الطبرى: يجوز أن تكون المرأة حاكما على الإطلاق فى كل شىء ... فمن ردّ قضاء المرأة : شبّهه بقضاء الإمامة الكبرى ، ومن أجاز حكمها فى الأموال : فتشبيها بجواز شهادتها فى الأموال ، ومن رأى حكمها نافذا فى كل شىء قال : إن الأصل

(١) الإحكام : جـ ٣ ص ٨١ — ٨٢

(٢) فلسفة التشريع فى الاسلام لمحمصانى ص ٥٢ ، وأشار فى حواشيه إلى بداية المجتهد جـ ٢ وإلى المحلى جـ ٩

هو أن كلّ من يتأتى منه الفصل بين الناس فحكمه جائز ، إلا ماخصّصه الإجماع من الإمامة الكبرى » (١) .

فهل تكون هذه الروح التى ألهمت أصحاب هذه الآراء ما قالوه — صوابا كانت نتيجة الاجتهاد أم خطأ — إلا من هداية رب الأرض والسماء ، الذى لا يحابى الرجال ، ولا يتحامل على النساء ؟؟ .

(١) بداية المجتهد : ج ٢ ص ٣٨٤

• سماحة وعدالة مع غير المسلمين :

وقد يقال أخيرا : إنّ الإسلام قد حارب الأهواء العصبية والطبقية ، كى يسعّر بين الناس الأحقاد الدينية !

والإسلام برىء مما يرمى به .. .

فإن الإسلام لايحارب اختلاف الأديان ، وإنما يحارب البغى والعدوان : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولّوهم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون » !

والإسلام حين يأمر بقتال الباغين المعتدين من غير المسلمين ، يقاتل الباغين المعتدين من المسلمين أيضاً : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله »!

وحين تكون المسالمة هى أساس المعاملة ، يعطى الإسلام غير المسلمين ممن دخلوا فى ذمته واستأمنوا فى دولته من الحقوق مثل ما للمسلمين : «لهم مالنا وعليهم ما علينا » ... وإن كان يعفيهم مما يلزم به المسلمين من واجبات فى العقيدة ، والعبادة ، والأحوال الشخصية .

واختلاف العقيدة لايبرر القطيعة : « ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى

من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون » . وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس بسنده : « كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين ، فرخّص لهم فنزلت هذه الآية » . . . وهكذا تستمر الصلات الاجتماعية موصولة باقية : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم ، وطعامكم حلّ لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » !

أما الجزية ... فهى بدل نقدى عن الخدمة العسكرية ، فإن الإسلام ليكلّف مخالفيه شططا لو ألزمهم بذل دمائهم فى سبيل دولة تقوم على عقيدة لا يعتنقونها ، فالجهاد فى الإسلام هو فى « سبيل الله » ، والدولة فى الإسلام تحكم بالقرآن ، فمن تقديس الحرية أن يعفى غير المسلمين من حرج القتال فى سبيل ما لا يؤمنون به ، ويكتفى منهم بهذا البدل النقدى اليسير !

لقد كتب خالد بن الوليد حين وصل الفرات لصلوبا بن نسطونا : « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » . وتكرّر مثل هذا المعنى فيما كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر لأهل أذربيجان ، وما كتبه سراقة عامل عمر لشهربراز وسكان أرمينيه . وقد صالح الجراجمة على جبل اللكام أبا عبيدة على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح وألا يؤخذوا بالجزية . وحين اضطر أبو عبيدة — لضرورات عسكرية — أن ينسحب من حمص أثناء فتح الشام ردّ لأهلها جزيتهم ، لعدم استطاعته الوفاء بشرطها وهو الحماية والمنعة ، وكذلك فعل فى دمشق حين كان يتجهّز لليرموك . ولقد كان فرض الجزية مقصوراً على الأشدّاء الأقوياء الذين كانوا يستطيعون الخدمة فى الجيش ، فهى لا تؤخذ من الشيخ الفانى ،

أو المرأة ، أو الطفل — وهـذا مما يظـاهر القول بأنهـا بدل نقدى عن الخدمة العسكرية.

ولو كان المسلمون قوما تستعر فى صدورهم العصبية الدينية ، لما رضوا من مخالفيهم بغير اعتناق دينهم بعد أن ذاقوا حلاوة النصر ، ليشعروا بنشوة الظفر معنويا ، ويجبوا الزكاة بأقسامها المختلفة وهى تربو على قيمة الجزية ماديا ! ولو فعلوا لتناقضوا مع أصلهم الشرعى الذى يقول : « لا إكراه فى الدين » ، ومع أصلهم الاعتقادى النفسى الذى يجعل العبرة بما وقر فى القلب ، لا بما يتلفظ به اللسان !!! وإن الناظر إلى ما يفرض على الأمم المغلوبة اليوم من تعويضات والتزامات ليجد المدى واسعاً بين المعاملة هنا وهناك !

فالإسلام لا يقتلع العصبية والطبقية ، ليثير الطائفية والمذهبية ! ! والتطبيق التاريخى خير شاهد ودليل ....

فبلاد الحبشة اختلفت ديانتها عن ديانة المسلمين، ولـكن لم يمنع هذا الاختلاف من أن يفر المسلمون بدينهم إلى تلك البلاد ، يرجون عند مخالفيهم فى العقيدة الحماية والأمان ! ! ! ! ولقد قويت دولة المسلمين بعد ذلك واستطالت سطوتهم ، حتى نالت من امبراطوريات القياصرة والأكاسرة ، ومع ذلك لم تدفع بهم شهوة أو نزوة إلى المساس ببلاد الحبشة ، وهى التى تخالفهم فى الدين وكان يتأجج فى قلوبهم عليها أحقاد قومية دينية منذ حادث الفيل فى الجاهلية ! ! !

وفلسطين قد عاش فيها اليهود منذ حكم الخلفاء الراشدين إلى نهاية الدولة العثمانية فى ظل حكم إسلامى — ولو من ناحية الشكل فى آخر الأمر ، وما اتجهت دولة الإسلام مرة واحدة أثناء تلك القرون الطوال ، إلى صرف

هؤلاء اليهود عن دينهم أو اضطهادهم فى معاشهم ، وهم المكروهون قومياً واجتماعيا بل ودينيا ... فهم قساة القلوب ، غلاظ الرقاب ؛ حرّفوا الكلم عن مواضعه ، وجعلوا كتاب الله قراطيس!!!! وعندما برزت مطامع الصهيونية كان للمسلمين والمسيحيين مع الصهيونيين موقف أملته اعتبارات ليس بينها مجال الاختلاف فى الدين ! !

لقد حاولت الدولة العثمانية يوما أن تسير فى مشروع إجبار غير المسلمين على الإسلام ، فأفتى شيخ الإسلام للسلطان بأن هذا حرام ثم حرام ! ! !

فهل تكون هذه أحكام دين تمليه أهواء البشر ... أم هى من مصدر يعلو عن الأرض ويسمو عن الإنسان ؟؟؟

* * *

• تقدمية .... في المبادئ الدستورية والدولية :

في عصر الحكم المطلق ، يقرّر الإسلام القواعد الدستورية

وفي عصر الفتوح الإمبراطورية ، يقرر الإسلام خير المبادئ الدولية !

فالحكم في الإسلام إنما يكون طبقاً لشرع الله ، وهو تشريع موضوعي لا ذاتي شخصي ....

والحاكم في الإسلام ، يختاره الشعب بالبيعة ، ويحاسبه الشعب بأحكام الله ، ويعزله الشعب عند الضرورة !

خطب أبو بكر — أول حاكم في الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال كلمته المشهورة : « إني قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن وسنّ النبي صلى الله عليه وسلم السنن ، وعلمنا فعلمنا . فاعلموا أيها الناس أنّ أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وأنّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأنّ أضعفكم عندي القوى حتى آخذ منه الحق . أيها الناس ، إنما أنا متّبع ولست بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينوني ، وإن أنا زغت فقوموني » ... وقد أورد السيوطي في تاريخه هذه الخطبة، وروى في ختامها عن مالك رضي الله عنه أنه قال : « لا يكون أحد إماما أبدا إلا على هذا الشرط » !

وقال ابن القيم تعليقاً على الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » : « فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب . ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل ، وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول ، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول ،

فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع ولا طاعة »[1] !

وتأمل قوله تعالى : « وأولى الأمر منكم » ... لتعرف كيف أشارت الآية فى وضوح إلى المصدر الذى يستمد منه ولى الأمر ولايته ، فليس هناك دم ملكى ولا تفويض إلهى ، إنما الأمة هى التى تختار ولى أمرها من بينها طبقاً لشريعة ربها !

يقول ابن حزم : « الإمام إنما جعل ليقيم للناس الصلاة ، ويأخذ صدقاتهم، ويقيم حدودهم، ويمضى أحكامهم ، ويجاهد عدوهم، وهذه كلها عقود ، ولا يخاطب بها من لم يبلغ أو من لا يعقل »[2] .

ولذلك يقول صاحب كتاب « النظريات السياسية الإسلامية » : —

« أجمع مجتهدو الفرق الإسلامية كلها — ما عدا الشيعة — على أنّ طريق ثبوت الإمامة هو الاختيار والاتفاق لا النص والتعيين . وصاغ علماء الفقه ذلك الصيغة القانونية فقالوا : إنّ الإمامة عقد ... والعقد فى عرفهم له مدلوله الخاص : فهناك ماهية مشتركة ، ثم لكل عقد موضوعه وأركانه ، وأحكامه وشروطه »... وقد بحث الأستاذ الدكتور السنهورى[3] طبيعة عقد الإمامة بصفة خاصة كما عرضه علماء الشريعة الإسلامية ، فقال عنه : إنه عقد حقيقى — أى أنه عقد مستوف للشرائط من وجهة النظر القانونية . ووصفه بأنه مبنى على الرضا ، وأن الغاية منه أن يكون هو المصدر الذى يستمد منه الإمام سلطته ، وهو تعاقد بين الأخير وبين الأمة . ثم أشار فى مواضع أخرى إلى أنّ مفكرى الإسلام قد

---

(١) إعلام الموقعين : حـ ١ ص ٣٩

(٢) المحلى : حـ ١ ص ٤٦

(٣) فى كتابه بالفرنسية [الخلافة] Le Califat

أدركوا جوهر نظرية روسو ، وهى التى تقول : إن الحاكم أو رئيس الدولة يتولى سلطانه من الأمة نائباً عنها نتيجة لتعاقد حر بينهما ، وأنهم عرفوا نظرية السيادة كما عبّر عنها روسو فيما بعد ، وإن كانت نظريتهم احتوت على عنصر زائد خاص بها ... « وذلك أيضاً مع فارق ، فإن العقد الذى تكلم عنه روسو كان مجرد افتراض ، لأنه بناه على حالة تخيّلها فى عصور ماضية سحيقة ، ولا يوجد عليها برهان تاريخى ، بينما نظرية العقد الإسلامية تستند إلى ماض تاريخى ثابت ، هو تجربة الأمة خلال العصر الذهبي للاسلام ، وهوعصر الخلفاء الراشدين »[1] !

* * *

وللاسلام روائعه فى تقرير قواعد سياسته مع غيره من الدول ...

فهو يجعل السلم قاعدة : « ادخلوا فى السلم كافة »

وهو يقتلع جذور العصبية الإقليمية والدموية والمذهبية ، ويقتلع جـذور الطبقية ، ويخفف حدة الصراع الاقتصادى . . . وهو فى هذا كله يقتلع أسباب الحرب من جذورها !

إنه يفتح البحار أمام الناس كافة على اختلافهم فيما بينهم : « والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس » . . .

ويبيح خيرات الأرض كلها للناس كلهم : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » ...

ويجعل المعرفة قدرا مشتركا بين العالمين : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها »[2] !!

---

(١) ضياء الدين الريس : ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) رواه الترمذى من حديث أبى هريرة ، ورواه غيره بألفاظ أخرى ، وبعض الروايات موقوف على على وابن عمر

والإسلام يحدد أغراض القتال حتى لا تصبح الحرب حمّية هوجاء ، وفورة طاغية ....

فالقتال المشروع مقصور على ردّ العدوان العسكرى : « إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولّوهم الأدبار » ....

وعلى دفع الطغيان الفكرى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، ويكون الدين لله » ....

والإسلام هنا لايطلب إلا أن يخلّى بين دعوته وبين الناس ، فإذا كفلت الضمانات لحرية الدعوة فهو لايعنيه بعد ذلك أأسلم الناس أم لم يسلموا ....

وإنما يعلن الإسلام الجهاد ، يوم تقف سلطة متحكّمة ، لتحجز الدعوة بالقوة لا لترد عليها بالحجّة ، وتستخدم سطوة السلطان التى خلعتها عليها الشعوب لخدمة صالح الشعوب — تستخدمها فى حرمان الجماهير من حق التفكير الحر والاعتقاد الحر ...

فالإسلام هنا يحارب التحكّم فى الحريات ، ولا يسعى ليفرض نوعاً من الاعتقاد ، وهو لا يهدف إلا إلى إزاحة هذه العقبات الغاشمة من الطريق ، فإن أزيلت فللشعب حين يستردّ حريته أن يختار ما يريد !!

وأخيراً ... فإن الإسلام يشرع الحرب لوقف المظالم الدولية ، فإن المسلمين وقد اعتنقوا من أصول دينهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يقفون موقف المتفرّج على منازعات العالم الدامية وهم الشهداء على الناس : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التى

تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » !

فإذا ما أعلنت الحرب فى حدود هذه الأغراض المشروعة ، كانت السياسة الحربية الإسلامية أروع دستور إنسانى للمحاربين ، قبل أن يحدد القانون الدولى أصوله فى شريعة الحرب : « لاتغدروا،ولا تقتلوا طفلا أو امرأة أو شيخا ، ولا تتبعوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تعقروا بعيراً إلا للأكل . وستمرّون على قوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم من أجله » !

ولو كان المسلمون يقاتلون لمجرد الحقد على مخالفيهم فى الدين ، ومن أجل إكراههم على تغيير عقائدهم بقوة السلاح ، لما سلم من أيديهم وسيوفهم صغير ولا كبير ، ولا مدبر ولا جريح ، ولوجدوا الفرصة السانحة فيمن يلقون من رهبان الصوامع لشفاء صدورهم مما تستعر فيها من نيران العصبية ، وهم يمثلون رمز الدين المخالف ويمثلون العجز عن الدفاع والمقاومة ! ... ولكنه الإسلام !!

وهل تجد أروع من هذا الإنذار النهائى القرآنى ، دلالة على إنسانية السياسة الحربية الإسلامية . ..

إنه يحدد مهلة للانذار كافية ، ويستثنى منه العهود السابقة ، ويقرر قواعد سامية :...

يقول الله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله

بریء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » ...

إعلان واضح ، وفى مكان جامع ، ولمدة كافية : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد »

والسبب فى إلغاء هذه العهود السابقة مذكور مقرر : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » ؟ ... ولكن الأمانة القرآنية مع ذلك تأبى إلا أن تشهد للأوفياء : « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين »

وليس عدم احترام المشركين للعهود قاعدة قررها النظر والاستنتاج ، بل قد شهدت بها الوقائع والأحداث: « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ،وهموا بإخراج الرسـول ، وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »

وما دام إلغاء هذه العهود من طرف المسلمين مسبباً بنقض المشركين ، فقد استثنت النصوص غير الناكثين الغادرين : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين »

وهنا يقرر الإسلام قاعدة ذهبية لتأمين اللاجئين السياسيين : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »

والإسلام يقرر أيضا قاعدة تأمين السفراء والمندوبين (الدبلوماسيين) : فإنه حين

قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان بكتاب مسيلمة الذى يدعى فيه النبوة ، سألهما الرسول عنه فصدقاه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما » (١)

وقرر الإسلام كذلك قاعدة إحسان معاملة الأسرى : « يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم، والله غفور رحيم » ، «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً »

والإسلام حين ينتصر فإنما ينتصر بانتصاره العدل الإلهى الذى لا يميّز بين غالب ومغلوب ... وتنتصر الفكرة العالمية الإنسانية التى لا تفرّق بين أشبار الأرض ، وسلالات النسب ، وأوضاع الطبقات ، إلى غير ذلك من ألوان الفوارق : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »

أليس عمر بن الخطاب هو الذى آثر فلاحى العراق بأرضهم على جنده العرب المسلمين إذ منع اعتبارها غنيمة لهم ؟؟ وهو الذى حاسب عمرو بن العاص واليه فى مصر على ما اشتبه أنه لُبس بظلم من ليسوا على دينه وليسوا من جنسه ؟؟

فهل تثمر البيئة العربية هذه القواعد الذهبية ، وهى التى غرقت فى بحار الدماء ، وطمرت فى ركام الأشلاء ، أثناء يوم الفجار ، ويوم البسوس ، ويوم داحس والغبراء ؟؟

* * *

(١) إمتاع الأسماع : ص ٥٠٩

● وبعد :

فإن هذه الروح التقدمية فى أصول النظام الإسلامى هى من وحى الحكمة الإلهية ، والعدالة الربانية . وإن العالم كله كان يفتقد هذه الأفكار التقدمية ...

● فعصر الإقطاع : الذى تخطاه الشرق بفضل الإسلام ، قد رسف فيه الغرب ، حتى تحرر منه حين احتك بالشرق فى الحروب الصليبية ، فعرف هناك الحرية الاقتصادية ، فانقلبت الجيوش إلى بلادها تبشر بما رأته وتطالب بمثله .

● والحرية الفكرية : التى رعاها الإسلام فى الشرق ، هى التى افتقدها الغرب حتى تعلمها على أيدى المسلمين فى الأندلس ، فكانت الشرارة التى أوقدت النهضة الأوربية ، وأشعلت الحملة ضد الجمود والتزمت .

● والسماحة الدينية : التى قررها الإسلام ، كان يقابلها فى الغرب الحروب الصليبية ضد المسلمين ، والمذابح المذهبية بين المسيحيين .

● والحكم الدستورى : الذى تقرر فى الإسلام كأصل ثابت مفروغ منه ، قد ظل يمر فى أوربا بأطوار عدة ، والقوم هناك فى كل طور بين إقدام وإحجام ، لا يعطون حق الانتخاب إلا لمن يثور فيقلقهم ، ويحتاجون إلى أن يتملقوه ويسترضوه ! !

● والسياسة الدولية : فى الحرب والسلم لم تصل إلى أحكام الإسلام فيها من جهة الواقع الحروب العصرية التى لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ولم تصل إليها من جهة القانون والمواثيق الدولية التى تعطى حق (الفيتو) للأقوى ، والتى تجعل الأمن العالمى لا يُهدَّد إلا إذا هُدِّدت الدول الكبرى — دون الصغرى ! !

• والمرأة ، وما أدراك ما المرأة . . . ما زالت إلى الآن تتعثر بين شهوة البروز والظهور ، وبين غرائز الأنوثة وعواطف الأمومة ! ! !

والناس يتعثرون بين شهوة (الرجل) فى إرضاء المرأة والاستمتاع بقربها على أوسع نطاق ، وبين حرص (الزوج) على أن تكون المرأة الواحدة لرجل واحد ، وبين ما يقرره العقل ويلائم طبائع الأشياء . وفى وسط هذه الأهواء تضخمت المشكلة ... !!!

وما أصدق ما قاله رسول الله عن كتاب الله . . . .

« لا تنفد عجائبه

« ولا يخلق من كثرة الرد .

« من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » (١)

---

(١) رواه الترمذى عن على مرفوعا

الرسول ... الإنسان!

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة
لمن كان يرجو الله واليوم الآخر
وذكر الله كثيراً »

على قدر (واقعية الرسالة) .... يكون نصيبها من النجاح !

وعلى قدر (إنسانية الرسول) . . . . يكون إدراك الناس لطبيعة الرسالة الواقعية . .

فالناس يعرفون الرسالة من خلال (شخصية) صاحبها . . . .

وقد تبهر الناس (الشخصية الملائكية) القدسية إلى حين ، ولكنهم لا يستريحون لصحبتها دواما فى كل حين !

وقد تبهر الناس (الشخصية الساحقة الطاغية) ، ولكن مثل هذه الشخصية إن صلحت للزعامة الموقوتة ، لا تصلح للهداية الموصولة والرسالة الخالدة !

ومن هنا كانت شخصية محمد (الرسول الإنسان) ، خير دعوة ودعاية لرسالته ... فيها البساطة الآسرة ، والإنسانية الغامرة ، والجاذبية الساحرة ! !

فيها يعرض الرسول الإنسان نفسه .... على كل إنسان !

فيها يكون المثل الأعلى قريبا ... قريبا ... إلى العقول والقلوب !

* * *

كان اختيار البيئة العربية لرسالة الإسلام فى ذلك الوقت ، أول إشارة

لطبيعة هذه الرسالة .... فالعرب كانوا خير النماذج (للانسانية) فى عصرهم :

• كانوا بسطاء ... ولكنهم ليسوا بالسذّج التافهين ! ففى أدبهم وشعرهم دليل الحكمة والحصافة ، والشعور والوعى ، والذوق والرقة

• كانوا يحيون حياة الحرية والمساواة .... يحيونها ولا يفلسفونها ، ولذا لم يحتج الإسلام كثيرا إلى تقرير هذين الأصلين تقريرا مباشرا ، إذ هما شىء قائم وأمر واقع فى (حياة) العرب : فى مشاعرهم ووجدانهم ، فى عاداتهم وتقاليدهم ... بديهية مقررة فى كيانهم ذاته ، لم يعرفوا (الحق الإلهى المقدس) لحكم ، ولا (الدم الأرستقراطى الرفيع) لأسرة !

• كانوا يحيون حياة التكافل والتعاون ، وكانت فوارق الثروات فوارق مادية لا إنسانية . . كان هناك حقا أغنياء ومترفون ، ولكنهم لم يكونوا متسلّطين أو متألّهين !! كان العربى الفقير يخاطب أغنى الأغنياء فى بساطة وقوة ..

ولنترك وضع (الرقيق) جانبا ، فقد كان وضعا اجتماعيا عالميا ، وكان عند العرب أهون منه فى كثير من المجتمعات ...

ومن هذا (الرصيد الإنسانى) الكبير ، جاء (الرسول الإنسان) :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم

عزيز عليه ما عنتم

حريص عليكم

بالمؤمنين رءوف رحيم »

* * *

ولم تأت رسالة محمد من السماء إلى هذه البيئة الإنسانية ، لتروّع برهبة الغيب ما أمن منه الواقع القائم ...

● فمحمد لا تربطه بالسماء أسباب غير الوحى ...

« قل إنما أنا بشر مثلكم ... يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

« قل إن أدرى أقريب ما توعدون ، أم يجعل له ربى أمدا . عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عددا »

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا — إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن إنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » !

● ومحمد ليس رسولا من الملائكة ، وإنما هو الرسول الإنسان ...

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » !

* وشاهد الرسول على رسالته هو المنطق والبيان . . .

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف .

أو ترق فى السماء — ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ! ! وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟؟ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » !

• والوحى الذى ينزل على الرسول يقرئه القرآن ، فالسماء لا تنزل رسالتها ألواحا وقراطيس : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » !

لقد استنفدت المعجزات الحسنة الصارخة أغراضها ، وأضحت غير ذات موضوع ... « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » !

وجاء الإسلام يكرم العقل الإنسانى ويخاطبه بالبرهان ، ويصرفه عن التماس الدليل فى غير الكون الفسيح وبغير المنهج الرشيد ...

« وقالوا : لولا نُزِّل عليه آية من ربه ، قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرّطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون » !

• والوحى الإلهى الذى ينزل على الرسول يسدّ كل ذريعة للتعالى والتحكم باسم الله أو شريعته ...

« إنما أنت منذر ولكل قوم هاد »

« إن عليك إلا البلاغ »

« لست عليهم بمسيطر »

« قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم ، أنلزمكموها — وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكّرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين » !!

ولقد كان رسول الإسلام بعيدا عن الثروة أو السطوة . . . لم يكن نبيا ملكا كداود أو سليمان ، بل كان يجوع ويشبع ، ويصبر على الضعف حتى يقوى ...

« قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير — أفلا تتفكرون ؟ ؟ »

« وقالوا : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ! أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ! انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا . . . . وما أرسلنا قبلك من المرسلين

إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة — أتصبرون ؟ وكان ربك بصيراً » !

* * *

ورسول الإسلام ، إنسان فى مشاعره وأحاسيسه . . .

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذّبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كُذِّبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مُبَدِّل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء — فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين »

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك — أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل »

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره — وإذن لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لاتجد لك علينا نصيرا »

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر ، فتنفعه الذكرى . أما من استغنى ، فأنت له تصدّى . وما عليك ألا يزكّى وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهّى . كلا إنها تذكرة » !!

نحن نحس أننا أمام الرسول الإنسان ، الذى تتبادله مشاعر الخوف والرجاء ، والإشفاق والثبات . . .

إنه لا يدعو بعجرفة الدعىّ المتعاظم ، أو الفارغ الأحمق . .

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم »

« حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنُجى من نشاء ، ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين » !

* * *

ولقد كان رسول الإسلام يحيا حياة الإنسان . يصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، ويتزوج النساء ، ويعلن أن هذه شريعته وسنته . « فمن رغب عن سنتى فليس منى » !

ورسول الله ، الأتقى والأعلم بالله ، والأزهد فى الدنيا والأحرص على

الآخرة ، نسمع منه هذا اللحن الإنسانى الرائع : « حُبِّب إلى من دنياكم ثلاث الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » !

ورسول الله ، إنسان فى مشاعره تجاه الزوجة والولد . . . حتى ليهمّ أن يحرّم على نفسه ما أحل الله له — يبتغى مرضاة أزواجه !

وحتى يصرح أن ابنته فاطمة قطعة منه — يريبه ما رابها ! . . .

وحتى يطيل السجود ، لأن ابنه ارتقى ظهره وهو ساجد ، فكره أن « يعجله » إلى الهبوط قبل أن يقضى رغبته فى الصعود ! !

فإذا ماقسى الرسول الإنسان يوما على نفسه ، فهو يعفى أمته من المتابعة والاقتداء . . . إنه يواصل الصيام وينهى المسلمين عن الوصال ويقول : « لست كهيئتكم ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » !

وشريعته يقوم التكليف فيها على الطاقة والوسع : « لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها » ، والرسول الإنسان يقول : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . ومن هنا جاءت الشريعة بالإباحة فى حالة الضرورة : « وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم — إلا ما اضطررتم إليه » ، والرسول الإنسان يقول : « رفع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » !

ذلكم هو الرسول الإنسان ، الذى تحتاجه الإنسانية فى كل زمان . . .

بلا تهاويل ولا طلاسم . . .

بلا تأسيس على الخوارق . . .

بلا طغيان ولا تفزيع . . .

« فبما رحمة من الله لنت لهم

ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضّوا من حولك

فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكّل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل

يأمرهم بالمعروف

وينهاهم عن المنكر

ويحلّ لهم الطيبات

ويحرّم عليهم الخبائث

ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم »

الإسلام والموسيقى

« وإعراض الفنّ عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسّى الدينى جعله يتجه إلى طلب المتعة ! والمتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة ، فى حين أن تقدّم الإنسانية الذى يصحبه ويردّده الإدراك الحسّى الدينى ليس له حدود ! ! وقد انبعثت المشاعر التى عبّر عنها هو ميروس فى أشعاره وكتاب المأساة اليونانية من الإدراك الحسّى الدينى عند اليونان ، وكذلك الحال عند العبرانيين وفى العصور الوسطى . والإدراك الحسّى الدينى يتجدّد كلما تجدّدت علاقاتنا بالعالم من حولنا ، وهو لذلك يقدّم للفن مشاعر طريفة ترجح المشاعر المنبعثة من حب المتعة المحدود . . . . وفقدان اليقين الدينى أفقر موضوعات الفنّ وقصر الاستمتاع بها على طبقة محدودة من طبقات المجتمع ، وأبعده عن مشاعر الشعب والكثرة الكاثرة . وإذا عرف الفنّان أنه يتجه بفنه إلى الأغلبية الساحقة تحرّى الموضوع ، ولكنه حينما ينتج فنّا ليرضى شخصا مفردا وحاشيته فإنه يعمد إلى إرضاء هذا الشخص والتأثير فى حاشيته ، فيعبر عن نفسه بإشارات وتلويحات لا يفهمها سوى الحافّين بهذا الشخص البارز الرفيع المقام ، ولذلك يتجه مثل هذا الفنّ شيئا فشيئا إلى الغموض والابهام ! ... »[1]

هذا هو رأى الكاتب الروسى الكبير تولستوى ، ضمّنه كتابه « ما هو الفنّ ؟ » . . . .

---

(١) مقال الأستاذ على أدهم (تولستوى والفن) ـ المجلة عدد ٢٤ ، ديسمبر ١٩٥٨

ونولّى وجوهنا شطر الإسلام — الدين الذين يعتنقه مئات الملايين من البشر — لنتبيّن مدى مساهمته فى تعميق المشاعر الفنية عند معتنقيه ، فنقرأ للمستشرق الفنّان الكبير الأستاذ هـ . ج . فارمر فى مؤلفه الفذّ (تاريخ الموسيقى العربية) :

« ... من أعظم المسائل المحيّرة فى الإسلام موقفه من الموسيقى ، وقد تناقش فقهاؤه قرونا فيما إذا كان (السماع) حراما أو لا ؟ ؟ وليس من اليسير أن ندرك كيف بدأت المشكلة ، نظراً إلى عدم وجود أية كلمة كراهية مباشرة للموسيقى فى القرآن ، وأهم من كل ذلك أن الموسيقى كانت أمراً لايستطاع الاستغناء عنه فى حياة العرب الاجتماعية .

إذن من أين جاء (الرأى) المعارض للموسيقى ؟ من المحقق أن كراهية (الخمر والنساء والغناء) ليس شيئا جديدا على الشعوب السامية ، لأن العبريين والفينيقيين أيضا كما يبدو لى كان فيهم المتشدّدون الذين حاربوا هذه الأشياء (أشعيا ... عاموس من التوراة) ، ويظهر أن شيئا من هذا الروح انتشر حتى فى بلاد العرب الوثنية ، وكان أمية بن أبى الصلت الشاعر الذى ضلّ فى معرفة الله متشدّدا كل التشدّد فى بعض هذه الأمور وإن لم ينبس ببنت شفة ضد الخمر . وانقسم المستشرقون فى أصل تحريم الإسلام السماع : فنسبه جماعة إلى النبى مباشرة ، على حين تمسكت طائفة أخرى بأن الرأى من وضع لاهوتيى العصر العباسى . . .

وعند النظرة الأولى يبدو لنا حلّ المشكلة سهلا بالرجوع إلى القرآن ، ولكن القرآن يتحكم فى تفسيره رأى المفسّر الخاص ، على حين يوجد فى

الأحاديث نصوص واضحة تؤيد الفريقين . . . »[1]

وسأحاول — قدر الطاقة — أن ألتى أضواء على هـذا الموضوع الدقيق غير متزمت ولا مترخص . فالحق أن معالجة موقف الإسلام من الموسيقى والغناء يحتاج إلى التماسه من الأصول والأعماق ، بعيدا عن محاولات التوفيق السطحية أو نزعات المحاباة أو التحامل .

*

* *

---

(١) ترجمة الدكتور حسين نصار ــ طبعة الألف كتاب ــ ص ٣٢ ــ ٣٣

أولا : حكم النصوص

من بين النصوص المتعـدّدة الواردة فى حكم السماع ، اخترنا حديثين ليـكونا نموذجا ودليلا : فى أحد الحديثين دليل إباحة السماع ، وفى الآخر دليل المنع ...

وثمّة أحاديث أخرى لم تصل فى قوة السند والمتن والدلالة إلى درجة ما اخترناه — نؤجّل النظر فيها إلى آخر الموضوع .

• فى الصحيحين عن عائشة : دخل علىّ النبى وعنـدى جاريتان تغنّيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال : أمزمار الشيطان عند النبى ؟؟ فأقبل عليه رسول الله فقال : دعهما ....

• روى الترمذى من حديث ابن أبى ليلى عن عطاء بن جابر :

« ... إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة — لهو ولعب ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة — خمش وجوه وشق جيوب ....»

دليل الإباحة :

ودليل الإباحة واضح صريح ، استنبط منه ومن غيره الإمام ابن حزم الحـكم الشرعى الذى أورده فى كتابه (المحلّى) :

« ... وبيع الشطرنج والمزامير والعيدان والمعـــازف والطنابير

حلال كلّه ، ومن كسر شيئا ضمنه . . . »

وقد تناول ابن حزم هذا الحديث بالذات فى مختلف رواياته وقال :

« .... فى رواية — زيادة فى وصف الجاريتين — (وليستا بمغنيتين).... قلنا : نعم ، ولكنها قالت — أى عائشة راوية الحديث — أنهما كانتا تغنيان، فالغناء منهما قد صح ؛ وقولها : ليستا بمغنيتين ، أى ليستا بمحسنتين .

وهذا كله لاحجة فيه ، إنما الحجة فى إنكاره صلى الله عليه وسلم على أبى بكر قوله : أمزمار الشيطان ... الخ ، فصحّ أنه مباح مطلق لا كراهية فيه ، وأن من أنكره فقد أخطأ ولاشك » .

وقد عزّز ابن حزم أدلّة الإباحة بما أورده عن طريق سفيان الثورى عن عامر بن سعد البجلى : أنه رأى أبا مسعود البدرى وقرظة بن كعب وثابت بن يزيد وهم فى عرس وعندهم غناء ، فقلت لهم : هذا وأنتم أصحاب محمد ؟ فقالوا : إنه رخّص لنا فى الغناء فى العرس ، والبكاء على الميت من غير نوح ... الخ .

قال ابن حزم : « ليس فيه نهى عن الغناء فى غير العرس » . وعن سعيد ابن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف : أنه كان يغنّى بالعود[1] .

هذا النصّ الصريح كان لمعارضى السماع وجهة نظر أخرى فى تأويله ... يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « إغاثة اللهفان » :

« ... فلم ينكر رسول الله على أبى بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان ! ....

---

(١) المحلى (طبعة المنيرية) : ص ٩ مسألة رقم ١٥٦٥ ص ٥٥ وما بعدها

ويحتجون بغناء جويرتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ونحوه — فى الشجاعة ونحوها ، فى يوم عيد ، بغير شبابة ولا دفّ ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه ، وهذا شأن كل مبطل ! نعم ، نحن لا نحرّم ولا نكره مثل ما كان فى بيت رسول الله على ذلك الوجه ، إنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك . وبالله التوفيق[1] » .

- فالرسول لم ينكر تسمية الغناء بمزمار الشيطان
- وتصرّف الجاريتين ليس له حجية شرعية لأنهما (غير مكلفتين)
- والنصّ مخصّص إذ ورد فى غناء الشجاعة فى يوم العيد بغير شبابة ولا دف ولا رقص ولا تصفيق . والإمام الجليل يخرج من هذا كله — على كل حال — مخرجا هيّنا ، فيختم قوله بأنه لا يحرم ولا يكره مثل ما كان فى بيت رسول الله على الوجه الذى ارتآه ! !

دليل الحظر :

من بين أدلة الحظر نصوص كثيرة ليست قوية .... ونقدّم هنا نموذجنا الذى اخترناه من أقوى ماورد فى هذا الباب ....

« .... وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة — لهو ولعب ومزامير شيطان .... الخ »

وإذا أخذنا بحجيّة النصّ سنداً وقبلناه شكلا ، فدلالة النصّ متنا وموضوعا لا تتعارض مع حكم إباحة السماع ...

(١) إغاثة اللهفان (طبعة بتحقيق حامد الفقى) : جـ ١ ص ٢٥٧

فالنص صريح فى تحديد الصورة المحرّمة ، قاطع فى تبيان علّة تحريم هذه الصورة بالذات : « لهو ولعب ومزامير شيطان » ....

وهل كل الموسيقى يصدق عليها هذا الوصف ؟ ؟

سؤال ستتضح إجابته عندما نعالج تطور الموسيقى بين ماضيها وحاضرها .

وفى بقية النصّ زيادة بيان، فإن الصوت الآخر المنهىّ عنه : « ... وصوت عند مصيبة — خمش وجوه وشق جيوب ، ورنّة — وهذا هو رحمة ، ومن لايرحم لايرحم » ...

فليس كل بكاء محرّما ، كما أنّ كلّ عزف أو غناء ليس محرّما — هذا مفهوم النصّ الذى ينسحب على شقّيه .

ولأنصار إباحة السماع فى مثل هذه النصوص كلام آخر ، يناقش معظمه السند والرواية على أساس من قواعد (علم الرجال) المعروفة للمشتغلين بالحديث ، وما تتضمّنه من موازين للتعديل والتجريح ، ومن شاء أن يطالع شيئا من ذلك فأمامه (المحلىّ) — حيث يورد ابن حزم نصوص الحظر ويفندّها تفصيلا،وحسبى فى هذا المجال أن أنقل محصّلة أبحاثه ونتائج دراساته :

« ... واحتج المانعون بآثار لاتصحّ ، أو يصحّ بعضها ولا حجّة لهم فيها ... ولا يصحّ فى هذا الباب شىء أبدا وكلّ مافيه موضوع ، ووالله لو أسند جميعه — أو واحد منه فأكثر — من طريق الثقات إلى رسول الله لما تردّدنا فى الأخذ به » !

وابن حزم يضع قاعدة فقهية جليلة لها آثارها فى الحياة الاجتماعية ، فهو يردّ على التساؤل الموجّه : هل السماع من الحق أم من الباطل ؟ :

« ومن لم ينو طاعة ولا معصية — فهو لغو معفوٌ عنه ، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزّها، وقعوده على باب داره متفرجا ، وصباغة ثوبه لازورديا أو أخضر وغير ذلك ، ومدّ ساقه وقبضها وسائر أفعاله . فبطل كل ماشغبوا به بطلانا متيقّنا ، ولله تعالى الحمد . وما نعلم شبهة غير ما ذكرنا » .

والإمام ابن القيّم الذى يميل إلى حظر السماع ، لاحق فى الزمن على عصر ابن حزم ، وقد قرأ ما كتبه ، وناقش اعتراضاته . فهو مثلا لم يساير ابن حزم فى رفضه لبعض الأحاديث ، إذ أخذ بما روى : « ليكوننّ من أمتى قوم يستحلّون الحرّ والحرير والخمر والمعازف » ، وقال معقبًا :

« ... ولم يصنع من قدح فى صحة هذا الحديث شيئا ، كابن حزم نصرة لمذهبه الباطل فى إباحة الملاهى ، وزعمه أنه منقطع ، لأنّ البخارى لم يصل سنده إليه ... »

ومع ذلك ، فإن التحقيق العلمى يفتح الثغرات فى كثير مما احتجّ به ابن القيّم من أدلّة المنع ، وهذا ماسلم به العالم الأمين نفسه فى مواضع . فقد روى أحمد والترمذى مثلا من حديث أبى أمامة الباهلى : « يبيت طائفة من أمتى على أكل وشرب ولهو ولعب ، ثم يصبحون قردة وخنازير .... باستحلالهم الخمر وضربهم الدفوف واتخاذهم القينات» ، فى إسنادهذا الحديث « فرقد السبخى وهو من كبار الصالحين ولكنه ليس بقوىّ فى الحديث ، وقال الترمذى : تكلّم فيه يحيى بن سعيد وروى عنه الناس ، وقال البخارى : فى حديثه مناكير » ! كذلك من بين الروايات فى تحريم السماع مايرد عن طريق ابن أبى الدنيا ، ونزعته فى جمع الرقائق تجعل مروياته محلّ نظر . وأورد أحمد فى مسنده : « إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين ، وأمرنى أن أمحق المزامير والكبّارات — يعنى

البرابط — والمعازف والأوثان » ، وعلى هذه الرواية تعقيب إذ فيها « علىّ بن يزيد ، قال البخارى : ضعيف »[1] ..

وهناك روايات للصحابة والتابعين . . . . لابن مسعود وابن عباس ، ثم لابراهيم ومجاهد وعكرمة ، تعتبر الغناء داخلا فى لهو الحديث الوارد فى قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .... الآية » .

وابن حزم يرد عليهم جميعاً ....

يرد عليهم من ناحية الشكل ، فيذكر أنه لاحجة لأحد دون رسول الله ، كما أن هناك أقوالا مخالفة لصحابة وتابعين آخرين ....

ومن ناحية الموضوع يقول : « إن نص الآية يبطل احتجاجهم بها .... لأن فيها (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين) — وهذه صفة من فعلها كان كافرا بلا خلاف ، إذ اتخذ سبيل الله تعالى هزوا . ولو أن امرءا اشترى مصحفاً ليضل به عن سبيل الله تعالى ويتخذها هزوا لكان كافرا . . . فهذا هو الذى ذمّ الله تعالى ، وما ذمّ قط عز وجل من اشترى لهو الحديث ليلتهى به ويروّح نفسه ، لا ليضلّ عن سبيل الله تعالى ، فبطل تعلّقهم بقول كل من ذكرنا .... وكذلك من اشتغل عامدا عن الصلاة بقراءة القرآن أو بقراءة السنن أو بحديث ليتحدّث به ، أو بنظر فى ماله ، أو بغناء ، أو بغير ذلك — فهو فاسق عاص لله تعالى ، ومن لم يضيع شيئا من الفرائض اشتغالا بما ذكرنا فهو محسن !

احتجوا فقالوا : من الحق الغناء أم من غير الحق — ولا سبيل إلى قسم

(١) إغاثة اللهفان « بتحقيق حامد الفقى » : حـ ١ ص ٢٥٨ : ٢٦٣ متن للمؤلف وحواشى المحقق

ثالث ، وقد قال الله عز وجل (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ؟ ؟ ؟

فجوابنا : أنّ رسول الله قال : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى) — فمن نوى باستماع الغناء عونا على معصية الله تعالى فهو فاسق . . . وكذلك كل شيء غير الغناء ! ! !

ومن نوى به ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عز وجل وينشّط نفسه بذلك على البر فهو مطيع ....

ومن لم ينو طاعة ولا معصية ، فهو لغو معفوّ عنه .... كخروج الإنسان إلى بستانه متنزها ، وقعوده على باب داره متفرجاً ، وصباغة ثوبه لازورديا أو أخضر أو غير ذلك ، ومدّ ساقه وقبضها ، وسائر أفعاله ..... فبطل كل ما شغبوا به بطلانا متيقنا .... » !!

لقد بطل فعلا ....

وكان يسع ابن حزم أن يكتفى بهدم أدلة المنع ، فتقوم الإباحة الأصلية .... ولكنه لا يكتفى بهذا الموقف السلبى ، وفى يده أسانيد تعطيه موقفاً إيجابيا راسخاً . . . .

فهو يروى حديث عائشة عن غناء جاريتى بعاث ويعلق عليه بقوله : « فصح أن الغناء مباح ، مطلق ، لا كراهية فيه . وإن من أنكره فقد أخطأ بلا شك » !

لكن زعيم المعارضة للموسيقى والغناء — الإمام الجليل ابن القيم — له فى هذا الحديث وجهة نظر أخرى — أوردها فى كتابه « إغاثة اللهفان » :

« فلم ينكر رسول الله على أبى بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان . . . ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ونحوه ، فى الشجاعة ونحوها ، فى يوم عيد — بغير شبابة ولا دق ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه ، وهذا شأن كل مبطل » !

وإعجابى بابن القيم ، لا يقل عن إعجابى بابن حزم ، لكن تعسّفه فى تأويل هذا النص الصريح ظاهر ....

• إنه يريد أن يثبت تسمية الغناء مزمار الشيطان .... مع أنّ الرسول لم يوافق أبا بكر وقال له : دعهما

• وهو يجعل الفعل صادراً من « جويرتين غير مكلفتين » .... لكن الغناء كان على كل حال فى حضرة الرسول وبإقراره

• ثم يضع القيود على هذا الغناء : فى موضوعه . . . وفى أدائه . . . وفى وقته ... كان غناء فى الشجاعة ، وكان نشيداً بغير دف ولا رقص ولا تصفيق ، وكان فى يوم عيد !!! ومهما كانت القيود والشروط ، فهى تحمل معنى الإباحة فى الحكم على أى حال !

• وهو يجعل هـذا النصّ الصريح من باب المشابه . . . . فأين المحكم إذن ؟ ؟

إن ابن حزم يجد فى الحديث حجة دامغة .... وحتى الرواية التى تضيف إلى ذكر الجاريتين أنهما (ليستا بمغنيتين) ، لا يضيق بها ابن حزم ولا تنال من قوة الدليل عنده كما سلف البيان !

ويضطر ابن القيم أخيرا لأن يقول : « نعم نحن لا نحرم ولا نكره مثل

ما كان فى بيت رسول الله على ذلك الوجه ، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك » !

ويمضى ابن حزم يسوق أدلته فى إثبات رأيه . . . . إنه يقف على أرض ثابتـة ، لا تهتز تحته ولا تميد . . . .

« ومن طريق أبى دواود عن نافع مولى ابن عمر ... أن ابن عمر سمع مزماراً فوضع إصبعيه فى أذنيه وقال : كنت مع النبى وسمع مثل هذا فصنع مثل هذا » ...

قال ابن حزم : « هذه هى الحجة القاطعة ، ولو كان المزمار حراما سماعه لما أباح عليه السلام لابن عمر سماعه ، ولو كان عند ابن عمر حراماً سماعه لما أباح لنافع سماعه ، ولأمر عليه السلام بكسره ... فما فعل عليه السلام شيئاً من ذلك ، وإنما تجنب سماعه كتجنبه أكثر المباح من أكثر أمور الدنيا — كتجنبه الأكل متكئاً ، وأن يبيت عنده دينار أو درهم » !

ومن طريف مسلم عن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة : قالت : جاء حبش يزفنون « أى يرقصون » فى يوم عيد فى المسجد ، فدعانى النبى حتى وضعت رأسى على منكبه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التى انصرفت عن النظر ...

وعن عامر بن سعد البجلى : أنه رأى أبا مسعود البدرى وقرظه بن كعب وثابت بن يزيد وهم فى عرس وعندهم غناء ، فقلت لهم : هذا وأنتم أصحاب رسول الله ؟ ؟ ؟ فقالوا : إنه رخص لنا فى الغناء فى العرس ، والبكاء على الميت من غير نوح .... قال ابن حزم : « ليس فيه النهى عن الغناء فى غير العرس » .

ومن طريق حماد بن زيد ..... أن رجلا قدم المدنية بجوارٍ ، فأتى إلى عبد الله بن جعفر يعرضهن عليه ، فأمر جارية منهن فأخذت . . . قال أيوب : بالدف ... حتى ظن ابن عمر أنه قد نظر إلى ذلك . فقال ابن عمر : حسبك سائر

اليوم من مزمور الشيطان !!! فساومه . . . ثم جاء الرجل إلى ابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى غبنت بسبعمائة درهم !! فأتى ابن عمر إلى عبد الله ابن جعفر ، فقال له : إنه غبن بسبعمائة درهم ، فإما أن تعطيها إياه وإما أن ترد عليه بيعه ... فقال : بل نعطيها إياه ....

قال ابن حزم : « فهذا ابن عمر قد سمع الغناء ، وسعى فى بيع المغنية . وهذه أسانيد صحيحة ، لا تلك الملفقات الموضوعة !!! .... ولقد جاء عن سعيد بن ابراهيم ابن عوف أنه كان يغنى بالعود » !!

إن الحافظ بن حجر يصف الغناء المحرّم فى الفتح بأنه مايصدر : « بتمطيط وتكسير ، وتهييج وتشويق ، بما فيه تعريض بالفواحش أو تصريح » !

وما من أحد طبعا يقر هذا الغناء بهذه الصورة !!!

وقد تناول صاحب « نيل الأوطار » هذا الموضوع ، فأورد حجج من حرّم ومن أباح ، ثم قال :

« وفى الباب أحاديث كثيرة ، وقد وضع جماعة من أهل العلم فى ذلك مصنفات ، ولكن ضعّفها جميعاً بعض أهل العلم .... وذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر وجماعة من الصوفية إلى الترخيص فى السماع ، ولو مع العود واليراع . وقد حكى أبو منصور البغدادى الشافعى فى مؤلفه فى السماع : أن عبد الله ابن جعفر كان لا يرى بالغناء بأساً ، ويصوغ الألحان لجواريه ويسمعها منهن على أوتاره ، وكان ذلك فى زمن أمير المؤمنين على رضى الله عنه . وحكى الأستاذ المذكور مثل ذلك عن : القاضى شريح ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء بن أبى رباح ، والزهرى ، والشعبى . وقال إمام الحرمين فى النهاية وابن أبى الدم : نقل الأثبات من المؤرخين أنّ عبد الله بن الزبير كان له جوار عوّادات ، وأنّ ابن عمر دخل عليه

وإلى جنبه عود... وروى ابن حزم فى رسالته فى السماع بسنده إلى ابن سيرين قال : إن رجلا قدم المدنية بجوار فنزل على عبد الله بن عمر وفيهن جارية تضرب ، فدله ابن عمر على عبد الله ن جعفر .... وروى صاحب العقد العلامة الأديب أبو عمر الأندلسى : أن عبد الله بن عمر دخل على ابن جعفر فوجد عنده جارية فى حجرها عود ، قال لابن عمر : هل ترى بذلك بأساً ؟ قال لا بأس بهذا .... وحكى الماوردى : عن معاوية وعمرو بن العاص أنهما سمعا العود عند ابن جعفر . . . وروى أبو الفرج الأصبهانى : أن حسان بن ثابت سمع من عزة الميلاء الغناء بالمزهر — العود — بشعر من شعره ، وذكر المبرد : نحو ذلك .... وذكر الإدفوى : أن عمر بن عبد العزيز كان يسمع من جواريه — قبل الخلافة ... ونقل ابن السمعانى : الترخيص عن طاووس . ونقله ابن قتيبة وصاحب الإمتاع : عن قاضى المدينة سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الزهرى من التابعين ، ونقله أبو يعلى الخليلى فى الإرشاد : عن عبد العزيز بن سلمة الماجشون مفتى المدينة . وحكى الرويانى عن القفّال : أن مذهب مالك إباحة الغناء بالمعازف ، وحكى أبو منصور الفورانى مثل ذلك . وذكر أبو طالب المكى فى قوت القلوب عن شعبة : أنه سمع طنبورا فى بيت المنهال بن عمرو المحدث المشهور . وحكى أبو الفضل بن طاهر فى مؤلفه فى السماع : إنه لاخلاف بين أهل المدينة فى إباحة العود . . . . وحكى الماوردى : إباحة العود عن بعض الشافعية . وحكاه أبو الفضل بن طاهر عن أبى اسحق الشيرازى. وحكاه الإسنوى: فى المهمات عن الرويانى والماوردى . ورواه ابن النحوى : عن أبى منصور . وحكاه ابن الملقن فى العمدة : عن ابن طاهر . وحكاه الإدفوى عن عز الدين بن عبد السلام . وحكاه صاحب الإمتاع عن أبى بكر بن العربى . وجزم بالإباحة الإدفوى .... هؤلاء جميعاً قالوا بتحليل السماع مع آلة من الآلات المعروفة .

وأما مجرد الغناء من غير آلة ، فقال الإدفوى فى الإمتاع : إن الغزالى فى بعض تآليفه الفقهية نقل الاتفاق على حله . ونقل ابن طاهر : إجماع الصحابة والتابعين عليه . ونقل التاج الفزارى وابن قتيبة : إجماع أهل الحرمين عليه . ونقل ابن طاهر وابن قتيبة : إجماع أهل المدينة عليه . وقال الماوردى : لم يزل أهل الحجاز يرخصون فيه فى أفضل أيام السنة المأمور فيها بالعبادة والذكر . قال ابن النحوى فى العمدة . وقد روى الغناء وسماعه عن جماعة من الصحابة والتابعين .... فمن الصحابة : عمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وبلال ، وعبد الله بن الأرقم ، وأسامة بن زيد ، وأبو مسعود الأنصارى ، وحمزة ، وابن عمر ، والبراء بن مالك ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وحسان ، والمغيرة بن شعبه ، وعمرو بن العاص ، وعائشة .... (وذكر الرواة والمخرّجين) .... وأما التابعون : فسعيد بن المسيب ، وسالم بن عمرو ابن حسان ، وخارجة بن زيد ، وشريح وسعيد ابن جبير ، وعامر الشعبى ، وعبد الله بن أبى عتيق ، وعطاء بن أبى رباح ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، وعمر بن عبد العزيز ، وسعد بن إبراهيم الزهرى ... وأما تابعوهم : فخلق لايحصون منهم . الأئمة الأربعة ، وابن عيينة ، وجمهور الشافعية — انتهى كلام ابن النحوى .

قال المجوزون : ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ولا فى معقولها من القياس والاستدلال ما يقتضى تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات .... وقد ردُّوا على الحديث الذى رواه أبو عامر وأبو مالك الأشعرى وأخرجه البخارى : « ليكونن من أمتى قوم يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف » بأمور : أولها : اضطراب السنَد والمتن ، وثانيها : الاختلاف فى مدلول المعازف ، وثالثها : احتمال أن تكون المعازف المنصوص

على تحريمها هى المقترنة بشرب الخمر ، ورابعها : أن يكون المراد يستحلون مجموع الأمور المذكورة ...

والأحاديث فى هذا كثيرة وقد صنف فى جمعها جماعة من العلماء : كابن حزم وابن طاهر ، وابن أبى الدنيا ، وابن حمدان الأربلى ، والذهبى ، وغيرهم . وقد أجاب المجوزون عنها : بأنه قد ضعفها جماعة من الظاهرية والمالكية والحنابلة والشافعية — وقد تقدم ماقاله ابن حزم — ووافقه على ذلك أبو بكر ابن العربى فى كتابه الأحكام وقال : لم يصح فى التحريم شىء . وكذلك قال الغزالى ، وابن النحوى فى العمدة ، وهكذا قال ابن طاهر : إنه لم يصح منها حرف واحد . . . ومن جملة ماقاله المجوّزون : لو حكمنا بتحريم اللهو لكونه لهواً لكان جميع مافى الدنيا محرما لأنه لهو ، لقوله تعالى (إنما الحياة لهو ولعب) » ! !

ولقد كانت أحفال الزواج ، هى منتديات العرب ومباهجهم . . . . لذلك أوصى رسول الله بالعناية بهذا الجانب الترفيهى من الحياة الاجتماعية ....

روى أحمد والبخارى عن عائشة : زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال النبى « ياعائشة ، ما كان معكم لهو ؟؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو » !

وروى ابن ماجة عن ابن عباس قال : أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار ، فجاء رسول الله فقال : أهديتم الفتاة ؟؟ قالوا : نعم . قال : أرسلتم معها من يغنى ؟ ؟ قالت : لا . فقال رسول الله : « إن الأنصار قوم فيها غزل ، فلو بعثتم معها من يقول : أتيناكم أتيناكم ، فحيّانا وحيّاكم » !

وأخرج أحمد فى المسند : إن النبى كان يكره نكاح السر حتى يضرب

بدف ، ويقال : أتيناكم أتيناكم ، فحيونا نحييكم !

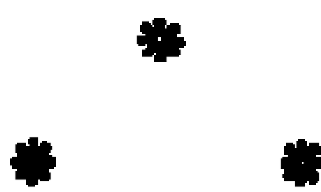
واحتفالا بإحدى الغزوات ، نذرت جارية أن تضرب بين يدى رسول الله بالدف وتغنى عند عودته المظفرة . . . فأذن لها رسول الله بذلك . . . ودخل أبو بكر وعثمان وهى تضرب ، فلما دخل عمر توقفت .....

ولقد قال المانعون ، حين لزمتهم الحجة ، بتخصيص الإباحة بأحفال الزواج والأعياد .... وقد رد ابن حزم : بعدم وجود دليل على التخصيص . وقالوا فى شأن حديث الجارية : إنه كان للوفاء بالنذر . . . . وهكذا ، لا تعوزهم الاحتجاجات بالتخصيص !!!

وردّ المجوّزون على هذا (الدفع) . « دلت الأدلة على أنه لا نذر فى معصية الله ، فالإذن منه عليه الصلاة والسلام لهذه المرأة بالضرب يدل على أن ما فعلته ليس بمعصية » !

والغناء قد يكون تفريجا عن الهم والحزن . . . . عن خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوذ قالت : دخل على النبي غداة بنى علىّ ، فجلس على فراشى كمجلسك منى ، وجويرات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائى يوم بدر . قالت إحداهن : وفينا نبى يعلم ما فى غد .... فقال النبى : لا تقولى هكذا ، وقولى كما كنت تقولين — رواه الجماعة إلا مسلما والنسائى .

هذه جملة صالحة من النصوص والشروح ، نكتفى بها لنعالج جوانب أخرى من البحث ، تكشف لنا مدلول النصوص على أضواء اللغة والفنّ والمجتمع .



ثانيا : دلالة اللغــة

ماذا تعنى هذه الألفاظ : معازف ... مزامير ... قيان ؟ ؟

لابدّ لتحقيق مرامى النصوص الإسلامية التى نحن بصددها من نظرات :

- نظرة لغوية : تكشف عن علاقة أدوات التعبير بواقع المجتمع

- نظرة فنيــة : تعرض لصورة الفنّ فى العصر الذى صــدرت فيه النصوص ، ومدى ماحدث من تطوّر بعد ذلك

- نظرة اجتماعية : تنفذ إلى تحليل العلاقة بين إساءة الظن بالموسيقى والغناء وبين المركز الاجتماعى للمشتغلين بهذه الفنون ، وخاصة (طبقة القيان)

- نظرة فقهية : تُرينا انعكاس هذا الواقع الفنى الاجتماعى على صفحات (الأحاديث) ، مما أدىّ إلى ركام من المصنوع والموضوع يصوّر البغض المتأصّل للعزف والغناء والقيان وينفّر الناس من هذا كله .

ولنبدأ بالنظرة اللغوية .....

إن من المهم جدا أن نقرأ النصوص الإسلامية فى ضوء واقعها التاريخى وصورتها التطبيقية .... وهذا أمر ينبغى اعتباره عند استنباط الأحكام الشرعية من هــذه النصوص ، خاصــة فى أمور المعاملات ومسائل الحيــاة العملية الجارية المتطوّرة .

فالدين حين يبيح شيئا أو يحرّم شيئا ، إنما يفعل ذلك بالنسبة لصورة قائمة

واقعة : هى مفهوم العصر والبيئة عن ذلك الشىء ، بل المفهوم الذى لا يخطر على بال من يسمع عن هذا الشىء فى ذلك الوقت سواه ... وكثير من اللبس والتخليط يصيبنا من جرّاء أخذ معانى الألفاظ على صور أخرى فى عصر غير العصر الذى قيلت فيه ، حيث يفهمها الناس بغير ما كان يفهمها أسلافهم !

وأحبّ أن أنقل هنا كلمات رائعة لأديب ناقد كبير ، ولها أهميتها بالنسبة لموضوعنا ، خاصة لأن صاحبها عالج موضوعات شتى على أساس النصوص القرآنية ، وله : « التصوير الفنى فى القرآن » ، « مشاهد القيامة فى القرآن » ، علاوة على ذلك العمل الفذّ الكبير « فى ظلال القرآن » ...

يقول الأستاذ سيد قطب :

« ... إن الألفاظ التى نتخذها اليوم للتفاهم ، إنما هى وسيلة لا غاية ، وإنها رموز ظاهرة لمعانى وأحاسيس مضمرة ، وإنها تستمدّ قيمتها الحقيقية من قيمة ما ترمز إليه ، بقدر ما نستطيع الكشف عن هذا الذى ترمز إليه .

والألفاظ — فى هذا — كالعملة الورقية المضمونة برصيد من الذهب ، ونحن نتعامل بها حسب ما ترمز إليه من الرصيد ، ولا بدّ لكى نثق بها ونتداولها أن تكشف لنا عن هذا الرصيد الذى تساويه .

والألفاظ التى نتعامل بها الآن لم نضعها نحن ولم نشترك فى وضعها ، وقد تمّ هذا فى عصور سحيقة ، تعدّ بالقياس إلينا فى طفولة الإنسانية ، فكان من أثر هذا أننا نراها اليوم ألفاظا غامضة مجملة الدلالة ، وكثير منها ليس له فى أذهاننا معنى دقيق محدّد . . .

وأنا أزعم أنّ اللفظ الذى لم ينبعث من فم القائل إلا بعد وجود صورة

معينة يرمز إليها فى ذهنه ... هو كذلك لا ينشىء فى ذهن السامع صورة لا عهد له بها من قبل ، ولكنه يقتصر على استدعاء الصورة أو الصور الكامنة فى نفسه والتى يرمز لها هذا اللفظ عنده .

وقد يختلط علينا الأمر فى بعض الأحيان ، فنحسب أن لفظا معينا قد أنشأ فى أنفسنا — إنشاء — صورة لا عهد لنا بها البتّة . وتفسير هذا أن هذه الصورة لا بدّ أن يكون لنا بها صلة سابقة ، نتيجة لتجربة شخصية أو إنسانية ، ثم خفيت علينا وبعدت عن وعينا ، حتى استدعاها ذلك اللفظ حين سمعناه أو قرأناه .

فكلمة (الجبل) مثلا : لا تدلّ على شىء البتّة فى ذهن من لم ير جبلا ، أو مرئيا ما يقرب إلى ذهنه صورة الجبـــــل ، وقد تصوّر له شكلا من الأشكال هو أبعـد ما يكون عن شكل الجبل المعروف ، كما يقع كثيرا للمـكفوفين وللأطفال .

وهذه الـكلمة نفسها تشعّ فى ذهن من رأى جبلا واحدا صورة واحدة — هى صورة الجبل الذى رآه ، بينما هى تشع خمس صور لمن رأى خمسة جبال مختلفة الأشكال ، وتشع عشر صور لمن رأى عشرة جبال مختلفات ، وهكذا . ومثل هذا كلمات : قط ، كلب ، حصان ، شجرة ، زهرة ، نبات . . . إلى آخر أسماء الذوات .

أما المعنى الذهنى المجرد ، المنتزع من جميع الأشكال ، والذى لا يتقيّد بشكل من هذه الأشكال ، فلا يكاد يقيم فى الذهن لحظة ، ثم يأخذ الخيال فى استعراض الشكل أو الأشكال التى يستدعيها هذا اللفظ فى الحال .

وإذا صحّ هذا فى (أسماء الذوات) وهى قريبة الإدراك سهلة التصور، والاختلاف فيها محدود لأنها موكولة — فى الغالب — إلى الحواس، فكم يكون مقدار الاختلاف فى إشعاع ألفاظ المعانى: كالحب والبغض، والمروءة والنذالة، والذكاء والغباء، واللذّة والألم... ثم كم يكون الاختلاف فيما تشعّه — بعد ذلك — النصوص التى تتولّى تصوير عاطفة من العواطف أو خيالا من الأخيلة أو حالة من الحالات النفسية على وجه الإجمال؟؟

وقد يكون هذا الاختلاف نعمة جميلة فى عالم الفنون بما يجدّد من أنماط القول وصور الأداء، وبما يعرضه من عوالم النفوس وغرائب الشخصيات. ولكنّه — مع هذا أو بسبب هذا — يخلق لنا عناء بعد عناء، بتعارض الآراء فى الأثر الأدبى الواحد، بل الأداء الفنى الواحد، بالقياس إلى ما يشعه من الصور فى الأذهان، وما يستحضره من الحالات فى النفوس»[1]!!

هذه الحقيقة اللغوية الهامة التى قررها الأديب الناقد، تؤيدها الأبحاث اللغوية الاجتماعية:

«فتتأثر اللغة أيّما تأثر بحضارة الأمة، ونظمها وتقاليدها، وعقائدها واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرها إلى الحياة، وأحوال بيئتها الجغرافية، وشئونها الاجتماعية العامة — وما إلى ذلك، فكل تطوّر يحدث فى ناحية من هذه النواحى يتردد صداه فى أداة التعبير .... فكلما اتسعت حضارة الأمة وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ورقى تفكيرها وتهذبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها وسمت أساليبها وتعدّدت فيها فنون القول ودقت معانى مفرداتها القديمة

(١) كتب وشخصيات: ص ١٠: ١٣

ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس ، وللتعبير عن المسمّيات والأفكار الجديدة . . . واللغة مرآة ينعكس فيها ما يسير عليه الناطقون بها فى شئونهم الاجتماعية العامة : فعقائد الأمة وتقاليدها وما تخضع له من مبادىء فى نواحى السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة — كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة فى جميع مظاهرها : فى الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب . . . .

ومن خصائص تطور الدلالة اللغوية La Sementique أنه يسير ببطء وتدرّج ، ويحدث بطريق آلى ، ويخضع لقوانين جبرية ... والتطور الدلالى فى غالب أحواله مقيّد بالزمان والمكان ، عام الأثر على جميع الأفراد .

وللتطوّر الدلالى عوامل كثيرة ... منها ما يتعلق باستخدام الكلمات ، ومنها مايتعلق بمبلغ وضوح الكلمة فى الذهن : فكلما كان مدلول الكلمة واضحا فى الأذهان قلّ تعرّضه للتغير ، وكلما كان مبهما غامضا مرنا كثر تقلّبه وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف . ومن عوامل التطور الدلالى كذلك ما يتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف : فكثيراً ماينجم عن هذا الانتقال تغير فى معانى المفردات ، وذلك أن الجيل اللاحق لايفهم جميع الكلمات على الوجه الذى يفهمها عليه الجيل السابق ، ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات فى غير ماوضعت له عن طريق التوسع أو المجاز . وكثيرا ما يتغير مدلول الكلمة على أثر انتقالها من لغة إلى لغة . وقد يكون

العامل فى تغيير معنى الـكلمة : أنّ الشيء نفسه الذى تدل عليه قد تغيّرت طبيعته أو عناصره أو وظائفـه أو الشئون الاجتماعيـة المتصلة به وما إلى ذلك . فـكلمة الريشة مثلا Plume كانت تطلق على آلة الـكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولـكن تغيّر الآن مدلولها الأصلى تبعا لتغير المادة المتخذة منها آلة الـكتابة ..... الخ »[1]

هذه الحقيقة الاجتماعية عن التطور اللغوى مطردة بالنسبة لـكل اللغات ، وقد قررها علماء ينتسبون لألسنة شتى ...

يقول الأستاذ جوزيف فندريس رئيس الجمعية اللغوية بباريس فى مؤلفه عن (اللغة) :

« ... والـكلمات دائما : قيمة حضورية Atcuelle — يعنى أنها محدودة باللحظة التى تستعمل فيهـــا ، ومفردة — يعنى أنها خاصة بالاستعمال الوقتى الذى تستعمل فيه . . .

وإذا كان النظام الصوتى يستقر منذ الطفولة ويستمر طول الحياة ، فإن المفردات على العكس من ذلك لا تستقر على حال لأنها تتبع الظروف . فالعلاقات الاجتماعية والصناعات والعدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات وتقضى على الـكلمات القديمة أو تحوّر معناها وتتطلب خلق كلمات جديدة ، ونشاط الذهن يستدعى دائما للعمل فى المفردات . . . تزوّد كل كلمة فى لحظة استعمالها تزويدا تاما بقيمة وقتية تبعد عنها جميع القيم الناتجة من الاستعمالات الأخرى التى تصلح

---

(١) على عبد الواحد وافى : علم اللغة ص ١٧٩ : ١٨٢ ، ٢٢٤ : ٢٢٣

لها الـكلمة ، ومع ذلك فإن استعمال الـكلمات يقوم بواسطة هذا التنوع نفسه بتأثير دائم على دلالتها .... ومن الخطأ أن نعد اللغة كائنا مثاليا ، تتطور مستقلة عن البشر وتتبع أغراضها الخاصة بها . إن اللغة لا توجد خارج أولئك الذين يفـكرون ويتكلمون ، إنها تمد جذورها فى أعماق الضمير الفردى ، ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاه الناس . غير أن الضمير الفردى ليس إلا عنصرا من عناصر الضمير الجمعى الذى يفرض قوانينه على كل فرد من الأفراد ، وعلى هذا فتطور اللغات ليس إلا مظهرا من مظاهر تطور الجماعات »(١) .

*

* *

(١) تعريب الدواخلى والقصاص : ص ٢٢٦ ، ٢٤٦ ـ ٧ ، ٢٥٢ ، ٤٣٣ ـ ٤

ثالثا : شاهد الفن

إن كثيرا من الموسيقى القائمة فى الوقت الذى تكلّم فيه رسول الإسلام كانت جديرة بما خلع عليها من وصف : صوت عند نغمة ، لهو ولعب ومزامير شيطان …

فقد « ارتبط معنى الفنّ طويلا بفكرة اللذة والسرور — كما يقول الدكتور فؤاد زكريا …. والبعض يفهمون اللذة بمعنى سلبى فتكون حالة يتقبّل فيها الإنسان مؤثرا خارجيا وينفعل له فى استرخاء …ومثل هذا الفهم لمعنى اللذة الفنية يلقى اعتراضات عديدة فى كل مجالات الفنون ….

فى وسعنا أن نلخّص التطور الذى مرّت به الموسيقى من حيث قدرتها التعبيرية ووظيفتها وأسلوبها فى عبارة واحدة ، هى أنها قد سارت تدريجيا فى طريق طويل تحوّلت فيه من فنّ ذى نطاق ضيق فى تعبيره ووظيفته وأسلوبه ، إلى فنّ شامل ذى صبغة إنسانية عامة …

ليس لدينا فى الشرق فنّ موسيقى بالمعنى الصحيح… فعالمنا الموسيقى ينحصر فى نطاق ضيّق للغاية هو نطاق الأغنية ، وحتى فى هذا النطاق الضيّق لا تؤدى الموسيقى وظيفتها الصحيحة على الإطلاق ….

وللموسيقى الشرقية التقليدية صفة ذات دلالة نفسية بالغة ، تلك الصفة التى أطلق عليها اسم : (الرجوع الدائم إلى القرار) !! فمن المعروف أن لكل سلمّ موسيقى — أو مقام — قرارا هو النغمة الرئيسية التى يسمّى السلمّ باسمها ، ومن صفات القرار أنه يبعث شعورا بالاكتفاء إذا ما انتهى اللحن إليه . لهذا كانت الموسيقى العربية تحرص على أن تقف عند القرار والأصوات المتوافقة معه فى ختام

القطعة فحسب أو فى ختام جزء هام منها ... أما الموسيقى الشرقية — فى صورتها التقليدية بوجه خاص ، فهى ترجع إلى القرار فى كل فقرة قصيرة من فقراتها . ويستطيع القارىء أن يتصوّر المقصود بصفة الرجوع الدائم إلى القرار إذا استرجع ما يحدث فى غناء الليالى والمواويل التقليدية ، فبعد كل فقرة من الفقرات يشعر المستمع بالراحة والاكتفاء إذا ما أنهاها المغنّى بما يسمّى (قفلة !) صحيحة ، وعندئذ يردّد المستمع وراءه كلمة (آه) إذا سمح المجال ! ! ! ولهذه الصفة نتيجة هامة تحكمت فى طبيعة المستمع الشرقى ، فالمستمع الشرقى يبحث عن النشوة العاجلة ، وعن الطرب المستمر فى الألحان ! إنه لا يبذل جهدا فى الفهم أو التعمق : فكل ما يسمعه بسيط سطحى...»[1] .

هذه مقتطفات تكشف عن نقط الضعف فى الموسيقى الشرقية . . . . وهى ثغرات جعلت من الأداء الموسيقى والغنائى عندنا صورا من التثنّى والتقصّع فى كثير من الأحيان لا يرتضيها ذوق أو دين !

والدكتور حسين فوزى يبرز هذه الحقيقة نفسها فى جلاء : « إننى أكره الاستماع إلى الموسيقيين المصريين الأحياء أو إلى موسيقاهم مباشرة ، بسبب الحالة البدائية العجيبة التى تجعل قاعات السماع فى مصر شبيهة بالاحتفالات الانتخابية أو المظاهرات الشعبية !!.... أستمع إذن إليهم كلهم فى هدوء مكتبى ، وأقدّر لهم ما يؤدون لفن الموسيقى من ضروب التجديد التى تشهد لهم بالحيوية والنزوع إلى الارتقاء ، إنما الأمر لا يعدو الحدود التى وقفت عندها الموسيقى الشرقية ! فليس يكفى أن يضع هذا الملحّن وذاك عنوانا لعمله : أوبرا أو موسيقى وصفية ،

---

(١) التعبير الموسيقى (مكتبة مصر) : ص ٢٩ ، ٤٤ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٠ : ٨٣
[فصول : المعنى فى الموسيقى ، التطور الموسيقى ، مشكلة الموسيقى الشرقية]

وأن يتحوّل من الدولاب والموشح والدور والبشرف ، لتنطلق الموسيقى المصرية من عقالها الميلودى ! وإذا كانت الميلودية قديرة فى حدودها على التعبير عن شتى العواطف البدائية ، وإذا كان (الطرب) طبيعيا فى الإنسان ، فإن موسيقى الطرب وحدها لا تتعدّى فى الفنون الأخرى ما بلغته الرسوم الحائطية تصوّر عودة الحجّاج ومواقع الزير سالم ، أو الأدب فى الموّال ونوادر جحا !! »

هذه هى موسيقانا الشرقية اليوم فى نظر التحليل الفنى . . . . فهل يستغرب أن ينكر دين مثل هذه التوقيعات منذ قرون ؟ ؟

ولكى نعرف الفارق بين ما وصلت إليه الموسيقى الغربية ، وبين ما كانت عليه الموسيقى فى دورها البدائى ، فلنقرأ ما يقرره العالم الفنان الدكتور فوزى :

« آن الوقت للسامع المصرى المثقف أن ينصرف عن فكرة الاستماع (للطرب) وحده ، إذا طمع فى تذوّق الأعمال الموسيقية الكبرى التى لم تعد وقفا على شعب متحضّر دون آخر — تلك التى تقابل فى الآداب ملاحم هوميروس والدراما اليونانية وكوميديات شكسبير . وهى لم تبلغ هذا المدى عن طريق (الميلودية) وحدها ، بل بعد ما تطوّرت على أساس (التآلف الهارمونى)، والتوزيع بين مختلف الآلات الموسيقية ...

والموسيقى العظمى تتميّز عن بقية الفنون بنشأتها الحديثة فى الخمسة قرون الأخيرة ، لم تعرف فى أية حضارة من الحضارات التى تداولت البشر سوى الحضارة الغربية ، فلا ريب أن تكون آخر مقوّمات الحضارة الحديثة تقبّلا عند الشعوب التى تقتبس هذه الحضارة فى شتى مظاهرها . وإذا كان الشعر وجد من قديم الزمان عظماءه يرتفعون به عن مرتبة الحداء والترنّم إلى الشعر

القصصى والتمثيلى ، وكان الفن البلاستيكى قد حقق جلّ معجزاته فى شباب الأمم ذات الحضارة ، فإن الموسيقى لم تجد شكسبيرها وهوميروسها قبل أن يضع بالسترينا وشوتس وجوسكان دى پريه ألحانهم فيما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى ، بل قبل أن يحقق هيندل ويوحنا سباستيان باخ وأبناؤه فى موسيقاهم نزعة الأجيال التى سبقتهم ...

وكما أنك تتطلب أساسا من الثقافة والاطلاع لتطالع رسائل ابن رشد ، أو رواية فاوست ، أو لتشاهد صور ليوناردو وتيسيان، فإنك بحاجة إلى الاستعداد النفسى والثقافى الكامل لتسمع سمفونية لموزارت أو قدّاسا لباخ ! والسامع للموسيقى السمفونية ، يتابع بناء من الأنغام المتآلفة تتلوّن بألوان الآلات المختلفة للأوركستر وتتطوّر تبعا لتطوّر اللحن أو لتغيّرات الإيقاع ، كما يتابع الواقف بمعبد الكرنك أو بباب السلطان حسن أو فوق ربوة الأكربول أو فى لوجيا الفاتيكان مجموع الخطوط والأقواس والألوان التى حققها رجال أفذاذ فى عالم العمارة والحفر والتصوير ! والموسيقى حركة فى الزمان ، كما أن هذه الفنون حركة فى الفضاء ، ثابتة بثبات مادتها متحركة بروح الفنان الذى أبدعها ...

حينئذ قد تدرك بعض سرّ تلك المعجزة الفنّية التى حققتها الموسيقى الأوربية وحدها منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، عندما ترك المنشدون غناء اللحن من طبقة واحدة إلى الغناء من طبقات متفاوتة . ثم جاء الفلمنكيون وبالسترينا وباخ ليخلقوا فى عالم النغم أعمالا تقارن بأعمال أعظم الفلاسفة والشعراء والمصورين ...

وليست المسألة مسألة شرق أو غرب ، فلا حضارة اليوم بنت اليوم ولا هى من عمل شعب واحد أو قارة واحدة ، وإنما هى النتيجة الطبيعية لتطور كافة

الحضارات التي ظهرت على وجه البسيطة ، ولعل لنا فيها كمصريين أكثر الحقوق بما قدّمته حضاراتنا الفرعونية واللاجيدية والقبطية والإسلامية على مدى الأجيال من عناصر التقدّم والتعمق والارتقاء . ولن تتقدّم الموسيقى المصرية كما تقدّم التمثيل والطب والقانون فى مصر إلا على أساس هذه الدراسة — دراسة القواعد العصرية للموسيقى وتطبيقها سماعا وعزفا لأعمال عظماء الموسيقيين ....

فقد وجد عامتنا — بل وخاصتنا — فى الموسيقى الميلودية وفى أصوات المغنين كل كفايتهم من (الحظ والطرب) ، ووجد موسيقاريونا من بعض رجال الفكر سندا يدافعون به عن (الربع مقام) والتقاليد والقومية ! ولست أرى عيبا أن يختم القاضى والسياسى والكمسارى والطالب والطبيب والبوّاب يومه المجهد بلحظات من التفريج عن النفس والتفريج عن طريق هذه الموسيقى الشعبية ، وليس لى ما آخذه على العوام أن تكون هذه الموسيقى منتهى أمامهم فى الترفيه ، ولكنى أرفض أن يقف ذوق القاضى والوزير والكاتب والمهندس عند حدّ هذا الفن البدائى ، فالأمر أجلّ من أن يكون حكاية ترويح عن النفس كأنه (عشرة طاولة) يلعبها رجال مجهدون ذهنيا !! ... إنما الموضوع خاص بالثقافة العليا فى مصر — الثقافة بمعناها الكامل ...[1] »

والدكتور فوزى يقدّم لنا نموذجا للتطور الموسيقى الضخم الذى قدّمته الموسيقى الغربية للحضارة الإنسانية :

« وقد نشأ فنّ الأوبرا صحيحا ، على أساس خدمة اللفظ باللحن ، مستمدّا فى أول الأمر طرازه من الترتيل الدينى ، كأن يقرأ الكلام المنظوم أو المنثور

---

(١) سندباد إلى الغرب (المعارف) : ص ١٨٧ : ١٩٢ .

فى شيء من النغم — وتلاوة القرآن نموذج حىّ ماثل الروعة إلى يومنا هذا ، وكانت أوبرات مونتفردى نموذجا لهذا الفنّ التمثيلى الذى لم تخرجه الموسيقى عن طريقه فى الأداء . ولكن الانصراف إلى الغناء الفردى — إلى (الطرب) فيما يعرف باللحن أو الأغنية Aria انحار بالأوبرا إلى نوع من الغناء المشجى يقوم به كبار المغنين ويعرضون جمال صوتهم وبراعتهم فى ألحان لاعلاقة لها بحوادث الأوبرا ، وما القصة هنا إلا خيط رقيق من الوقائع ينتقل بالسامع من أغنيـة إلى أغنية ، حتى أصبح المرسح نوعا من التخت يخطر فوقه المطربون فى لباس تمثيلى يتابعون قصة معينة ، ولـكن الحقيقـة وجمال الشعر وصدق الموقف التمثيلى — كل ذلك يختفى تحت وابل من الآهات والزقزقـة يرتفع بها صوت المغنى ويهبط وهو يُوشّيها بضروب من التطريز والحليات تباعد بينها وبين أى غرض درامى . وقد نبغ المؤلفون من الايطاليون فى هذا نبوغا فاجعل المدرسـة الإيطالية فى موسيقى الأوبرا تتحكمّ فى مسارح أوربا جمعـاء إلى يومنا هذا .

ولـكن ثلاثة رجال نجحوا فى العودة بالأوبرا إلى معناها ومبناها ،وأخضعوا موسيقاها إلى التطوّرات التمثيلية وإلى ألفاظ شعرها : وهم جلوك وموزارت وفيبر — وكلهم من الألمان ... انتهى أولهم إلى الاستقرار فى باريس ويعتبر ركنا من أركان الفنّ الغنائى فى فرنسا ، أما موزارت فقد حقّق توافقا نادر المثال بين الأوبرا الإيطاليـة والفنّ الألمـــانى ، وفيبر هو مؤسس الأوبرا الألمانية البحث ....

وحينما شرع فاجنر فى خلق موسيقاه المسرحية متأثرا خطى جلوك وفيبر لاقى مايلاقى كبار المصلحين من العنت ....

وليس غريبا أن نرى فاجنر وهو من جبابرة الإنسانية يتابع تطورات فنه وحدها ، ويرقى به من قنة إلى قنة ، ويقاوم تيارات (الحلاوة والطرب) بعزيمة لاتنى ، ويتلقى معونة المؤمنين بموسيقاه ، فلا ينفرط عقد القرن التاسع عشر حتى يكون ريتشارد فاجنر قد وضع الدرامات الغنائية الكبرى التى تقوم كالجبال الشماء فى عالم الفنون ، تشرف من علاها على سهول الطراوة والطرب . . . . ! !

ولم يكن فاجنر ليكتفى بهذه النهضة الغنائية على أساس الموسيقى الغنائية وحدها ، إنما كانت حاسته الموسيقية المرهفة وإعجابه ودراسته لموسيقى باخ وموزارت وبيتهوفن تفتح له آفاقا فى الموسيقى المسرحية لم يفكر بها رائداه العظيمان جلوك وفيبر . فالأوبرا بعد فاجنر — أو الدراما الغنائية كما يسميها — هى سمفونية كبرى ، تبدأ من مقدمتها فى الأوركسترا إلى آخر لحن فيها مُوحدّة الفكرة موصولة الأجزاء ، بما يجرى فى أعطافها من ألحان دالة **leitmotif** تتحوّل وتتطوّر ، وتتسع وتضيق تبعا لقواعد تطوّر الألحان ونموّها فى السمفونية — مع الانتفاع بهذه الألحان فى تصوير الأشخاص وعواطفهم ومتابعة الحدث الدرامى عن كثب ، إلى حدّ أنك إذا أحسنت الإصغاء إلى الأوركستر وساعدتك ذاكرة موسيقية متوسطة ، فإنك تشعر بالأحداث التى تعبرّ عنها القصّة والشعر تحيا حياة موسيقية محض وتضيف إلى روعة الغناء !

وهذا الغناء لم يعد (شجى وطربا) ولم يعد استعراضا لجمال صوت المغنى وبراعة فى استحداث الحليات ، بل أصبح إيقاعا دراميا يأخذ السامع إلى صميم الحوادث والعواطف ، ولا يترك له متسعا للتصفيق عند آخر الأغنية ، فليس هناك

أغنيات بالمعنى الإيطـالى ... وإنما هو نهر عظيم من النغم يفيض من قرار الأوركستر إلى قبة المسرح »[١] !!

ينبغى إذن الحذر والتدقيق عندما نحدد مدلول كلمة (موسيقى) ... وبالتالى عندما نحدّد موقف الإسلام من الموسيقى والغناء ، فما أبعد الفارق بين موسيقى وموسيقى ! !

إن مدلول الألفاظ لا يكفى فيه العلم بالنصوص والمفردات ، بل لا بد من استيعـاب المفهوم الفنى والاجتماعى ، ومتابعـة التطوّر الحضـارى عن وعى ودراسة :

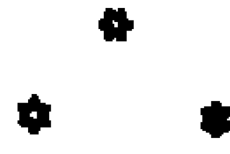
« فالموسيقى السمفونية — كما يقرر الدكتور فوزى — أعمال فنيـة رفيعة جداً . . . وهى بحاجة إلى فهم أساسى لوسائلها وأهدافها تقتضينا أن ننصت إليها فى انتباه كامل ، حتى نستطيع بعد شىء من الجهد الفـكرى النفاذ إلى صميم جمالها الوجدانى . وقد يبدو هذا صعبا لمن اعتاد الاستماع إلى الموسيقى فى حالة سلبية .، تاركا للألحان وحدها مهمة عمله على أجنحتها فى طراوة ورقة . . . . فالموسيقى عند هذا وأشباهه محض شعور بالنغم — وهى حالة نعبّر عنهـا بكلمة (الطرب) فى معناها الضيّق ، لأن الطـرب بمعناه الواسـع شعور مترامى الضروب وهو أسـاس الحاسة الفنية ، فأنت تطرب لنغمته كما تطرب لمشهـد مسجد أثرى أو لسماع شعر المتنبى أو قصيدة روميو ! . . . .

---

(١) المصدر نفسه : ص ٢٣٧ : ٢٤٠

والطرب الذى تثيره الموسيقى الغربية هو هذا الطرب بمعناه الفنى العميق ، ولكن بلوغه يطالبنا بفهم وسائل هذه الموسيقى وإدراك أغراضها حتى تكشف لنا من جمالها الفنى الذى يقارن — كما أقول وأكرر — بالعمارة المتناسقة والقصائد الكبرى وبالصور والتماثيل الباقية على مدى الأجيال آثارا خالدة للانسانية العليا ..... »[1] !

ترى هل يمكن أن تكون هذه القمم الشامخة .... من بين مايعنيه الحديث بمزامير الشيطان ؟ ؟



(١) الموسيقى السيمفونية (المعارف) : ص١٧ — ١٨

رابعا : واقع المجتمع

ارتبط الغناء والموسيقى فى العصر الذى نحن بصدده بطبقة القيان .....

فلا عجب أن نرى هذا الارتباط واضحا فى أحاديث الحظر ، فهى تمزج النهى عن المعازف بالنهى عن اتخاذ القينات ، ومن ذلك ما أورده ابن القيم عن أحمد والترمذى : « ... باستحلالهم الخمر وضربهم الدفوف ، واتخاذهم القينات » ، وعن ابن أبى الدنيا : «... اتخذوا المعازف والدفوف والقينات ، فباتوا على شربهم ولهوهم » . وهذه رواية أصرح دلالة عن الترمذى وأحمد : « لا تبيعوا القينات ولا تعلموهن ، ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام » ... ومما أورده ابن حزم فى هذا الوجه لينقده : « من جلس إلى قينة فسمع منها ... »، « من مات وعنده جارية مغنية.... » ، « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن وثمنهن حرام »[1] ... الخ .

ومن هنا نستطيع أن نفهم حكمة راوى حديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت رسول الله — إذ حرص على أن يتحفظ فى وصف الجارتين فيقول : « ... وليستا بمغنيتين » .

وإذا كانت (طبقة القيان) لم تأخذ وضعها المتميز فى المجتمع الإسلامى على نطاق واسع إلا بعد عصر الرسالة بفترة ، إلا أن أخبار القيان لم تكن غريبة عن البيئة العربية منذ جاهليتها . فلم يكن العرب فى عزلة قبل الإسلام عن العالم المتحضر حولهم ، فالحيرة منفذهم لمجتمع الفرس وديار الغساسنة معبر لعادات الروم ، وتجارة الرقيق وقتها تجارة دولية سرعان ما تنشر بين الأرجاء ما يتناقله الرقيق والقيان من خصائص

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ : ص ٢٦٢ - ٣ ، المحلى جـ ٩ : ص ٥٥ وما بعدها

الفنون والمجتمعات . قال أبو الفرج فى (الأغانى) : « سعيد بن مسجح مولى بنى جمح ، مكىّ أسود ، ومغنّ متقدّم ، من فحول المغنين وأكابرهم ، وأول من صنع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطرخوسية وانقلب إلى فارس . . . ثم قدم إلى الحجاز » .

وقد كتب أبو عثمان عمرو الجاحظ رسالته فى (القيان) ، يصوّر حال تلك الطائفة بعد أن انتشرت واشتهرت فى العصر العباسى . وقد صارت رسالته مصدرا قيما لدراسة أحوال (القيان) الفنية والاجتماعية . . . .

يقول أحمد أمين :

« ... وقد كان هؤلاء الجوارى فى الغناء على نوعين ؛ جوار مغنيات الخاصة : فالخليفة له جوار يغنينه والأمراء والأغنياء كذلك — ثم هم يتهادون هذه الجوارى حبا فى التجدّد . . . . وهناك نوع آخر وهو : قيان عامة وأكثر ما يكون أن نخّاسا يملكهن ، فيعرضهن للغناء فى محال يأوى إليها الفتيان لسماعهن والإنفاق عليهن ، ومن نماذج ذلك ماحكاه لنا صاحب الأغانى عن ابن رامين ، فقد كان له منزل بالكوفة وله جوار مغنيات أشهرهن اسمها (سلاّمة الزرقاء) ، وكان أجلّ مغنّ بالكوفة يجتمع فى بيته الفتيان للسماع والشراب ، ويقولون فيه وفى قيناته الشعر . . . وفى الحق أن هذا النوع من الجوارى أثّر أثرا سيئا فى نشر الخلاعة والمجون ، ومن قرأ رسالة (القيان) المنسوبة للجاحظ ، أو قرأ وصف (الوشّاء) فى باب ذمّ

القيان فى كتابه (الموشى) أدرك ما كان لهن من أثر ترى ظله فى شعر الشعراء الخليعين فى ذلك العصر ، وما كان أكثرهم ! ويعلل الجاحظ فساد هؤلاء الفتيات بقوله : (وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ... وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ! وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدا مايدخل فى ذلك من الشعر ، إذا ضرب بعضه ببعض كان من ذلك عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر ... العشق والصبوة والشوق ، ثم لاتنفك عن الدراسة لصناعتها منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش ! وهى مضطرة ، لأنها إن أهملتها نقصت ، وإن لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فإلى نقصان أقرب) .... وقد كان كل صنف من الجوارى يجلب وقد تكونت عاداته أو كادت ، فالروميات تحملن عادات قومهن فى الغناء وضروب الظرافة — وهكذا بقية الأمم، ثم أتين المملكة الإسلامية فنشرن عاداتهن .... ذكر الجاحظ : (أن المهدى كان يحب القيان وسماع الغناء ، وكان معجبا بجارية يقال لها (جوهر) كان اشتراها من مروان الشامى وله فيها شعر » ! [1]

وقد زاد الدكتور يوسف خليف هذه الصورة تفصيلا :

« .... كان الناس فى القرن الثانى يعيشون فى فترة قلقة مضطربة يسيطر

---

(١) ضحى الإسلام ﺟ ١ (الطبعة الأولى) : ص ٩٤ — ٥ ، ٩٧ ، ١٠٨

عليها الشك وتسودها الحيرة ، فكان طبيعيا أن يندفع بعضهم خلف الحياة التى لا اطمئنان لها ، يعبّون من كئوسها ما استطاعوا قبل أن يدركها النضوب والجفاف . وساعدهم على ذلك : تحول المجتمع الإسلامى إلى مجتمع متحضر مترف يمعن فى الأخذ بأسباب الترف والحضارة ، وانتشار العناصر الأجنبية فيه بتقاليدها الجديدة فى الحياة ، وبخاصة أولئك الجوارى اللائى كن يشعن فيه فتنة وإغراء بما يتفنن فيه من غناء وموسيقى وخلاعة ومجون ، ثم انتشار شرب الخمر الذى أصبح ظاهرة اجتماعية شائعة ....

وعرف العراق فى هذا القرن دوراً للهو والغناء كان لها أعمق الأثر فى ارتفاع هذه الموجة وانتشارها ، وهى تلك الدور المعروفة باسم (بيوت القيان) التى كان يديرها مقيّنون يتخذون من التجارة فى القيان حرفة لهم يتكسّبون منها . ولم تكن هذه التجارة تقتصر على شراء القيان وتدريبهن على الغناء والموسيقى والشعر ثم بيعهن بعد ذلك ، وإنما كانت تضيف إلى هذا كله شيئا آخر لعله كان أدرّ ربحا على أصحابها ، وهو استغلال هؤلاء القيان قبل بيعهن لتسلية روّاد هذه البيوت الذين كان أكثرهم من أبناء الطبقة الأرستقراطية وابتزاز أموالهم . وقد استطاعت هذه البيوت أن تثير الفتنة فى أرجاء المجتمع الإسلامى ، وتنشر الإغراء فى نفوس الشباب فيه . وكان بعض هذه البيوت تعمل — إلى جانب هذا كله — على الانحراف بهذا الشباب إلى الشذوذ الجنسى ، بما كانت تضمه مع جواريها من غلمان أعدّوا إعدادا خاصا لإرضاء هذا الانحراف الذى وصل فى حوالى منتصف هذا القرن إلى درجه خطيرة !.....

وفى أعماق الهاوية السحيقة مضت جماعات من الشعراء تضرب على غير هدى ، وتجرّر حبال الخلاعة ، وقد ألفّ اللهو بينهم وربط المجون بين أسبابهم :

كلهم فاسق ، وكلهم خليع ، وكلهم سكير ، وكلهم أيضا متهم في دينه وخلقه ... وظهر في الكوفة شعراء مدرسة الغناء من رُوّاد بيوت القيان،أمثال: اسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث — الذين تحوّل الغزل عندهم إلى لون من العبث بالقيان والحديث الصريح المكشوف إليهن ، فلم يعد وسيلة لتصوير عواطف الشاعر أو تصوير العلاقة بينه وبين صاحبته ، وإنما أصبح وسيلة للصيد والقنص ونصب الشراك للايقاع بهؤلاء الجوارى الجميلات اللائى يتنافس عليهن المتفوّن حولهن .... وموضوع الغزل الطبيعى : المرأة الجارية الأجنبية التى عنى صاحبها بتثقيفها وعلّمها فنون الغناء والموسيقى ورواية الشعر ونظمه ، ثم أبرزها للرجال من طلاب اللهو والفن لتغنيهم وتلهيهم وتطارحهم الشعر الماجن الخليع وأيضا لتعابثهم وتتلقى عبثهم »(١) !

هذه طائفة القيان التى ارتبطت بالفن ، وارتبط بها الفن ..... فما أتعس هذا الفن وأهله ؟ ؟

● فتمثل هذا الفن — وهؤلاء أهله — *مفسدة لكل مجتمع* . « ولقد بلغ من أثر الجوارى والقيان فى المجتمع العربى وخاصة فى العصر العباسى أن الشعراء شغلوا بهن ، وصارت الجارية شيطانة جديدة للشاعر العربى !.... وكانت ليالى بغداد على الخصوص فى القرنين الثالث والرابع تهمس فى ظلامها أنغام مما ترسله مجالس اللهو والشراب والغناء فى قصور الخلفاء والأمراء ، بل كانت بيوت المقيّنين — أو تجار القيان — مجمعا طيبا يلتقى فيه رُوّاد السمر وعُشّاق السهر من الكبراء والوزراء والأدباء والشعراء . . . فنرى (الناطق) البغدادى وكان من كبار

(١) مقال : الشعر والحياة الاجتماعية فى القرن الثانى للهجرة — العدد الحادى عشر من (المجلة) — نوفمبر سنة ١٩٥٧

المقيّنين يفتح داره كل ليلة ، وعنده الجارية (عنان) ، فما يزال السُّمار يلهون ويقصفون ويسمعون . . . وقلّ أن تجد فى المجتمع العربى بعد عصور المخالطة بالأعاجم وبعد انطلاق الشهوات إلى حدّ لم يكن للمسلمين به عهد — قلّ أن تجد المواقف العفيفة من فتيان الحب العفيف ، وقلّ أن تجد أيضا هؤلاء القيان اللائى لم يحببن الفاحشة »[1] !

● ومثل هذا الفنّ — وهؤلاء أهله — إذا تسرّب إلى قصور الملك وأجهزة الحكم نخرها وأغرقها : « فمن حرم قصر الرشيد كانت الجوارى والقيان ، ويمكن القول بأن عددهن فى القصر كان لا يقلّ عن ألفى جارية ، منهن القيان المغنيات ومنهن الضاربات الحاذقات .... وقد بلغت قيمة إحدى الجوارى القيان اللواتى كن يشترين له — وكانت خريجة دار إبراهيم الموصلى ، كما كان شأن أكثر هؤلاء القيان — سته وثلاثين ألف دينار . وقد خلّدت الأخبار أسماء كثير من هؤلاء الجوارى اللواتى استطعن أن يخلبن الرشيد ويغلبنه على أمره ، كهؤلاء الجوارى الثلاث اللواتى استهداهن — أو أهدين إليه — من الفضل بن الربيع . وكانت هذه الوسيلة — فيما يظهر — من الوسائل التى كان الفضل يصطنعها لاستهواء الرشيد والغلبة عليه ، وكذلك كان أبوه الربيع من قبل حين قدّم إلى المهدى جاريته الرائعة الفائقة الجمال أمة العزيز هدية له »[2] .

● وإقبال النّخاسين على تعليم الجوارى الغناء نوع من (تحلية البضاعة) تؤدى إلى استمرار الرق ، فى حين كان اتجاه الإسلام إلى تصفيته : بتضييق موارده وإكثار منافذ تحريره وإحسان معاملة المتبقى منه فى فترة الانتقال إلى الحرية

(١) محمد عبد الغنى حسن : ملامح من المجتمع العربى (اقرأ) : ص٢٦ : ٢٩

(٢) طه الحاجرى : قصر الرشيد (اقرأ) ص١١٤

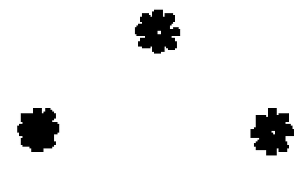
الـكاملة . وهذه السياسة التشريعية الإسلامية يتناقض معها جنون الناس بالقيان ، فقد « كان الغناء شرطا أساسيا من شروط الحسن ، يشترى المغنون الجوارى بأثمان زهيدة فيعلمونهن فنهم ثم يبيعونهن بأفحشها فيربحون ربحا كثيرا . وكان القيانون والمسئولون عنهن يرسلون بهن إلى منازل المغنين ليأخذن عنهم أصول الأصوات ، وكثيرات منهن يتجشمن العقبات فى الوصول إلى الأستاذ الماهر . وكان الخلفاء وأصحاب الشأن آنذاك إذا استمعوا إلى لحن فأعجبوا به أحبوا إلقاءه على جارية من جواريهم ، لترده عليهم عندما يشاءون . . . ولم يقتصر أثر الغناء على إثارة النفوس وتصابى الشيوخ والمبالغة فى الإنفاق لشراء المغنيات الجميلات الصوت ، وإنما تعدى كل ذلك إلى التأثير فى الحياة الاجتماعية بكاملها ، وإلى إيجاد طبقة من الناس مكرمة محترمة يصغر عندها الـكبير ويلطف بين يديها العنيف ، وحتى استبد الغناء بالأذواق ، وأصبح للمغنى والمغنية مقام رئيسى فى تـكييف الأزياء ... وترتفع أثمان الجوارى إذا أخذن الغناء عن مشاهير الفنانين، لذلك حرصن كل الحرص على أن تـكون إجازتهن ممن ذاع اسمه واتفق الناس على تقديمه وتفضيله وترديد أصواته . كان هؤلاء المغنون يؤلفون مدرسة واسعة الانتشار عظيمة الشأن من حيث عدد المترددين عليها والمستقين منها ، حتى إذا أتقنت القيان الفن ونضج حسنهن وأقبل سراة القوم على ابتياعهن تفرقن فى الخلافة الإسلامية شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، يقمن بدور أسطوانات الحاكى المعاصرة ، تسجل عليها ألحان المعلم النابغ وتنشر فى جميع الأصقاع .... » !

وقد روى صاحب (الإمتاع والمؤانسة) صورا من جلسات السماع فى منازل القيانين : فإذا من السامعين « من يضرب بنفسه الأرض ويتمرغ فى التراب ويهيج ويزبد ، فإذا دنا منه أحد عض بنابه وخمش بظفره وركل برجله» !

ومنهم « من تنقلب حماليق عينية ويسقط مغشيا عليه » ! ومنهم من « تبتلّ شيبته بالدموع ، حتى يرّق له الحاضرون فتنحدر دموعهم رحمة له ورقة عليه » ! « فقد كانت هذه المجالس تضم جماعات شتى متنوعة الأذواق متعدّدة المراتب والمقامات الاجتماعية ، يوحدّ بينهم حبهم للغناء ورغبتهم فى التحلىّ من الملاحة الدافقة فى وجوه القيان »[1] !

هؤلاء ..... هن الجوارى المغنيات أو القيان

هل من عجب أن يكون شراؤهن وبيعهن وتعليمهن .... حرام ! ! ؟؟



(١) جبور عبد النور : الجوارى (اقرأ) : ص ٦٣ ، ٧٠ — ٧١ ، ٩٥ — ٩٦

خامسا : انعكاسات فقهية

هذه الصورة التاريخية للعزف والغناء فى واقعها الفنى والاجتماعى، كانت لها انعكاساتها على متون الفقه .... فتأصلت روح العداء للسماع والقيان فى الفتاوى والأحكام !

ولم يكتف فريق من الناس بتأويل النصوص وفق ميولهم ، أو الاجتهاد فى الرأى إن لم تسعف النصوص للوصول إلى التحريم والحظر ، بل اتجه هؤلاء إلى اصطناع الأحاديث القارعة الرادعة تقربا إلى الله وتنفيرا للناس من مقارفة الآثام ، وهكذا رأينا « ... تساهل الناس فى أحاديث الترغيب والترهيب واستساغة بعضهم الوضع فيها ، لأنه يقصد بها الحث على الخير والبعد عن الشر ، كأحاديث كثيرة مما ورد فى كتاب الإحياء للغزالى ..... قال النووى : (وقد سلك مسلكهم بعض الجهلة المتسمين بسمة الزهاد ، ترغيبا فى الخير على زعمهم الباطل !!) »[1]

وتناول الوضع أحاديث التنفير من العزف والقيان ... يقول الدكتور محمد جابر عبد العال :

« ... فى عصر الأمين ، أخذت اللذة تفتن قلوب أهل بغداد والترف يلعب بعقولهم ، والمجان الشعراء فى هذا الجو يتغنون بما فى اللذة من فتنة .... فى هذا الجو الفاتن الأخاذ بقلوب الذين سيطرت عليهم الحضارة العباسية ، وجد رجال الدين — أو قل رجال الحديث — أنفسهم لا يستطيعون للحال إصلاحا ، فأخذوا يصورون هذا الفساد الخلقى فى صورة أحاديث ...

---

(١) مصطفى السباعى : السنة

وتحدّث عبد الرحمن بن الجارود بإسناد له عن رسول الله : (يكون فى أمتى خسف ومسخ وقذف ... إذا ظهرت القينات والمعازف والخمور)— وهذا الحديث يصوّر فى وضوح ما كان عليه المجان والجوارى ، كما يشير إلى فتنة الناس بالحياة الحضرية ... وأشار إلى هذه الأحاديث وغيرها يحيى بن معين فى قوله : (كان ببغداد قوم يضعون الحديث كذابين) ! ولم يكن يحيى بن معين الناقد المعروف يقول وحده بوجود هذه الطائفة التى اتخذّت من الحديث وسيلة لتصوير ما كان عليه أهل بغداد من انحدار خلقى ! ... هذه الحركة من رجال الحديث بدأت فى عصر الرشيد فيما يظهر ، وأخذت مستمرة فى طريقها ، وكان القصد منها لفت نظر الناس إلى ماهم عليه من تحوّل خلقى ، ثم جذبهم إلى تعاليم الدين . سئل أحمد بن محمد المعروف بغلام خليل عما وضعه من أحاديث قال : (وضعناها لنرقق بها قلوب العامة) »[1] !

وإلقـــاء نظرة إلى نماذج من تلك الأحاديث كفيل بتأييد هذه الحقيقة . . . فزيف الصنعة يصرخ من كلمات هذه الروايات بما تحمله من مبالغة وتهويل فى التنكير والوعيد :

« . . . وظهرت القينات والمعازف ، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء ، وزلزلة وخسفا ، ومسخا وقذفا ... الخ » —الترمذى، « يبيت طائفة من أمتى على أكل وشرب ولهو ولعب ثم يصبحون قردة وخنازير . . . باستحلالهم الخمر وضربهم الدفوف واتخاذهم القينات » — الترمذى ، أحمد ، ابن أبى الدنيا ...

والذى يتتبع اتجاه الإسلام المطرّد فى الجزاء ، يجد أنه لا يتوعّد العصاة بالطوفان أو الريح العقيم كما كان شأن الأنبياء مع الأمم السالفة ، وإنما يدع الحياة

(١) حركات الشيعة المتطرفين

الدنيا للسنن والنواميس ، ويرجىء الثواب والعقاب إلى دار القرار: « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يُبْخَسون » ، « كلاًّ نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا » . . .

فأين هذا من المسخ والخسف والأهوال الجسام ؟ ؟

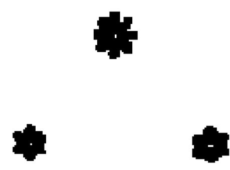
وفيما فنده ابن حزم من روايات مزعومة تطالعك الدواهى :

« من جلس إلى قينة فسمع منها ، صبّ الله فى أذنيه الآنك يوم القيامة » !

« من مات وعنده جارية مغنية ، فلا تصلوّا عليه » !

« ما رفع رجل قط عقيرة صوته بغناء ، إلا ارتدفه شيطانان يضربانه على صدره وظهره حتى يسكت » ! !

.... والله المستعان على ما يصفون ! !



وبعــد

فإن موقف الإسلام من الموسيقى والغناء، لن يعدو موقفه من الشعر، فـكلها فنون . . . .

ولئن كان الإسلام قد قدّم الرأى المباشر الصريح فى قضية الشعر، فلأنه كان فنّ العرب المقدّم بغير جدال، وكان بينهم وبين الموسيقى والغناء أشواط وأشواط.

فالشعراء يتبعهم الغاوون، إذا كانوا فى كل واديهيمون، وكانوا يقولون مالا يفعلون . . . فإن عدّلوا وجهتهم، وقوّموا سبيلهم وآمنوا وعملوا الصالحات، كانت فنونهم فى القول من صالح أعمالهم !

وكذلك الموسيقى والغناء، أنـكر منهما الإسلام ما شهده لجره فى واقع الفنّ والمجتمع، وليس يتأبدّ هذا الإنـكار على مرّ الأجيال إلا لما طابق الصورة البدائية المستهجنة التى كانت محلّ النـكير ! !

وبجانب ذلك: تقوم أدلة الإباحة تشهد بالأصل، كما تتضحّ فى نصوص النهى علّة الحظر، ويشهد التاريخ بصدق وجهة الإسلام بالنسبة لذلك الوقت، لـكن يبقى الباب مفتوحا للإبداع والتجديد والارتقاء ! !

ومع ذلك أسهم المسلمون فى فنون عصرهم قدر جهدهم فى كل ديارهم، فى دمشق وبغداد وقرطبة، وكان لدورهم الحضارى آثاره التاريخية الإنسانية ... وكم استمع الخلفاء للموسيقى والغناء — وهم الحريصون على الطابع الدينى لحـكمهم، وما كان أكثر خصومهم الذين يتسقّطون عثراتهم !!!

ولو خلّص الفن من شوائبه، وجرّد الدين من دخائله ... لجدّدت حضارتنا ماضيها الزاهر المنير.

مباهج الحياة فى نظر الإسلام

يردف الإسلام صيام رمضان ـ عيد الدستور فى الإسلام ـ بعيد الفطر . .

ويردف الإسلام أيام الحج فى ذى الحجة ـ عيد الوحدة فى الإسلام ـ بعيد النحر .

وينظر الإسلام إلى هذا وذاك على أنه عيد ...

عيد فيه معنى البهجة والفرحة ، واللعب واللهو البرئ ، . . وإشارة النص إلى أن هذين العيدين بديلان أفضل وأخير ليومين كان العرب « يلعبون » فيهما فى الجاهلية — إشارة النص إلى هذا لا تخلو من دلالة معبرة ! !

وهكذا تتعانق شعائر الصيام والحج والتبتل ، مع شعائر الفرح والمرح . .

إن الحياة فى الإسلام مستقيمة . . ليس فيها نسك الأعاجم ، وعبوس المتزمّتين ، وإضناء الجسد بدعوى ترقية الروح . . .

الحياة فى الإسلام متكاملة . . .

ترضى الجسد والروح ، وتستوعب الجدّ واللهو ، وتستكمل الحاجات والأشواق ، وتستجيب لضغط الضرورة ودواعى الزينة والجمال والكمال !

* * *

فى القرآن الكريم ، نقرأ قول الله : « والخيل والبغال والحمير ... لتركبوها ، وزينة » ! !

وفى القرآن الكريم ، نقرأ قول الله : « يا بنى آدم . . خذوا زينتكم ، عند كل مسجد » ! !

وفى القرآن الكريم نقرأ قول الله : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ! !

وفى القرآن الكريم ، نقرأ أن نبيا صالحا من أنبياء الله رضى أن يرسل ابنه الحبيب — الذى هو بدوره نبى كريم — ليلهو ويلعب : « أرسله معنا غدا . . يرتع ويلعب . . . وإنا له لحافظون » ! !

فالإسلام لا يصادر مباهج الحياة ، ولا يحرم طيبات ما أحل الله . . .

والإسلام لا يعرف التقوى المرهقة القاسية :

إنه يفرض الوضوء طهارة ونظافة . . . ثم يردف الحكم بالحكمة : « . . . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » !

ويفرض الصلاة . . ثم يردف الشعيرة ببيان الغاية : « وأقم الصلاة . . . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ماتصنعون » !

ويفرض الصيام . . . ثم يقرر أن الأصل هو التيسير : « . . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » !

وأحكام الإسلام . . . تختار صاحب « الصوت الجميل » للأذان ، وتفضل « الأحسن وجها » على غيره ممن تتوافر فيهم شروط الإمامة فى الصلاة ! !

* * *

تحدث الإمام الجليل ابن حزم عن سماع الألحان والغناء فكان له رأيه الجليل المشهور ، وقد قرر أن « بيع المزامير والعيدان ، والمعازف والطنابير — حلال كله . ومن كسر شيئاً ضمنه . . . » ! !

وهو يناقش مدلول اللهو الذى ذمّه القرآن ، ويقرر أن اللهو فى الأصل مباح فيقول فى معرض مناقشة الآية القرآنية الكريمة « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين » :

« هذه صفة من فعلها كان كافراً بلا خلاف ، إذ اتخذ سبيل الله تعالى هزوا . ولو أن امرءا اشترى مصحفا ليضل به عن سبيل الله تعالى ويتخذها هزوا لكان كافرا ! — فهذا هو الذى ذمّ الله تعالى ، وما ذمّ قط عز وجل من اشترى لهو الحديث ليلتهى به ويروّح نفسه ، لا ليضل عن سبيل الله تعالى . . . فمن نوى باستماع الغناء عونا على معصية الله تعالى فهو فاسق ، وكذلك كل شىء غير الغناء ! ! ومن نوى ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عزّ وجل وينشط نفسه بذلك على البر فهو مطيع ، ومن لم ينو طاعة ولا معصية فهو لغو معفو عنه .... كخروج الإنسان إلى بستانه متنزها ، وقعوده على باب داره متفرّجا ، وصباغة ثوبه لازورديا أو أخضر أو غير ذلك ، ومدّ ساقه وقبضها ، وسائر أفعاله ... !! »

وورى فى حياة رسول الله ... أتقى الخلق لله وأعبدهم له ، هذه الروائع : فى الصحيحين عن عروة بن الزبير عن عائشة قال : دخل على رسول الله فى يوم عيد ، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث .... إلى آخر الحديث ، كما سبق البيان .

عليه رسول الله فقال دعهما . . . وعلق ابن حزم على هذا الحديث « فصح أن الغناء مباح مطلق لا كراهية فيه ، وأن من أنكره فقد أخطأ بلا شك »!!

وهو يروى أيضا من طريق مسلم عن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة ، قالت : جاء حبش يزفنون (أى يرقصون) فى يوم عيد فى المسجد ، فدعانى النبى حتى وضعت رأسى على منكبه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التى انصرفت عن النظر ! !

ودلالة هذه النصوص واضحة ...

والذى يعنينا من رأى ابن حزم بصفة خاصة فى هذا المقام : نظرته إلى اللهو، وتصنيفه لأنواعه ، وحكم هذه الأنواع ما بين الحل والحرمة . . فأيًّا كان رأيه فى السماع ، فإن فى تفرقته بين اللهو المباح والمحرم ، وتقريره الأصل فى الإباحة ، انتصاراً للفطرة ، وإبرازاً لروعة أحكام الإسلام ، ودلالة على حسن الفقه فى دين الله !

* * *

وتأتى الأعياد فى الإسلام ... تقريراً وتوكيداً لبهجة الحياة ! فيها يأخذ المسلمون زينتهم . . ويعلنون بهجتهم ! . وفيها يتجمعون . . . ويتزاورون ! وفيها يفرحون ... ويمرحون ! !

وهذه البهجة فى العيد مقدسة بأمر الله .. كما أن الصوم فريضة بأمر الله ، وكما أن الجد فى مواضعه مطلوب بشرع الله !

والصيام يوم العيد حرام ...

واستثارة الأحزان يوم العيد حرام . . .

إن الله يُعبد بإشاعة الفرح والسرور ، كما يُعبد بالجد في معالي الأمور ! !

* * *

والإمام ابن حزم يبيح للمسلمين التسلية والترفيه عن أنفسهم وقت الفراغ ببعض اللعب .... بالشطرنج مثلا !

. . . وبيع الشطرنج حلال ، ومن كسر شيئا ضمنه . . . . روى عن طريق عبد الملك بن حبيب أحاديث : « من لعب بالميسر — يعني النرد والشطرنج — ثم قام يصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يصلي ، أفتقول يقبل الله صلاته؟؟ » ، « الشطرنج ملعونة ، ملعون من لعب بها ، والناظر إليها كآكل لحم الخنزير » ، « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة صاحب الشاه ، الذي يقول : قتلته والله ، أهلكته والله ، استأصلته والله — إفكا وزوراً وكذباً على الله » .... وروى ابن حبيب — أيضا — عن عقبة بن عامر الجهني : « لأن أعبد وثنا من دون الله أحب إلى من أن ألعب الشطرنج ! ! » وعن علي بن أبي طالب أنه مر بمن يلعب الشطرنج فقال : « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟؟ لأن يمسك أحدكم جمرة حتى تطفى خير له من أن يمسها ، لولا أن تكون سنة لضربت بها وجوهكم » — ثم أمر بهم فحبسوا ! ...

وابن حبيب لاشيء ....

والجواب عن قولهم : أهو من الحق أم من الباطل ؟ — كجوابنا في الغناء ولا فرق .

وجاء عن سعيد بن جبير ومحمد بن سيرين أنهما كانا يحسنان اللعب بالشطرنج » !!

وقال صاحب نيل الأوطار : « حكى فى ضوء النهار عن : ابن عباس ، وأبى هريرة ، وابن سيرين ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير — أنهم أباحوه . وقال ابن كثير : والأحاديث المروية فيه لا يصح منها شىء . ويؤيد هذا ماتقدم من أن ظهوره كان فى أيام الصحابة ، وإذا كان بحيث لا يخلو أحد اللاعبين من غنم أو غرم فهو من القمار ، وعليه يحمل ما قاله علىّ إنه من الميسر . والمجوّزون له قالوا : إن فيه فائدة وهى معرفة تدبير الحروب ومعرفة المكائد فأشبه السبق والرمى ، وإذا كان على عوض كان كمال الرهان . . . . وروى أن ابن مغفر وابن المسيب رخصا فى النرد على غير قمار . . . . قال الشوكانى : وأقل أحواله أن يكون من المشتبهات ... والمؤمنون وقّافون عند الشبهات !!! »

والإسراف فى استعمال الشبهات ، توسيع لتعدّى الاستثناء على الأصل ....

والمبالغة فى تحريم الأشياء ، بحجة أنها خالية من النفع ، أو بحجة أنها من اللهو .... فيها مجافاة لروح الإسلام وأصوله !

ففى الإسلام دائرة واسعة شاسعة فسيحة ، اسمها المباح .... تنتظم كل شىء — لم يرد فيه أمر ولا نهى ، وهى الأصل فى كل شىء .... ومن البديهى أن دائرة المأمورات والمحظورات تصغر بجانب دائرة المباح . وحسب المباح ألا يكون ضاراً ، وألا يكون محرماً !! ...

وليست أوامر الإسلام كلها مقصورة على شعائر العبادات ... إن العلم عبادة ،

والعمل عبادة ، ورعاية الأسرة عبادة . . وقد يكون اللهو كذلك مادام مقرونا بإخلاص النية وغير خارج عن حدود الشرع !

إن مشكلة وقت الفراغ ليست يسيرة . . .

والإسلام يشحن الوقت بالتعلم ، والعمل ، وأداء الواجبات تجاه الأسرة والمجتمع والدولة ، ويجعل من المسجد مرفقاً اجتماعيا هاماً . . . ويسنّ فى العيد مباهج ومحافل ومجامع ... ويجعل فى الحج متعة الرحلة ومتعة الاجتماع علاوة على منافع الاقتصاد والسياسة ...

ومع ذلك ، فليست الحياة كلها تبعات وتكاليف ، وجدّ ووقار ، بل لابدّ من استجمام وانطلاق ...

روى الجماعة عن ابن عمر : سابق رسول الله بين الخيل ، فأرسلت التى ضمرت منها وأمدُها (الحفياء) إلى (ثنية الوداع) — حوالى ستة أميال ، والتى لم تضمر أمدُها (ثنية الوداع) إلى (مسجد بنى زريق) — حوالى ميل ...

جاء فى « نيل الأوطار » : « الحديث فيه مشروعية المسابقة ، وأنها ليست من العبث بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد فى الغزو والانتفاع بها عند الحاجة ، وهى دائرة بين الاستحباب والإباحة بحسب الباعث على ذلك . قال القرطبى : لاخلاف فى جواز المسابقة على الخيل وغيرها من الدواب وعلى الأقدام ، وكذا الرمى بالسهام واستعمال الأسلحة ، لما فى ذلك من التدرّب على الجرى » !

وروى أحمد والبخارى عن سلمة بن الأكوع قال : « مرّ رسول الله على نفر من أسلم ينتضلون بالسوق ... فقال : ارموا يابنى اسماعيل فإن أباكم

كان رامياً ، ارموا وأنا مع بنى فلان . قال فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله : مالكم لا ترمون ؟؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟؟ فقال : ارموا ، وأنا معكم كلكم » !

وروى أحمد وأبو داود عن عائشة قالت : سابقنى رسول الله فسبقته ، حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى . . . فسبقنى !! فقال : هذه بتلك !!

وروى أحمد ومسلم عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يسبق فجعل يقول : ألا سابق إلى المدينة ؟ هل من سابق ؟ فقلت : أما تكرّم كريما ولا تهاب شريفا ؟ ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله ! قال : قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى — ذرنى فلأسابق الرجل . قال : إن شئت . قال : فسبقته إلى المدينة !

وروى أبو داود عن محمد بن على بن ركانة : إن ركانة صارع النبى ، فصرعه النبى !

وعن أبى هريرة قال : بينا الحبشة يلعبون عند النبى بحرابهم ، دخل عمر فأهوى بالحصباء فحصبهم بها ، فقال رسول الله : دعهم ياعمر ! — « متفق عليه » .

وعن أنس : لما قدم رسول الله المدينة لعبت الحبشة لقدومه بحرابهم فرحاً بذلك !! — « متفق عليه » .

وجاء فى نيل الأوطار تعليقا على هذه الأحاديث : « فيها دليل على مشروعية المسابقة على الأرجل ، و بين الرجال والنساء المحارم ، وأن مثل ذلك لا ينافى الوقار والشرف والعلم والفضل وعلوّ السن ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج عائشة

إلا بعد الخمسين من عمره ، ولا فرق بين الخلاء والملأ . . . وعلى جواز المصارعة بين المسلم والكافر ، وهكذا بين المسلمين .... وعلى جواز مثل لعب الحبشة فى المسجد — كما جاء فى رواية للبخارى . قال المهلب : المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين ، فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه . وفى الحديث جواز النظر إلى اللهو المباح » ! !

فإذا أضيف إلى هذه المباحات كلها ، إباحة ألعاب التسلية : كالشطرنج ، وإباحة الموسيقى والغنـــــاء . . . . . كانت هناك ألوان تتكامل فى تعمير وقت الفراغ !

هذه الألوان ليست مجرد قتل للوقت . . إنهـا زاخرة بالمنافع النفسية والبدنية والعقلية ... ومع ذلك ، فـكل آلة فى الدنيا تعطى أجازة للتنظيف ، والتشحيم ، والغيار . . .

أفلا يكون من حق الآلة الإنسانية أن تستريح ؟ ؟

إن فى هذه الراحة نفسها . . . أكبر منفعة !!!

* * *

ولـكن المسلمين غفلوا عن هذه الصورة البهيجة لدينهم ، فقتمت حياتهم ، وغدا الناس يرون أنفسهم بين أمرين : حياة كالحة ثقيلة باسم الدين ، أو حياة منطلقة معربدة تتحلل من كل القيم ! !

ولو أنصف دعاة الدين فى عرض دينهم . . لعرضوه متكاملا ، وأبرزوا وفاقه مع الفطرة والحياة ...

إن عبد الرحمن الـكواكبي يبرز آفة التزمت والتشدد ويحذر منها فى كتابه « أم القرى » :

« ... وهكذا بالتمادى عظم التشديد فى الدين ، حتى صار إصرا وأغلالا .. فـكأننا لم نقبل ما منّ الله به علينا من التخفيف ، فوضع عنا ما كان على غيرنا من ثقيل التكاليف ...

(يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لـكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين)

فإذا كان الشارع يأمرنا بالتزام ما وضع لنا من الحدود ، فما معنى نظرنا الفضيلة فى المزيد ؟ ؟ » !!!

منطق رشيد . . .

وهو المنطق الأقوم . . . بالنسبة لأحكام الدين وطبائع النفوس على السواء !

الدّين ... في حركة

من مقوّمات الشخصية الإسلامية

الإيجابية الفعّالة

من أكبر مايهدّد الأمم والأفراد... السلبية القاتلة ، والآلية الرتيبة ـ إذ يغدو الفرد وقد هبط من الآفاق الإنسانية العليا إلى صورة من المعيشة الغريزية والأعمال التلقائية . . . يعيش ليأكل ، ويتزوج لينحب ! !

والنتيجة الحتمية لهذه السلبية هي إصابة الطاقة البشرية بالشلل . . . . الشلل العقلي : الذي ينجم عن عن تضييق الأفق والارتباط بدائرة محدودة من الاهتمامات! والشلل النفسي : إذ تقعد العزائم الإنسانية محصورة مقصورة على أنماط من الحياة لا تزيد كثيرا عما يحدث في عالم الحيوان ـ بل والجماد أيضاً !

ذلك أن العقل سما بالإنسان عن أن يكون قانون علاقته بالكون والأحياء مثل قانون الجسم الصلب الذي يتمدّد بالحرارة ، وكلّ دوره فقط أن (يتمدّد) إذا صادف الحرارة ! ! كذلك سما العقل بالإنسان عن أن يكون مثل النبات المشدود إلى الأرض ، والحيوان المرتبط بالغريزة ! !

ولن يشغل الإنسان مكانه تحت الشمس إن كان تكراراً لخلق الله في عالم المادة والنبات والحيوان ، وإن لم يكن نمطاً جديداً في الحياة والأحياء ! !

ويخطىء الإنسان إذا ظنّ أن اختيار هذا اللون من الحياة السلبية الآلية ، سيكفل له الهدوء والهناء . . . إن انفعالاته الإنسانية وإدراكاته العقلية ستظل تضغط عليه ، فتعذبه على الرغم منه ! !

وسينفق طاقته العقلية والنفسية — وهي لابد أن تعمل مثلما تعمل معدته ورئتاه — في جحره الذي يعيش فيه ، وسيدفع ضريبة الإنسانية التي تنازل عنها ورضي بالدون منها ! ! !

سيتعذب هذا الإنسان في دائرته الصغرى : دائرة نفسه وأولاده ، وجيرانه وشركائه ، وسيضغط عليه عقله كي يستعمله في أفقه الضئيل ، وستدفعه أعصابه إلى التفاعل مع الناس القلائل بحكم الضرورة ، وستتجسم مشكلاته الصغيرة ، وستتضخم متاعبه القليلة ، وسيضحي من راحته ومتعته قدر ما يضحي الإنسان الذي عرف مكانه ومكانته . . . وربما أكثر منه ، من حيث يدري أو لا يدري ! ! !

إن تهرب الإنسان من أعباء الإنسانية لن يهيء له انخلاعا من تكوينه العقلي والنفسي ، ومن هنا يشقى شقاء مضاعفاً حين لا يستعمل أدواته وملكاته استعمالها الصحيح . . .

اللهم إلا إن تصورنا إنساناً يبلغ من النجاح في تجاهل ذاته ، والتعود على أسلوب الجماد والحيوان ، أن يفقد خصائص الإنسان ! !

وسلبية الإنسان تفقده حتى أهدافه الصغيرة ! ! .... تفقده نفسه وأسرته وهما من أول ما يتجه إليه إنسان أو حيوان . . . . إذ يصاب مثل هذا المخلوق باضطراب وتخليط فتلتبس عليه المعالم ، وتضيع الأهداف — مهما كانت صغيرة ، وترتبك الخطوات وتتخبط التصرفات . . . . فإذا به لا يمسك نفسه ولا يحمي أسرته ، ويفقد كل شيء منذ أراد فقط أن يكون مجرد شيء من الأشياء ! !

والسلبي قد تهبط عليه الثروة وقد يصيبه الجاه ، ولكنه لا يستفيد من ثروة

أو جاه . . . ويراه الناس فيقولون: ياليت لنا مثل ما أوتى ، إنه لذو حظ عظيم ! ولو تبيّنوا ، لعلموا أنّ الذى لا يشعر بذاته لا يشعر بماله ومنزلته . . . وأنّ الذى قرّر أن يعيش على هامش الحياة سيعيش على هامش المال والجاه . . .

وقد يرى (العاقل !) أن يعيش سلبياً كى يكسب المال أو يصل إلى الجاه . . فسرعان ما يزداد بالمال والجاه هبوطاً فى نظر الناس ، إذ فقد الهدف الذى به تتحدّد قيمة الوسائل ... وما تجدى طائرة بمحرك ذرّى تسابق سرعة الصوت أو الضوء شخصاً لا يريد أن ينتقل من حجرة نومه ؟؟؟

* * *

والإسلام حريص على أن يفوز أفراده وجماعاته بالحياة .. إنهم دفعة للإنسانية نحو الأمام ، فكيف يدفعون غيرهم إذا فقدوا هم أولى الخصائص والمقومات ؟؟

إن عقيدة الإسلام الأساسية عقيدة إيجابية ، تدعم الشخصية الإسلامية من أول الطريق . . . .

« لا إله إلا الله » . . . .

قد يكون من الممكن أن يقول المؤمن : إن الله موجود . . . هذا القول يسمح بجواره لآلهة أخرى تخلقها الأهواء . . .

ومن هنا كانت هذه الصيغة التى تنفى كل ألوهية عن غير الله . . . إنها صرخة تتحدى الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى . . . إنها صيحة تقرّر الوضع الصحيح الصريح الذى لا يحتمل معه أى قيل وقال . . .

ولربما كان العرب يتركون محمداً لو دعا لإلهه وترك ثلاثمائة وستين إلها آخر

يعيشون حول الكعبة . . . . لكنه ألغى اعتبار هذه الأصنام ، وما زال يكافحها حتى حطمها يوم الفتح وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » !!

« *محمد رسول الله* » . . .

يؤمن المؤمن برسل الله أجمعين ، لا يفرق بين أحد منهم . . . لكنه لا يعلن فى شعار عقيدته ما قد يجمعه بالناس من أتباع عيسى وموسى ، إنه يعلن ما يميزه عن الجميع وما يفرق بينه وبين غيره . . . إنها خطة إيجابية فى الحياة !!

والقرآن . . .

كتاب واضح صريح . . . يعلن رأيه فى الديانات وأتباع الديانات ، ويدعو للجهر بهذا الرأى فينتشر مكتوبا أو مقروءاً . . . لا يوارى ولا يدارى !!

* * *

ونستطيع أن نتلمس جذور النزعة الإيجابية فى تكوين الشخصية الإسلامية حين نتعرف على مدى إيمان هذا الدين *بكرامة الإنسان* . . .

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . . .

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ...

وإن مما تميز به الإنسان وحقق له كرامته : أمانة الله التى أودعها إياه . . .

العقل . . . وبقدر ما نحرص على الإفادة من عقولنا ، وترقية مداركنا ، بقدر ما نعبد الله باستعمال نعمته !

علينا أن نفكّر . . . . وعلينا أن نتعلّم لنرقى بجهاز تفكيرنا . . . . وعلينا أن نعمل بما يستقر عليه فكرنا لتنمو قدرتنا على التفكير ، وترشد مسالكنا فى العمل !

والإسلام قد رفع قدر العقل الإنسانى إلى الذروة ، يوم اعتمد عليه فى كشف سر الوجود ، والتعرّف إلى رب الكون والناس ، والتفهّم لحقائق الدين !

لقد عرض الله الإيمان به جلّ جلاله على منطق العقل الإنسانى . . . . وأنزل كتابه يعلّم الناس مرة ومرة ومرة . . . . ويعرض حجة وحجة وحجة . . . . ويورد اعتراضات المعترضين ليردّ ويفنّد ! !

لقد أكرم الله العقل الإنسانى . . . وعلى هذا التكريم يقوم الأساس الإيجابى فى تكوين الشخصية الإسلامية !

ومن هنا قام العربى المسلم يناقش الرسول المعصوم : أهو منزل أنزلكه الله، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ . . . فلما أجابه بأنه اجتهاد ورأى ، قال له — وإن كان هو رسول الله : ليس هذا بمنزل ! !

إن من لا يحترم العقل الإنسانى لن يحترم الإنسان نفسه . . . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خاطب عقولنا ، فانظر إلى شناعة الجريمة التى يرتكبها مخلوق يريد أن يفرض على الناس قولا بغير حجة ، ورأيا بغير دليل ! وانظر إلى شناعة الجريمة التى يرتكبها من يعطّل (أمانة الله) فى الإنسان ، ونعمته التى ميّز بها

بنى آدم عن الحيوان ، والجوهرة التى حظيت بالتكليف والخطاب ، بعد منّة الله بالخلق والإبراء . . .

* * *

ثم يطلب الإسلام من أبنائه أن يبلّغوا دعوته ، ويقيموا دولته . . . .

وما دام هذا الدين *دين دعوة* فهو إيجابى . . . . وسيصل إلى مرحلة حتمية ترتفع فيها الأهواء بالسيوف فى وجه هذه الإيجابية الدافعة ، وهنا يكون من المنطق ومن مسايرة الدفعة الإيجابية أن يحمل الدين السيف ليدافع عن نفسه . . . . ويكون من المنطق ومن الإيجابية كذلك ألا يترك الميدان خلاء إذا صرع الأعداء ، فيقيم دولة الإسلام لتحمى الكسب الذى أحرزه العقل الإنسانى والعزم الإنسانى طوال طريق الكفاح !

والدولة الإسلامية : حين تقوم ، تواصل كفاحها الايجابى فى الداخل وفى الخارج ، فليس سلطانها نهاية تتقلّص جهودها على حمايته ، فتخسره وتخسر نفسها ! إنها تواصل الجهد والجهاد فى إيجابيتها على نطاق عالى : « الذين إن مكنّاهم فى الأرض: أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » !

* * *

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : من قواعد الإسلام الإيجابية . . .

إن الناس حين يسمعون : ينبغى أن نكون كذا أو نعمل كذا ، قد يسكتون ! لكنهم حين يسمعون الحرب تشن على باطلهم ، يحسون الغضاضة ويبدأون النكير ! !

والإسلام يقرن بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويجمع بين البناء والهدم حتى لا تفرخ الشرور من جراء تميّع الدعاة إلى الخير ، وحتى لا يصبح الحق بين

(المعروف) الذى يدعى إليه ، وبين (المنكر) القائم فى الناس بالعمل ولا تمسه يد إنسان ! !

لقد دعا الإسلام الفرد والمجتمع والدولة إلى إنكار المنكر بكل وسيلة مستطاعة مشروعة ، ودعوة الإسلام صريحة فى النهى عن الشرور وزجر أصحابها ، وهى لا تقنع بكلمات منمقة عن الخير تطير فى الهواء (تتمصمص) لها الشفاه . . . .

إن كثيراً من أصحاب اللباقة يحسبون الخير فى الابتعاد عما يغضب الناس على الدوام ، وفى تملقهم بما يحبون ، أو بما يسكتون عنه ويتحملونه على الأقل !

لكن دعاة الحق .... يسلكون الطريق المستقيم إلى القلوب والعقول :

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك ، لتفترى علينا غيره ، وإذن لاتخذوك خليلا ! ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ! إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا » !!

* * *

ودولة الإسلام لا تقف سلبية إزاء العالم ... إنها تتبادل المنافع والثقافات مع الغير ، وتطلب العلم والخير من كل طريق .

وهى لاتترك المظالم الدولية تستشرى، فتهدد القيم التى تدعو إليها ، وقد تهددها هى نفسها بعد حين !! إنها لاتترك الباغى يستعلى والمظلوم يتلوى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » !!

إنها إيجابية تبدأ من أول الطريق ، على النهج الصحيح . . . من العقيدة فى أغوار النفس ، إلى العالم الواسع الشاسع الفسيح !

« فأما الزبد فيذهب جفاء .... وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

إماطة الأذى ... عن طريق الإسلام

تتعاقب الأجيال على حمل أمانات الإسلام ، منذ بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . وقد عاش هذا الدين أربعة عشر قرناً ، كان له فى كل عصر من عصور هذا التاريخ الطويل حيوية دافقة دافعة ، مستمدة من دستوره الخالد الذى « لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد » !

وكلما اعترضت طريق النور ظلمات ، قيّض الله للأمة من يجدّد لها أمر دينها ، ويخرجها من الظلمات إلى النور ....

ولقد كانت هذه « الحركات الإسلامية » ، التى تهدف لتحطيم السدود أمام دين الله ، دليلا جديداً على حيوية هذا الدين ، بجانب تاريخ الصدر الأول !

لقد كان عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته « بعثا » للأمة بل للإنسانية خلق تاريخاً ، وكانت العصور التالية عصور « صيانة » لهذا التاريخ الضخم الذى تركه الهداة المرشدون !

وقد كانت أعمال « الصيانة » التى عكف عليها أعلام التجديد الإسلامى تستهدف إماطة الأذى عن طريق الإسلام ، ليعود كما كان أيام البعث الإسلامى الأول — أو البعثة النبوية ، وليظل صافيا مطهراً مستمداً من منابعه الأصيلة حتى يوم — البعث يوم يرث الله الأرض ومن عليها .

وأصحاب هذه الحركات الإسلامية ، شخصيات مشرقة فى تاريخ الإسلام . وهم كثيراً ما ترد سيرتهم على ألسنة الناس فى استقراء جزئى محدود ، أقرب إلى دراسة التراجم والسير منه إلى ربط الحلقات لتأخذ مكانها فى تاريخ الإسلام العام

غير أن الدراسات الجزئية التفصيلية لا تغنى مطلقاً عن الدراسة التركيبية، بتتبع حركة البناء الإسلامى ووضع كل لبنة موضعها من الصرح ، فتتصل حوادث التاريخ .

ولقد تشكلت الحركات الإسلامية بأسلوب العصور التى حدثت فيها ، فكانت كل منها استجابة لمطالب المجتمع فى وقتها ....

ذلك أن الإسلام شريعة الحياة كلها ، وواجب الوقت فى الإصلاح هو تجديد المختل من دولاب الحياة ! لذلك تعددت الصور التى خرجت فيها هذه الحركات بتعدد الدوافع إليها .

ولكنها لا تخرج بالاستقراء إجمالا عن قسمين كبيرين :

● قسم يمس الإسلام فكرياً فى فقهه وتعاليمه ، ويعمل على صيانة الفقه الإسلامى حتى لا يهرج فيه الدجالون ويزيف أحكامه المبطلون .... وهنا ينبرى المجددون يصلون المسلمين بالمنابع الأصلية فى دينهم ، لينبذوا مايهرف به المشعوذون مخدّر والشعوب !

● وأما القسم الثانى من حركات التجديد الإسلامى : فهو عملى ، يمس واقع الحياة الإسلامية على اختلاف مناحيها ، ليقيسها بمقاييس الإسلام التى لا تضل ولا تزل ، وينبه المسلمين إلى المدى بينهم وبين إسلامهم ، ويأخذ بأيديهم إلى الطريق ليقرب البعيد ، فيصبح القرآن خلقاً وكتاباً مقروءاً مطبقاً فى حياة المسلمين اليومية الخاصة والعامة . ولقد سمى الإسلام على الدين «فقهاً» لا «علما» ليكون أدل على الفهم القائم على المعرفة والتأثر ، والمؤدى بعد ذلك إلى التأثير فى العمل .

ولسنا بهذا التقسيم نقول إن مجددى الفقه الإسلامى لم يكونوا مجاهدين فى سبيل تصحيح أوضاع حياة أمتهم ، أو أن المجاهدين العاملين لم يكونوا أصحاب فقه قائم على الدراسة والاجتهاد ، ولكن نطلق على كل قسم الوصف الأعم الأغلب فيه دون أن ينال ذلك من الأوصاف الأخرى التى تتوفر فيه عند التقدير

الفردى . . . وحسب التقدير العام أن يتناول الملامح البارزة والمعالم المميّزة .

هذا التقسيم الموضوعى ، بجانبه تقسيم تاريخى زمنى . . .

فإن هذه الحركات قد استوعبها تاريخ الإسلام منذ عهد بنى أمية حتّى العصر الحديث . وهذه القرون الطوال نستطيع أن نقسمها بدورها إلى قسمين كبيرين :

القسم الأول : أيام كان الإسلام ديناً ودولة

والقسم الثانى : أيام كان الإسلام ديناً نُحِّى عن الدولة

• ففى أثناء قيام دولة الإسلام : كان طبيعيا أن يبدأ الفساد — فى أول أمره — فى واقع حياة المسلمين ، لا فى نظريات الدين نفسها إذ كانت لا تزال قريبة الصلة بأعذب الموارد فى عصر النبوة ... وهنا نجد فى مجال إصلاح فساد الحكم حركات : أبى ذر وابن الزبير ، ثم الشيعة والخوارج ، وهى حركات تحتاج إلى تحليل يكشف عن الحق والباطل فيها .

وأما الفساد الاجتماعى : فمن مظاهره الترف الذى تمخّضت عنه الفتوح ، بما جلبت من غنم كثير وخير كبير . وكانت الصوفية رد فعل لهذا الترف ، انضافت إليه واردات فكرية من فلسفة الهند والرهبنة . وكان للحنابلة حركات هى مظاهر احتجاج أيضا على الانحرافات والمفاسد الاجتماعية .

وبالرغم من هذه الثغرات الاجتماعية والسياسية ، ظلّت الدولة العباسية زهاء ستة قرون . وحين ضعفت إدارتها المركزية ، ظهرت سلطات فتية جديدة استقلت بإمارات ودويلات ، ولكن ظلّت على وفائها للاسلام وعملها للاسلام واتّسامها بطابع الإسلام — مهما كانت درجة هذا كله . وإلى الدولة الغزنوية يرجع الفضل العظيم فى نشر الإسلام وامتداد دولته فى شبه القارة الهندية وأفغانستان ، كذلك وقفت مصر

أيام الأيوبيين فى وجه العدوان الصليبى وأيام المماليك فى وجه الطغيان التتارى .

● وحين تجزأت الدولة التى تجمع المسلمين ، وضاعت مكانة الخلافة التى كانت مرجعهم ، وبعدوا عن منابع الدين الصحيح ، وأدى الفساد السياسى الاجتماعى إلى الحكم بالهوى والعبث بالفتيا والتورط فى المحدثات ، شعر المسلمون بحاجتهم إلى فقه جديد يعيد الأصول ويرد إليها ، ويفتى بالقياس فى الجديد بما يناسب العصر ويقود الأمة إلى سواء السبيل . وهنا كان الأئمة الأعلام من أمثال : ابن تيمية وابن القيم ، ثم ابن عبد الوهاب فيما بعد .

● فلما زالت دولة الإسلام ، وأخذ الاستعمار يطبق على دياره ، غرق المجتمع فى الفساد الشامل، فالإدارة السياسية خربة، والحياة الاجتماعية مضطربة ، وفشا فى أواخر الحكم العثمانى الرشوة والتعسف والجور واستنزاف الأموال ، وسرى فى البلاد الفقر المدقع والجهل المهلك والمرض المدمر للروح والجسم معا .

ومن الذين حملوا أعباء الكفاح من أجل **الكيان الإسلامى** : السيد عبد الرحمن الكواكبى والسيد جمال الدين الأفغانى . فحاولا تشخيص الداء ، وجمع الأمة على كلمة سواء ....

وأما **الفكرة الإسلامية** فقد تفنن المجددون فى عرضها بأسلوب العصر ، ليجابهوا حملة الاستشراق الفكرى التى ظاهرت الاستعمار السياسى . وبمنطق البحث الجديد الذى يناسب تطور الفكر فى عصر العلم ، عمل الإمام الشيخ محمد عبده ومن بعده السيد محمد رشيد رضا وأضرابهما على إجلاء حقيقة الإسلام .

وهكذا . . . . تتابعت الحركات الإسلامية على إماطة الأذى عن طريق الإسلام ، منذ قام الإسلام . . . وفاء بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وصيانة للإسلام من كل دخل : فى مجال الفكر أو فى مجال العمل .

الحركات الإسلامية المعاصرة

من مقال بالإنجليزية للأستاذ مسعود علم الندوى

في العدد الصادر في نوفمبر ١٩٦١م من مجلة « صوت الإسلام » Voice of Islam، التي تصدر بالإنجليزية عن « جمعية الفلاح » في كراتشي ، ظهر هذا البحث عن « الحركات الإسلامية المعاصرة » ، وكان قد كتبه مسعود الندوى ١٩٥١ م . وقد نشرته المجلة وهي تقول : « على الرغم من مرور عشر سنوات ، فإن ماجاء في هذا المقال لايزال غضاً على حاله » ! وقد ترجم هذا البحث إلى الإنجليزية - عن الأردية كما يبدو - السيد سعيد مالك ، وأراد مترجمه إلى العربية - صاحب هذا الكتاب - أن يحيط المسلمون في إجمال بهذا الموضوع الجليل ، وأن يقرأوه بقلم مسلم واع غيور . . . على ألا يغفل القارىء العربي عن ملاحظة زمن كتابة المقال ، وحق كاتبه الأصيل في تقدير الأمور . «المترجم»

المسلمون في القرن الثامن عشر :

من الحقائق التي يعرفها الجميع أن العالم الإسلامي كان قد بلغ أبعد شوط في في تخليه عن القيم الدينية والأخلاقية في بداية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ، وقد تعجّب غير المسلمين أنفسهم من التفاوت البعيد بين المسلمين في عهودهم الأولى وبينهم في هذا العصر !

وقد رسم الكاتب الأمريكي لوثروب ستودارد صورة دقيقة لهذه الفترة من الهبوط والتدهور ، حتى أن الأمير شكيب أرسلان رأى أن أكثر علماء المسلمين ومفكريهم براعة وألمعية لا يستطيع أن يقدم مثل هذا التصوير في سلامته ووضوح معالمه !

ذكر ستودارد في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) : أن التدهور قد أصاب الدين

كما أصاب كل شيء آخر ، وطرح التوحيد الخالص الذى أرسى قواعده محمد عليه الصلاة والسلام لتقوم محله بالتدريج خرافات وأساطير تافهة ! وبينما تركت المساجد مهجورة مخرّبة أقبل السواد الجاهل فى المسابح والتمائم على الاستماع إلى المتصوفة فى ثيابهم القذرة وأوضاعهم الشاذة ، وتوالت الوفود على أضرحة « الأولياء » ! أما التعاليم الأخلاقية للقرآن فقد لقيت تجاهلا أو تحدياً ، ولم تسلم المدن المقدسة نفسها من أن تكون مباءة للمظالم المختلفة ! وهكذا فقد المسلمون حيويتهم ، ولو رجع محمد إلى الدنيا لاعتبر المنتسبين للإسلام مرتدين أو وثنيين !!

تباشير اليقظة :

وفى هذا الوقت ظهرت تباشير اليقظة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى ...

وقد رفع لواء الإحياء الإسلامى :

- شاه ولى الله (١١١٥ : ١١٧٦ هـ) فى الهند
- ومحمد بن إسماعيل الأمير (١٠٩٩:١١٨٢ هـ) فى اليمن ، ومحمد بن عبد الوهاب (١١١٥ : ١٢٠٦ هـ) فى نجد

وتابع الرسالة من بعدهم : الشهيدان سيد أحمد برلوى ومولانا اسماعيل الشهيد اللذان اقتفيا آثار شاه ولى الله . . . .

وواصل العمل فى الإصلاح والدعوة إلى الإسلام بنجد : علىّ سعود وعلى الشيخ من سلالة محمد بن عبد الوهاب .

أما فى اليمن فلم تستطع أية حركة منظمة أن تعمق جذورها ، وظلت الحركة التى استهلها محمد بن اسماعيل الأمير فى مكانها لا تتجاوز النطاق العلمى ، وإن كانت تكمن فيها بعض بذور التقدم . فمن بعد الأمير جاء الشوكانى (١١٧٣:١٢٥٠هـ)،

وسار على منواله ، ولـكن كان يعوزه من الغيرة والحمية ما يلزم الداعية الثورى . ومع ذلك فإن كتاباته قد زلزلت الركود المتراكم خلال القرون الماضية ، وأخذت تنتعش الدراسات في مجال الحديث والفقه وتلقى التشجيع .

• وفى هذه الفترة الأخيرة ، ظهرت حركة فى إفريقية تبشر باحتمالات كبيرة للنجاح تحت قيادة محمد بن على السنوسى (١٢٠٢ : ١٢٧٦ هـ — ١٧٨٧ : ١٨٦٠م)، وقد بلغت النجاح فى عهد خلفائه من بعده .

حركات سياسية دينية :

ازدهرت هذه الحركات الدينية والفكرية حتى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) ، حين أخذ عهد الحركات السياسية فى الظهور . وقد وجه الحركات السياسية فى أول الأمر رواد متدينون :

• فالسيد جمال الدين الأفغانى (المتوفى ١٣١٥ هـ — ١٧٩٧م) ، قد سيطر على الفكر الإسلامى طيلة نصف قرن أو أكثر .

• وجاء عبد الرحمن الكواكبى (المتوفى ١٩٠٣م) فوضع تخطيطا لوحدة المسلمين السياسية فى النطاق الدولى ، أما من الناحية العملية فلم يمكن التوصل إلى شىء ثابت أو جوهرى .

وفى خلال هذه الفترة نفسها ، برزت إلى الظهور حركتان سياسيتان دينيتان ، لم تلقيا نجاحا نتيجة المكائد والدسائس التى دبرتها القوى المعادية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان لهاتين الحركتين آثارها فى مجرى التاريخ الإسلامى . ومع أن قادة هذه الحركات لم يكن لديهم مفهوم واضح للمبادىء السياسية والاجتماعية كما أعلنها الإسلام ، إلا أن قلوبهم كانت مفعمة بحب هذه المبادىء .

ولقد برع فى استخدام السيف والقلم على السواء كل من:

- الأمير عبد القادر الجزائرى (المتوفى ١٣٠٠ هـ — ١٨٨٣م)
- والشيخ محمد شامل الداغستانى (روسيا ، المتوفى ١٢٧٨هـ — ١٨٧٠م).

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن النتائج التى حققها الزعيان فى ميدان القتال مدينة لكتاباتهما ! وعلى الرغم من أن الحركتين لم تحرزا وسائل حاسمة للعمل ، إلا أنهما كانتا ضربات عنيفة للحكومتين الفرنسية والروسية ، وتركتا فى أذهان رجالها ذكريات الشجاعة والثبات وسائر صفات القيادة النادرة .

- وفى خلال هذه الفترة كلها كانت الحركة السنوسية تتقدم فى طرابلس ، وقد حققت قوة ملحوظة فى عهد أميرها الثانى محمد مهدى السنوسى (المتوفى ١٢٣٠ هـ) ، وبدت آثارها الحقيقية بوضوح فى عهد الأمير الثالث أحمد شريف السنوسى الذى يسمية شكيب أرسلان السنوسى الكبير . وقد كان للحركة السنوسية مفهوم واضح لقواعد الإسلام وإن لم يكن هذا المفهوم دقيقا فى التفاصيل، وقد تطلع قادتها فى صدق إلى إحياء الخلافة وتأسيسها على منهاج النبوة .

ارتفاع المد القومى فى العالم الاسلامى :

واستمرت آثار هذه الحركات السياسية الدينية محسوسة حتى بداية القرن العشرين . وظهر حماس الحركة السنوسية فى كفاحها الطويل ضد إيطاليا ، فقد اضطلعت جماعة صغيرة من البدو الذين لا موارد لهم طيلة عشرين عاما (١٩١١ : ١٩٣٣ م) بمثل هذه المقاومة البطولية ضد قوة أوربية كبيرة — وهذا مثل من الأمثلة القليلة المتناثرة على مدار التاريخ .

ولكن الحركات القومية شرعت تأخذ مكانها فى أواسط القرن التاسع

عشر ، وفى بداية القرن العشرين كانت القيادة تنتقل تدريجا إلى أيدى القوميين:

• جاءت الثورة التركية سنة ١٩٠٨ م ونجحت جماعة الاتحاد والترقى، فلم يعد هناك سوى مجال ضئيل لأى حركة لا يكون لها اللون السياسى الفاقع الصريح . وقد كان بين الأتراك عدد قليل من رجال السياسة والجيش من نوع أنور باشا وسعيد حليم باشا ، ولكن تحول الميزان لصالح القومية والعنصرية الطورانية .

• وحملت الموجة القومية العرب فى أطوائها .

• وبالاختصار ، لم تأت نهاية الحرب العالمية الأولى إلا وقد تأثرت السياسة فى كل أقطار المسلمين فى العالم بآثار النزعة القومية — باستثناء الهند . وهكذا ظلت إندونيسيا والصين والملايو خالية من أية حركة إسلامية !

• وتطرفت مصر زعيمة الأقطار العربية فى اتخاذ النزعة القومية المحلية ، فإذا بها بعد أن كانت مجال نشاط جمال الدين الأفغانى عدة سنين من أجل الإصلاح ، تنحى الأفكار الإسلامية لتبرز إلى حيز الوجود زعيما قوميا متطرفا فى نزعته المحلية مثل سعد زغلول ، وفى ظله اختفى كل أثر للدين خلفة الماضى فى الحياة السياسية ! وحصر الدين فى نطاق الشئون الشخصية للفرد ، وكان شعار سعد زغلول الشهير : « الدين لله والوطن للجميع » ، وبقى هذا شعار القوميين المصريين من بعد .

وقد أعقبت الحرب العالمية الكبرى الأولى موجة عالمية من العطف على دار الخلافة (تركيا) شملت شتى أنحاء العالم الإسلامى وإن لم تكن قوية ، ولكن هذه الموجة لم تستطع أن تصل إلى نطاق واسع يشمل قطراً بأسره — باستثناء الهند ، لأن كل قطر كان يضع مشكلاته المحلية الخاصة فى المقدمة . وبإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ م ماتت هذه الحركة المحدودة ، وساد الفتور التام أنحاء العالم الإسلامى .

بالنسبة لإحياء الفكرة الإسلامية وتحقيقها . وما كاد شعاع من الأمل يبدو فى الأفق بسيطرة ابن سعود على الحجاز حتى تبدد مع الأسف بإعلانه نفسه ملكا ، وفشل اجتماع مكة الذى حضره ممثلو المسلمين فى شتى أنحاء العالم !

العالم الإسلامى فى القرن العشرين :

كان ما سلف عرضا موجزاً للحركات السياسية والدينية التى تعرض لها العالم الإسلامى فى ماضيه القريب ، ونريد الآن تجلية صورة الحركات فى القرن الحاضر.

على أثر إلغاء الأتراك للخلافة ، بدأت الأقطار الإسلامية تتجه نحو «القومية»:

● ووقع عبء قيادة العالم العربى على **مصر** بحكم وضعها التاريخى والجغرافى ، ومركز الأزهر الفكرى العالمى ، وغير ذلك من الأسباب . وبجانب ذلك تأثرت الأقطار الإسلامية غير العربية بالرأى السائد فى مصر ، نظرا لأن المطبوعات المصرية كانت تجد رواجاً ملحوظاً فى خلال العالم الإسلامى . وكانت مصر صاحبة القيادة الفكرية للعالم العربى مركزاً للنزعة القومية المحلية مع الأسف ، فبدأ شعور الاعتزاز بالفراعنة يبدو وينمو فيها ، ونظر زعماء الوطنية المصرية نظرة استنكار للإسلام بل وللعروبة منذ حوالى ربع قرن ، وباستثناء بعض الكتاب كانت الأمة تسبح بحمد الفراعنة ومدنيتهم ! وقد كان السيد جمال الدين الأفغانى وقت نزوحه من مصر قرير العين باعتبار أن محمد عبده سوف يكون أداة صالحة لإكمال رسالته ، ولكن هذا الأخير أثبت فشلا ذريعاً فى نطاق السياسة لسوء الحظ ، وحتى فى مجال الإصلاح الدينى كان ضعيفاً ! وعلى العكس من جمال الدين كان محمد عبده لا يستطيع التخلص قط من الشعور بالنقص إزاء الفكر الغربى ، وكان ينزع إلى الاعتذار لهم غالباً . ولم يستطع أن ينجب

تلميذاً من نوع ممتاز سوى رشيد رضا ، وهذا بدوره كان نشاطه محدود النطاق . وقد ظاهر العرب فى صراعهم مع الأتراك ، ومن هنا كان عاجزاً عن الشروع فى أية حركة إسلامية عالمية . وفى أواخر هذه الفترة أثمرت جهود الدكتور عبد الحميد سعيد تكوين جمعية الشبان المسلمين التى نشطت خلال حياته .

وفاض ينبوع القومية على أقطار عربية أخرى غير مصر ....

• على أن الأحوال فى منطقة شمالى افريقية كانت تختلف شيئاً ما عن الأحوال السائدة فى الشرق الأوسط . فالقومية بالمعنى الغربى لم تستطع أن تثبت أقدامها قط فى تلك الديار ، وحتى عندما كانت بعض الشخصيات تنزع هذا المنزع كانت شخصيات أخرى تحبط مسعاها . وقد كانت هذه الأقطار تحس بالعجز إزاء حكومة فرنسا فى طغيانها ، وكانت مشكلة المشاكل هناك هى التحرر من الاستعمار الأجنبى .

• وفى خلال هذه الفترة كانت المناطق الاسلامية الروسية مازالت خاضعة للطغيان والإضطهاد ، ولم يدخر الحاكمون هناك أى جهد فى العمل على استئصال الإسلام .

• وكانت حالة مسلمى الصين بالنسبة لمواطنيهم تثير الإشفاق ، ولا نجد أثراً لأية حركة إسلامية بينهم .

• ونشطت أحزاب دينية فى إندونيسيا ، بجانب حركات سياسية واشتراكية. وقبل الحرب العالمية الأولى ثبّتت « الجمعية المحمدية » « وشركة إسلام » أقدامهما ، وأعقب ذلك ظهور « نهضة العلماء » على المسرح ، وتأسست جمعية « الخلافة » قرب نهاية الحرب العالمية الكبرى الأولى . وبإيجاز كانت الحركات الإسلامية

فى إندونيسيا شيئا ملحوظاً بصورة أو بأخرى .

• وفى خلال هذه الفترة بقيت تركيا وإيران وأفغانستان تحت تأثير النزعة القومية .

* * *

بعد العرض الموجز السالف للحركات الإسلامية المختلفة فى الماضى، نصل إلى موضوعنا : «الحركات الإسلامية المعاصرة» فى العالم الإسلامى. وقد كان التحليل المتقدم — على إيجازه الشديد — ضروريا كأساس لفهم ما نريد أن نعالجه فى موضوعنا.

ونحب أن نحدد أولا مفهومنا للحركة الإسلامية : فنحن نعنى بها المحاولة المنظّمة لعرض الإسلام كفكرة أو « إيديولوجية » ، وعدم حصر نطاق تأثيره فى جانب معين من حيـاة الإنسان وشئونه ، والمحاولة من جانب آخر لإخضاع كل مظاهر حياة الفرد والجماعة لهداية الإسلام .

فى إندونيسيا :

لحزب « ماشومى » فى إندونسيا مفهوم واع واسع عالمى للاسلام باعتباره المثل الأعلى الذى يدعو إليه ، ومن هنا دأب الحزب على النضال من أجل إقامة صرح الإسلام بأقصى ما يستطيع .

ولم تخل فترة من فترات تاريخ إندونسيا من الحركات التى تحمل شيئا من الطابع الدينى ، ولـكن تسترعى الملاحظة حركة سياسية دينية واسعة النطاق فى أنحاء البلاد ارتبطت بحركة « الخلافة » . ففى ١٩٢٢م تـكونت لجنة مركزية للخلافة ، كما تأسس فرع لمؤتمر مكة الإسلامى فى ١٩٢٦م ، ولـكن هذه التنظيمات سرعان ماأدركها الذبول .

وكانت تعمل فى إندونيسيا منظمتان دينيتان « الجمعية المحمدية » ، و « جمعية نهضة العلماء » . وفى سنة ١٩٣٧ م تضامنت هاتان المنظمتان مع هيئات وجماعات أخرى لتكوين ما يسمى « بالمجلس الأعلى الإندونيسى » ، ولكن هذا المجلس حلّ أثناء الحرب العالمية الثانية .

وبعد نهاية الحرب وإعلان استقلال إندونيسيا ، التقت جميع الجماعات والهيئات الإسلامية فى إندونيسيا على صعيد واحد ، وأعلنت تأليف منظمة جديدة هى « مجلس الشورى لمسلمى إندونيسيا » . وليست كلمة « ماشومى » فى الحقيقة إلا اختصاراً لهذا الاسم ، وما لبث الحزب ان عرف بهذه التسمية المختصرة . ويحوى دستور الحزب هذا المبدأ :

« فيما يتعلق بالحكومة وسياسة البلاد مقصدنا هو تحقيق أهداف الإسلام » .

وتتنوع مجالات نشاط هذا الحزب ، كما تتنوع أساليب تفكير أعضائه أيضا ، وقد يكون من نتيجة هذا أن يفتقد الحزب « تجانس » التفكير !

وبالإضافة إلى ذلك ، توجد منظمة تسمى « دار السلام » ، وهى تقترن بأعمال العنف ، وآراؤها تفتقد التوازن !

وقد كان كل أعضاء الوفد الإندونيسى الذى حضر مؤتمر كراتشى فى فبراير ١٩٥١ م من المنتمين لحزب ماشومى . والغريب أن رئيس الوفد « شمسول ريجال » يدين ببعض التعاليم القاديانية ! وقد علم كاتب هذه السطور تلك الحقيقة من عضوين مسئولين معروفين فى نفس الوفد ، ذكرا أيضا أن الدكتور ناصر — الذى كان فى ذلك الوقت رئيسا لوزراء أندونيسيا — يتهاون فى عقد الاتفاقات حتى ولو كانت فيها مساس بأصول جوهرية !! . وبإيجاز ، أرى أن الفكر الإسلامى قائم فى إندونيسيا ، وإن

كان هناك نقص فى وضوح مفاهيمه . والقوم هناك يقفون فى صراع مجيد مع الشيوعية التى ضربت جذورها هناك ، وهناك آمال كبرى للنجاح إذا ما قدّم لهم الغذاء الفكرى .

فى شمالى إفريقية :

والارتباط بالدين والوفاء له أكثر عمقا فى الأقطار العربية المغربية فى شمالى إفريقية إذا ماقورنت بسائر أفكار الشرق الأوسط . وإذا ما استثنينا تونس ، فإننا لا نجد حركة «التغريب» هناك قد قويت قبضتها كما هى حالها فى مصر وسوريا وباكستان والهند . والمؤسسات التعليمية الإسلامية الثلاثة الشهيرة كلها فى إفريقية ، وتقع اثنتان منهما فى شمالى إفريقية :

- جامع القرويين فى فاس بمراكش
- وجامع الزيتونة فى تونس
- بجانب الأزهر ، الذى يمثل من الزاوية الجغرافية بحكم موقعه نقطة اتصال بين شمالى إفريقية والشرق الأوسط .

وبعد أن تغلّب الفرنسيون على الأمير عبد القادر الجزائرى ، خضعت مراكش وتونس للحكم الفرنسى . وقد قدّم الفرنسيون بطغيانهم واضطهادهم وافتقادهم لقيمة الفضائل الأساسية صورة تطابق صورة الأيام السوداء للسيادة الأسبانية !! والحق أن ملوك مراكش طالما كانوا خلال الأجيال باحثين وأدباء من مستوى رفيع ، أما الفرنسيون البرابرة فقد أعوزهم أدنى معانى التقدير للتعليم والفن ، وإنما استغرقهم الاهتمام بالاستعمار !! إنهم فى أوروبا أبطال « العلمانية » و « الديمقراطية » ، أما فى شمالى إفريقية فهم مشغولون كلياً

وجزئياً بالتدخل ، وتوجيه النشاط والعمل فى المؤسسات الدينية للاحتفاظ بها تحت سيطرتهم المباشرة ! وأنه لتفسير مؤسف فى حق الدوافع النفسية للمستعمرين الأوربيين ومدى أمانة هذه الدوافع ، أن يقال إنهم يحكمون بصلاحية الديمقراطية فى الظروف والأحوال الأوربية وحدها ! وبالاختصار ، يمكننا تماماً أن نقرر أنه رغم وجود (الخامات) الصالحة والحيوية اللازمة ، فإنه لا يمكن أن ننتظر ازدهار حركة إسلامية شاملة هناك بسبب طغيان الحكم الفرنسى ، وليس هناك أى إمكان لذلك فى المستقبل مادام مثل هذا الحكم على حاله[1].

وبين أقطار شمالى إفريقية ، تقرب طرابلس من الشرق الأوسط ، وقد كان عليها أن تواجه أفظع المحن والشدائد نتيجة الاستعمار الإيطالى . وبعد كفاح لم ينقطع طوال ثلاثين أو أربعين عاماً ، وبعد اجتياز ألوان شتى من الكوارث والمصاعب ، أوشك فجر الاستقلال أن يشرق على هذه الديار ، ونصّب محمد بن إدريس السنوسى — ابن عم السنوسى الكبير — ملكا . ومن السابق لأوانه بعض الشىء أن نحاول الحكم على مستقبل الإسلام كفكرة فى هذا القطر .

وتأتى بعد ذلك تونس ، ويمكن ملاحظة تأثيرات « التقليد الأوربى » فيها ، أكثر مما هى عليه فى مراكش والجزائر . وفيها جامع الزيتونة ، الذى يجتذب الدارسين حتى من الجزائر .

وفى الوقت الحاضر تسيطر على مسرح السياسة فى شمالى إفريقية شخصية شهيرة هى شخصية الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى ، وهو يعرف من جانب آخر بأنه سياسى كبير ومحارب شديد المراس . وقد يؤدى تأثيره البالغ إلى حجب

(١) المقال مكتوب ١٩٥١ م ، قبل استقلال أقطار المغرب . وينبغى أن ينظر إلى معظم آراء الكاتب بالنسبة لأوضاع المغرب فى هذا الضوء .

القادة السياسيين المتأثرين بأوربا . وقد هاجم الأمير منذ وقت قريب بورقيبة وحزبه السياسي بشدة .

وفي أقصى الغرب تقع *مراكش* ، ومن هنا تسمى بالمغرب الأقصى . وقد قسمت إلى ٣ مناطق : أكبرها تحت حكم فرنسا مع وجود أسرة حاكمة من الناحية الاسمية ، والثانية تحت نفوذ أسبانيا مع وجود فرع من الأسرة المغربية الحاكمة بغير سلطان فعلى ، والمنطقة الثالثة وهي الصغرى منطقة دولية ، وتقع حول طنجة . والمسلمون في هذه المناطق كلها متديّنون ، مغرمون بطلب العلم ، نزّاعون للإصلاح . وعلال الفاسي من زعماء المغرب كاتب كبير ، وعالم في النحو ، وشاعر ، وباحث . والحق أن سكان هذا القطر من شمالي إفريقية يتميزون بإجادتهم للعربية .

وتقع *الجزائر* بين تونس ومراكش ، وتحكمها فرنسا ، وتديرها بطريق مباشر لا عن طريق أسر وطنية حاكمة كما تجرى الأمور في مراكش وتونس . وربما كان هذا الباعث الرئيسي الذي جعل من هذه الديار مركزا للحركة الدينية التعليمية الثقافية الكبرى التي طفرت في قفزات واسعة إلى الأمام ، على الرغم مما واجهته من مقاومة الحكومة . وكان جهاد الأمير عبد القادر آخر جهد منظم لتحرير الجزائر[١] ، وقد اضطر للاستسلام ١٩١٥م . ومنذ ذلك الوقت والجزائر خاضعة لحكم غير شرعي من جانب فرنسا ، وهو حكم لايدخر وسعا في محو التعليم الديني واللغة العربية ، وتنصير الأهلين ، أو على الأقل تحويلهم إلى قوم غير متديّنين ! وقد اتخذت شتى الوسائل لتحقيق هذا الغرض الشرير ، فشجعت بعثات التبشير ، واستبعد تعليم اللغة العربية تدريجا من مدارس الحكومة ،

(١) كتب المقال قبل بدء الجهاد المظفر لجبهة التحرير الجزائرية

وأخذت الحكومة تراقب وتتحكم فى مباشرة المساجد والأوقاف — وما إليها من مؤسسات — لمهامها !

وفى ظل هذه الظروف ، شرع رجل نبيل مخلص يسمى عبد الحميد بن باديس فى الإصلاح ، وإعادة البناء منذ حوالى ثلاثين عاما . وهو دارس متعمق للقرآن والسنة ، وباحث وكاتب بالعربية ، وله موهبة الرأى المتزن . كما أنه ذا نزعة سلفية فى الفقه والدين . وقد كان من طبقة ونوع : محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، وعالم الشام عبد الرزاق البيطار ، وجمال الدين القاسمى . وقد شق طريقه على أساس سليم ، وأصدر مجلة «الشهاب» الشهرية سنة ١٣٤٣ هـ ، كما يعزى إليه ظهور صحف أسبوعية مثل : «الصراط ، الشريعة ، السنة» . وقد درس كاتب هذه السطور هذه الصحف منذ ١٣٥١ هـ ، وهو يقرر بلا تردد أنه بالنسبة لهذا اللون من الصحافة يمكن أن توضع صحف الجزائر الإسلامية فى ذلك الوقت فى مصاف أرقى مجلاتنا. وبجانب الكتابة ، عمل ابن باديس على افتتاح شبكة من المدارس الابتدائية ، وكان يقوم بالتدريس بنفسه فى قسطنطينة . وقد حمل تلاميذه وأقرانه دعوته إلى كل زاوية وركن فى البلاد ولم يدخر المتصوفة والعلماء الفاسدون وسعا فى اصطناع العراقيل فى طريقه وإعاقة تقدمه . وعلى هذا النهج تأسست « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ، ومن أول يوم لمولد هذه الجماعة والحكومة لا تطيق وجودها ، وكذلك جهلة المتصوفة . واستمرت دسائس الخصوم ، حتى اغتيل هذا المجاهد العظيم بالسم ١٣٥٤ هـ . ولكن غياب جسده عن مسرح الأحداث فى الجزائر لم يكن يعنى انقطاع حركته التى بدأها ، فقد سارت فى طريقها . وعلى رأس الجمعية الآن الشيخ محمد البشير الإبراهيمى ، وهو المشرف العام أيضاً على المؤسسات التعليمية للجمعية ، كما يرأس تحرير مجلتها ، وهو رجل باحث

مجرّب ومن صفوة رجالات العالم العربى . وهو فى رأيى كاتب لايبارى فى اللغة العربية ، و « البصائر » الأسبوعية تعتبر خير مجلة تدعو للإصلاح فى العالم العربى، والقسم الخبرى منها يبزّ فى شموله وتنوع مادته نظائره فى أرقى صحفنا . وتسير مدارس «جمعية العلماء» الابتدائية والثانوية على نظام تعليمى خاص بها بدون أية معونة من الحكومة ، وهو نظام يشبه نظام مدرسة الدعوة والإرشاد فى مصر (محمد عبده ، ورشيد رضا) ، وندوة العلماء فى الهند (لكنو) .

ويؤسفنى ألا أستطيع المضى وراء التفاصيل . . . . ولتركيز الفكرة أقول إن « جمعية العلماء » تسير بنجاح فى نظامها الخاص الذى تواجه به نظاما تعليمياً علمانياً بل نظاماً معادياً للاسلام ، فضلا عما أحرزته الجمعية من نتائج فى شتى مجالات الحياة القومية . وعلى الرغم من جهود المستعمرين فى وضع العقبات ، فإن الحركة الاصلاحية تسير قدما بصورة مرضية . ومثل هذا النظام التعليمى الحرّ المنظم لا يجد مثيلا له فى جهة أخرى من العالم الإسلامى كما نعلم . ومع أن هذه الحركة لا يمكن أن تعتبر حركة تدعو إلى إقامة الإسلام كدستور لحياة الفرد والجماعة ، إلا أنها جهد كبير يحقق الكثير فى سبيل هذه الغاية .

فى أقطار أخرى :

ولا نكاد نلقى حركة إسلامية فى بقية أنحاء العالم الإسلامى . . . .

فمسلمو روسيا يعيشون تحت طغيان وقمع . .

وربما كان مسلمو الصين يواجهون نفس الظروف .

وقد بدت بعض علامات النشاط فى بورما (أراكان) ، ولكنها مهددة بالانقضاء إذ يعوزها الزاد الفكرى والمدد المادى .

وتعانى أفغانستان الكثير من التطرف فى القومية المحلية والعنصرية .

ولم تعد تركيا متطرّفة فى حمى القومية المحلية والعنصرية ، ولكنها شاءت أن تكون فريسة طيّعة للاستعمار الأمريكى والغربى . وكان الله فى عونها !! إن لدى الأتراك حيّة دينية ، ولكن ينقصهم التفكير الصحيح والتنظيم . وقد قامت محاولة لإحياء الأفكار الدينية ونشرها فى نطاق النشاط الفردى المحدود بتوجيه أحد المتصوفة من (أسكى) يسمى بديع الزمان سعيد نرسى ، ولكنها محاولة قاصرة .

والأمور فى إيران مختلطة إلى حد كبير . ففى جانب: نجد الشيوعية تضرب جذورها والعدو الماهر يكمن لينشب براثنه فى فريسته فى أول فرصة ملائمة ، وفى الجانب الآخر : نجد القادة الدينيين الذين تعوزهم أية فكرة محدّدة وأى تفكير سليم ، ولكن استغرقهم التظاهر والتصايح ! ومن الواضح أن مهاجمة الإنجليز فحسب لن تصرف عن أمة الخطر الشيوعى ! ونحن نجد أبا القاسم كاشانى — مثل بعض قادة المسلمين فى باكستان — مستغرق فى « المظاهرات الجماهيرية » ، بينما يعوزه أى مفهوم واضح عن إحياء الإسلام وإقامة صرحة الشامخ من جديد!!

الدين والقومية

ما مدلول القومية ؟؟

وإلى أي حد يصطدم هذا المدلول بالدين ؟؟

لا شك أن القومية قد تضم أديانا مختلفة ، كما أن الدين قد ينتظم قوميات متعددة . . .

ولكن لا سبيل للفرار من الواقع التاريخي حين ينشأ دين في ظل قومية معينة فيدين به أغلبها ، وتنهض قومية في ظل دين فيرتبط تاريخها به . . .

وكثير من الباحثين قد اعتبر الدين عاملا — إن لم يكن أساسيا فعلى الأقل مساعدا — في تكوين القومية . . . . وفي مصر ، درس الأستاذ مصطفى عامر موضوع (توزيع القوميات في الشرق الأوسط) فأعطى اعتبارا للدين : « فمنذ القرن السابع أخذ الإقليم بنواحيه المختلفة يصطبغ بالصبغة الإسلامية ، وانتشر الإسلام شرقا وغربا ، وأعطى هذا لغة جديدة للأمم التي غزاها هي العربية ، ولم يحدث مثل هذا في التاريخ لغزو من قبل ، وأصبح توزيع اللغة العربية الآن غيره في القرن السابع »[1] .

وتناول الدكتور عبد الحميد متولي ركن (الأمة) في دراسته الدستورية لموضوع (الدولة) فقال : « أما العوامل التي تعمل أو تساعد على تكوين أمة فهي تشمل : وحدة اللغة والجنس والدين ووحدة العادات والمصالح ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك الذكريات المشتركة[2] » ، ومن الأمانة أن نقرر أن الدكتور متولي يعتبر الدين عاملا مساعدا فقط ، وهو يرى أن أهميته تتناقص في عصرنا — وسنعالج ذلك

(١) مصطفى عامر : مذكرات الجغرافية السياسية لليسانس الآداب ١٩٤٨

(٢) الأنظمة السياسية : ص ١٦ — ٢٧

بعد قليل ، على أنه لم يغفل تعداد ذلك العامل ورآه جديرا بالذكر .

* * *

لماذا انفصلت القومية عن الدين في الغرب ؟؟

إن الواجب العلمي يحتم هنا مناقشة الظروف التاريخية التي نشأت فيها الفكرة القومية في أوربا ، ومقارنة تلك الظروف بالظروف التي تنشأ فيها الفكرة القومية عندنا ....

فمن المعروف بلا جدال أن الفكرة القومية في أوربا نشأت في ظل (أزمة ثقة) بالنسبة للدين وكل مايتصل بالدين .... نشأت في أعقاب الكشوف الجغرافية والنهضة العلمية وتصادم العقول مع (عقل الكنيسة) ، ونشأت في أعقاب الإقطاع والاستبداد وتصادم مصالح الجماهير مع (طبقة الكنيسة) .... وأحدث الكبت العقلي والسياسي أثرها ، فكان ردّ الفعل في صفوف الشعوب وهي تحطم أغلالها ! !

القومية ، والدين .. في الشرق :

أين ظروفنا وواقعنا من هذا كله ؟ ؟

الفكرة القومية عندنا لا نتمرّد بها على الدين ولا على رجاله ، فالدين عندنا لم يصادر حرياتنا لننقم عليه ونتملّص منه ، وليس عندنا كهنوت يتحكم في دنيانا أو آخرتنا ..

فعلام الحرب في غير ميدان ؟ ؟

العكس تماما هو الصحيح ....

- فالعروبة قد جاءت إلى ديارنا بالذات — مصر — في ركاب الإسلام ....
- والعروبة نطاق ة إ قد وسّانها وخلدّه نزول القرآن ....

ومن الكتّاب من يرى أن الإسلام كان مجرد إطار تاريخي للدولة العربية ،

فيقول الأستاذ أحمد بهاء الدين مثلا : «على أن هناك سببا هاما يجعل البعض يخلطون بين العروبة والإسلام ، هذا السبب هو أن الدولة العربية القديمة أيام العباسيين والأمويين وغيرهم كانت دولة إسلامية أو ذات طابع إسلامى . ولكن هذا الوضع له سبب تاريخى ، سبب لا يقتصر على الدولة العربية القديمة وحدها ، لقد جاء حين من الدهر كانت كل دول العالم فيه ذات صبغة دينية .... الخ » !

على أن الدكتور جورج حنا يقول فى كتابه (معنى القومية العربية) : « إن العروبة ليست الإسلام والإسلام ليس العروبة »[١] ، ومع ذلك نراه أكثر فهما وإنصافا لدور الإسلام بالنسبة للقومية العربية :

« فى عصور الجاهلية كانت اللغة العربية محصورة فى البلاد المسماة الجزيرة العربية ، وكانت أجزاء هذا العالم الأخرى تتكلم لغات مختلفة : العبرانية ، الآرامية ، السريانية ، الكلدانية . ولكن لم يكن فى تلك العصور ما يسمى القومية ، كانت الشعوب وقتئذ تعيش فى وجه قبائلى وعشائرى ... على أن ظهور الرسالة الإسلامية وتوسع الفتوحات العربية حول شكل الوجود العربى من وجود قبائلى وعشائرى إلى وجود مجتمعى تشرف عليه الديانة الإسلامية ، فكان هذا الوجود البذرة التى نبت منها الوجود القومى . صحيح أن الوجود العربى آنذاك لم يكن وجوداً عربياً قومياً بقدر ما كان وجوداً عربياً إسلامياً ، غير أن التفاعل الوثيق والمستمر الذى كان يحصل فى تلك الحقبة من التاريخ بين العرب المسلمين والعرب والمسيحيين : سواء فى وقوف الطرفين موقفاً واحداً فى حروبهما ضد الأعاجم ، أم فى المخالطة المعيشية بينهما ، أم فى التعاون والتبادل المصلحى بين الجانبين ، أم اتباعهما عادات واحدة وتقاليد واحد — إن التفاعل الوثيق والمستمر

(١) ص ٧٢

هذا كان بمثابة حجر الأساس فى خلق قومية واحدة ولو لم تكن قد تبلورت بعد الفكرة القومية الصحيحة . وكان من نتيجة هذا التفاعل وانتشار الفتوحات الإسلامية أن غزت اللغة العربية كل اللغات التى كانت مستعملة قبل ذلك الحين ، وأصبحت اللغة العربية هى اللغة الرائجة عند المسلمين والمسيحيين وجعل يكتبها أهلى الديانتين على السواء . وأكثر من ذلك ، أصبحت اللغة العربية لغة الأدب والشعر والتأليف والنشر ، حتى فيما كان ينشر من الأدب غير العربى الأصل ... لذلك يصبح القول إن الفتوحات الإسلامية وضعت بذرة القومية العربية ، على أن الذين تعهدوا نمو البذرة لم يتعهدوه بدافع الوجود الدينى بل بدافع الوجود الاجتماعى والمصلحى والقومى . هذه الحقيقة التاريخية يجب ألا تغرب عن أذهان من يفهمون — أو من لهم غاية أن يفهموا — أن القومية العربية هى الإسلام ، فيغنيها المسلمون اللاواعون ، ويخشاها المسيحيون اللاواعون »[1] !

والقومية العربية طبعاً لا ترادف الإسلام ... لكن تعانق القومية العربية والإسلام لا ينكر فى ماضينا ولا حاضرنا ، ولا يخشى منه على غير المسلمين ، والدكتور المؤلف يرى الرابطة الوثيقة بين المسلمين والمسيحين قد تأثلت فى ظل الإسلام ودولة الإسلام وسماحة الإسلام ؟ ؟

هذه الظروف التاريخية ينبغى أن يقدرها الباحثون،للتمييز بين ظهور القوميات فى أوربا وبين تبلور القومية العربية هنا فى الشرق . . .

وليس من القدر المحتوم أن نأخذ (القومية الأوربية) صورة طبق الأصل لننحت على مثالها أفكارنا ومثلنا ونظمنا ! ولقد كتب الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى مجلة (صباح الخير) عندما أثارت مناقشة (القومية العربية) ، كتب

---

(١) جورج حنا : معنى القومية العربية ص ٤٧ : ٥٠

تحت عنوان (القومية العربية ليست بنظرية) : « . . . . إن القوميات ليست من عمل الفلاسفة والعلماء وليست ثمرة للمبادىء المجردة والنظريات، وإنما هى شعور مشترك بين جماهير وتجاوب بين جماعات يقوم على أسس عاطفية ومصلحية . ولم يحدث فى تاريخ الدنيا أن نشأت قومية أو خلقت عن فلسفة موضوعة ذات قواعد وأصول،حتى ننتظر المقالة أوالكتاب الذى يقنعنا عن طريق العقل بوجود القومية العربية ،ويبيّن لنا خصائصها لتصبح متميزة مشخصة عن القوميات فى العالم ، ولنقول بعدها إن قوميتنا تحكم على المذهب الفلانى بالموت وعلى الآخر بالحياة » !!! وهذه لفتة علمية بارعة تهدى إلى المنهج السليم . . . .

كذلك جلّى الأستاذ اسماعيل مظهر فيما كتبه بالمجلة نفسها — مشاركا فى تلك المناقشة — مدى عمق الصلة بين الإسلام والقومية العربية فى ضوء الواقع والتاريخ حين قال : « عرب اليوم هم ورثة عرب الأمس ، الذين نشروا الاسلام وأقاموا أسس الحرية واعترفوا بالمساواة بين الناس وشيّدوا صرح الاخاء فى عصر لم يعرف فيه إلا التباغض والتنابذ ! وينبغى لكل عربى أن يكون فى دخيلة نفسه عربياً روحاً وعقلا ، مثله الأعلى آداب العرب وآداب الاسلام ،وسياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الاسلام ... وإنما أقرن الكلام فى العروبة بالاسلام ، لأنّ الثابت الذى لا يحتاج فيه ولا ريب يداخله أن القرآن إذا نزل بلغة العرب فإن الاسلام نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا . فالعربى النصرانى مسلم بصفاته العربية ، والمسلم الهندى أو الفارسى عربى بما فى الاسلام من روح العرب . ليس فى مستطاعنا أن نفصل الاسلام عن العروبة أو نفصل العروبة عن الاسلام ، فإن الرابطة التى تربطهما رابطة طبيعية . . . . الخ »

* * *

الدولة القومية والدولة العقائدية :

ويقول الأستاذ أحمد بهاء الدين :

« إن القومية مفهومها اجتماعى لاعقائدى(!!) . . . . ألمانيا مثلا : إنها شعب واحد وقومية واحدة ، ولكن الشيوعى الألمانى فى ألمانيا الشرقية والبروتستنتى المؤمن فى ألمانيا الغربية يريدان أن تتحدّ ألمانيا . لم يفكر الشيوعى فى ألمانيا الشرقية أن يتحدّ فى قومية واحدة مع الشيوعى فى المجر أو تشيكو سلوفاكيا مثلا . . . إنه يفكر فى التحالف معها ، لا الاتحاد فى دولة واحدة وقومية واحدة . . . »

على أن الأستاذ صلاح عبد الصبور قد قال فى مجلة (صباح الخير) أثناء المناقشات التى دارت حول الموضوع : « ووجود القومية المحلية لا يتعارض مع وجود قومية أشمل وأعم . وقد تساءل أحد القراء : هل هناك قوميتان ؟ ولكن الأمر ليس حسابياً بهذه الدرجة ، وأحب هنا أن أستعير كلام الأستاذ أحمد عريقات حين يقول : (أنشئت فى الاتحاد السوفياتى وزارة القوميات ، كان وزيرها ستالين . ويفخر السوفيات بأنهم ساعدوا القوميات عندهم على التبلور وأعطيت الحكم الذاتى . . وهم يصفون نظامهم بأنه قومى الشكل اشتراكى المحتوى) » !

فيمكن إذن أن تتعدّد القوميات فى دولة اتحادية كبرى ، ويمكن أن تكون الوحدة فى هذه الحالة وحدة مبدأ وعقيدة تعلو على تباين القوميات . . . .

وقد كتب الدكتور عبد الحميد متولى أستاذ القانون الدستورى بجامعة الاسكندرية يصف النظام السياسى لحكومة الاتحاد السوفييتى ومبادئه الدستورية التى يقوم عليها فقال : « تتميز دولة الاتحاد السوفييتى كذلك بخاصية أن أساس الدولة من الناحية القانونية ليس : الإقليم Le territoire ، ولا السكان ـ أى وجود أمة معينة …

الدولة السوفييتية لا تتكون من أمة واحدة وإنما من عدة أمم مختلفة ، وحدت الاشتراكية فيما بينها . لقد قدم ستالين مشروع دستور ١٩٣٦ بمذكرة قال فيها : إن مشروع الدستور الجديد أممى فى أساسه . لذلك يقولون عن الاتحاد السوفييتى إنه ليس دولة قومية (Etat natienol) ، ولا يتطلب حدودا جغرافية معينة إذ لا حدود له سوى الاشتراكية ذاتها فهو دولة اشتراكية فدرالية سوفييتية ، مفتوحة لكل جمهورية اشتراكية حيث وجدت فى أية بقعة من بقاع الأرض ، مادامت ترغب فى الانضمام والاندماج داخل الجمهورية الفدرالية للاتحاد السوفييتى. لذلك يقال إن للاتحـــــاد السوفييتى نزعة أو استعدادا أن يكون عالميا une vocation universelle ،شأنه فى ذلك شأن الاشتراكية ذاتها »[(١)]

ومن هنا يقول الدكتور كلوفس مقصود فى مناقشات مجلة (صباح الخير) تحت عنوان : لماذا يجب أن تكون القومية العربية اشتراكية ؟؟ : « المفهوم الاشتراكى يقرر أن هناك أمة عربية واحدة ،وأن القومية العربية حركة (مرحلية) تسعى لتحقيق وحدة الأمة وحريتها ، وهى على هذا الأساس جديرة بأن يقودها الاشتراكيون ويتبعوا أهدافها . وإيجاد المفهوم الاشتراكى للعروبة يفسح المجال للاشتراكية أن تنضج من كونها (تيار) إلى أن تصبح (عقيدة) ، تؤمن للشعب العدالة والمساواة وللأمة مجال المساهمة فى الحضارة الإنسانية . ونحن إذ نصر على مفهوم اشتراكى للعروبة فلكى نضمن منذ الآن أنه فى حال تحقيق الأهداف القومية لا تصبح القومية بمجرد انتصارها عنصرا عقائديا دائما ! فالقومية تكون تقدمية عندما تسعى لتحرير الأمة ،لكن باستمرارها كحركة سياسية تعرض الأمة فى نظرنا لأن تصبح فكرة مثالية مستقلة عن الوجود الشعبى ، أى عن مستلزمات

(١) عبد الحميد متولى : الأنظمة السياسية ص ٤٧٤ — ٤٧٥

الشعب ومطالبه . فدور الاشتراكية هو حفظ صفات العقلية والإنسانية فى الحركة القومية ، هذه الصفات التى لا تحفظ إلا إذا أدركت القومية أنها مرحلة محدودة زمنيا » !! والدكتور كلوفيس مايفتأ يبدىء ويعيد فى مقاله أن « القومية ليست وجودا ، الأمة هى الوجود ، أما القومية فهى الحركة التى بواسطتها تسترجع الأمة وجودها الطبيعى البناء ، أى تسترجع حريتها ووحدتها » !

ثم إن الأستاذ أحمد بهاء الدين نفسه يقول فى ثنايا مقاله (كيف يجب أن نفهم القومية العربية) : « إن الحركات القومية البناءة لا يمكن أبدا أن تكون حركات مغلقة على نفسها ، منعزلة عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل والدولية للمجتمعات التى ظهرت فيها ... الحركات القومية التى تجاهلت هذه الظروف ، والتى اكتفت بأن تكون قومية ورفضت أن ترتبط بالتيارات الاجتماعية التقدمية فى عصرها ، انقلبت إلى حركات رجعية أو أصابها الموت السريع ... ومن أعظم الأخطار التى تتعرض لها الحركات القومية أن تنفصل عن المطالب الاجتماعية التقدمية للمجتمع الذى تشب فيه . هذه الغلطة الكبيرة وقع فيها زعيم قومى كبير مثل ماتزينى ، الذى عجز عن تقدير أهمية الحركة الاشتراكية ودورها التحريرى الكبير ، فكان من نتائج انفصاله عنها ورفضه المباشر لها أن أصيب بالفشل بعد الفشل فى حركته الباسلة لتوحيد إيطاليا ! ومن الخطر أيضا أن يحدث العكس ، من الخطر أن يتجاهل الاشتراكيون أهمية الارتباط بالحركة القومية . لقد وقع فى هذا الخطأ كثير من الاشتراكيون العرب ، الذين كانوا يرون أن دعوة الوحدة العربية دعوة رجعية لأنها تصرف جماهير الشعب عن القضية الأساسية ألا وهى تحقيق العدل الاجتماعى ! الاشتراكيون العرب الذين ارتكبوا هذه الغلطة لم يدركوا تماما الدور الذى تمر به البلاد العربية ، وأن كفاحها الأساسى فيه

هو كفاح هذا الاستعمار ، ولم يدركوا القوى الثوريه التي يمكن أن تطلقها هذه القومية من عقالها » ....

أفليس يحق للمؤمنين بـ «امرىء» كدعوة بنّاءة تلبي مطالب المجتمع وتحقق نزعته التقدمية ،أن يقولوا بتجاوب الدين مع العروبة تجاوب سائر الأفكار العقائدية مع النزعات القومية !!! ....

يقول الأستاذ اسماعيل مظهر : « إن الإسلام إنما أنزل لصلاح البشر جميعا ، وأنه من ناحية أنه دين فهو عقائد يتقيّد بها المسلم ، ومن حيث أنه أخلاق ومعاملات يعمّ الناس أجمعين . فالمسلم ينبغي له أن يعتقد أن حريته مساوية من حيث القيمة لحرية غيره ، من غير تفرقة بين الناس على اختلاف عقائدهم ونحلهم . على هذه الصورة ندرك من الإسلام أنّه دين تطوّري ما دام من مقتضياته أن يتابع الفطرة ، ويلاحظ نشوء النظامات الاجتماعية بما فيه من روح المرونة والطواعية لحاجات الإنسان على مختلف العصور ... أما الأسس الإنسانية التي نطلبها للقومية العربية ، فأرى أنها مكفولة بمبادىء الإسلام » .

ولقد دارت مساجلة بين الأستاذ صلاح عبد الصبور والدكتور منيف الرزاز ، حين كتب الأول مقاله (مطلوب أسس إنسانية للقومية العربية) وكان مما جاء فيه :

« والقومية العربية إذن قومية وضعية ظروفية ترتبط بأحداث وزمان ومكان ، وتستهدف القضاء على عدو رابض أمامنا . وثمة الذين يظنون أن القومية العربية والأمة العربية الموحّدة غاية السعي والثمرة المرتقبة للحركة الاستقلالية ، وهذا خلط

بين الغايات والوسائل ، إذ أن القومية العربية فى حقيقة الأمر وسيلة لغاية أكبر وأجدى ، والغاية الأهم والأجدى هى سعادة الإنسان ... ولذلك فمن الخطأ البيّن ما يحاوله بعض المفكرين العرب من الهجوم على الفلسفة المادية فى تعميقها للصراع الطبقى ، وفى فهمها للعلاقة بين رأس المال والإنتاج .. الخ » .

ورد الدكتور الرزّاز على ذلك بقوله :

« أما الفلسفة المادية التى يتحدث عنها الأستاذ صلاح ، فنحن نؤمن بأنها نبع سخى من ينابيع المعرفة الإنسانية ، ولكنها ليست النبع الوحيد ولا النبع النهائى ! وهى تضيف كثيرا إلى المعرفة الإنسانية والحقيقة ، ولكنها ليست الحقيقة كلها ولا السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة ! كما ندرك مبلغ خطورة التناقضات التى تصادفنا حين ننسى أنها هى نفسها نتيجة وضع معين : سيطرت فيه فلسفة هيجل المثالية من جهة ، ونظرة ريكاردو الاقتصادية من جهة أخرى، وعاشت فى مولد تناقضات الثورة الصناعية من جهة ثالثة ! فالقومية العربية إذن ليست غاية وليست وسيلة ، وإنما هى وجود حركى ذو رسالة نامية وخالدة، وهى إطار ومحتوى، والإطار قديم أما المحتوى فينبعث من الدور النضالى الذى تخوضه» !

وقد نبّه الدكتور الرزاز الأذهان فى صدر مقاله إلى أن : « بعض الناس يعتقد أن القومية العربية مجرد راية ألقيت فى ساحة المعركة الاستقلالية . . . هؤلاء الذين يتخذون هذا الموقف اليوم ، كانوا ينكرون إلى وقت قريب جدا مجرد التفكير فى شىء اسمه القومية العربية ، ولكنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارا حين رأوا طغيان معنى القومية العربية على الأمة العربية خلال العامين الأخيرين ....» !!

وقد كتب الدكتور جورج حنا يقول : « لكى تتكون مجموعة بشرية

ما قومية موحدة، يجب أن يكون بين أجزائها تجانس فى العقلية والروحية والنظرة إلى الـكون ... أى أن تـكون خصائصها الروحية والمادية قابلة لتحقيق التفاعل بين أجزائها . يعنى فى حال وجود عادات وتقاليد مختلفة بين أجزاء المجموعة ، لا يكون فى هذه الاختلافات مايشكل سببا للتباغض والقطيعة فيما بينها ، ولا يكون منها أثر تخريبى فى العقلية القومية . فالتفاهم الروحى والنفسى هو شرط من شروط القومية ... وما هو العامل الرئيسى فى التفاهم الروحى والنفسى ؟ إنه الثقـافة القومية والوطنية » . . .

وقد راح الدكتور يعالج هذا الشرط فى قوميتنا العربية : «لا سبيل لنـكران وجود فوارق غير قليلة فى عقلية الشعوب العربية وروحيتها ونظرتها إلى الـكون ، على أن من يتعمق يصل إلى أن هذه الفوارق ليست ناتجة عن عوامل داخلية جذرية فى الوجود العربى بل عن عوامل خارجة بعثتها السياسة الاستعمارية والرجعية. ولـكن صريحين ونقول إن العصبية الدينية كانت أحد العوامل وربما تـكون أهمها » !

ولعل الدكـتور جورج حنـا متأثر فيما يراه ببعض المتاعب الطائفيـة فى لبنان . . . .

لـكن العرب . . . . بالمفهوم الواسع فى الزمان والمـكان ، مثل تاريخى فى السماحة ، لم تستعر بينهم حروب صليبية ولا مذابح طائفية !!

وإذا كان الاستعمار أراد أن يستغل بعض صور الطائفية، فإنه لا ينفك يستغل كل سلاح . . .

ولو رجع العرب — على اختلاف أديانهم — لحقيقة الدين لتوفر لهم أكبر (تجانس فى العقلية والروحية والنظرة إلى الـكون) !!

لكن الدكتور حنا ترك الدين وآثاره الواقعة التى لاسبيل لإنكارها فى الثقافة والتقاليد ، وانصرف عما ينبغى عمله للإفادة من هذا الكنز الروحى النفيس بين ظهرانينا ، وأقبل ينعى على « دور الثقافة الوضيع والهزيل فى الوجود السياسى العربى »(1) !

من مفاتيح إفريقية :

يحدث هذا من كتابنا ومفكرينا ، بينما يقدم الصحفى الأمريكى كيث هويلر كبير مراسلى مجلتى (لايف) ، (تايم) Life, Time فى الشرق الأوسط دراسة عن القومية العربية فيقول : « وراء نجاح القومية العربية وسرعة تبلور أفكارها وفلسفتها ، يقف عبد الناصر — كما يقول هويلر — وبجانبه جهاز ضخم من الأنصار : الأزهر فاتيكان الإسلام وعلى رأسه شيخ الأزهر الذى قال للمراسل : لاتنس إن الإسلام ليس عبادة فحسب بل إنه قانون مدنى وجنائى ودولى أيضا » !!

والصحفى الرحالة الأمريكى المشهور جون جنثر John Gunther يكتب عن (داخل إفريقية) Inside Africa ، فيقول تحت عنوان (الإسلام : قوته الانتشارية : Islam:its penetrative force) ، بعد أن يعرض لبساطة الإسلام :

« وهذا واحد من الأسباب التى تعلل لماذا خط الإسلام مسالكه الضخمة immense inroads فى قلب أفريقيا المعاصرة ! فعدد المسلمين يكاد يتضمن ثلث مجموع سكان القارة اليوم : ٦٠,٣٥٩,٠٠٠ نسمة من بين .. ١٩٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة

(١) جورج حنا : معنى القومية العربية ص ٢٤ — ٢٥ ، ٥٦ ، ٧٢

وهم يزدادون عددا طوال الوقت .... وليس فى الإسلام تمييز عنصرى racial bias ، ومن ثم لايقوم حاجز دون تحول البانتو Bantu أو الزنوج Negros إلى رحابه . ولقد انتشر انتشارا شاملا عميا pervasively بين عبّاد الأوثان والحيوان pagans, animists ، لأن شعائره مبسّطة للغاية بقدر مافيه من جاذبية أصيلة راسخة .... ونقطة أخرى : إن الإسلام نظام اجتماعى كما هو دين ، نظام اجتماعى يمنح المؤمن اعتقاده بالمساواة مع جميع المؤمنين الآخرين ... وكثيرا مايوصف الإسلام بأنه الأكثر ديمقراطية بين ديانات العالم الكبرى » !! [1]

لست أدرى لماذا يراد أن تنحى هذه القوى الفعالة عن سياستنا القومية أو الإفريقية ؟؟

* * *

بقى أخيراً الغبار الذى يثار أحيانا عن محاولة الاستعمار الاستفادة من فكرة الاتحاد الإسلامى ....

ومقاومة المحاولة الاستعمارية لايكون بتنحية الإسلام عن مجال تفكيرنا القومى ، بل بتبصير المسلمين بحقيقة الإسلام وحقيقة المحاولة الاستعمارية على السواء ...

ومن قبل حاول الإستعمار الإفادة لصالحه من الحركة العربية فى أواخر الحرب الأولى ، فلم يقل أحد إنّ الوقاية تكون بنبذ الفكرة العربية ... كما حاول الاستعمار استغلال الوطنية المحلية ذاتها !!

---

(١) ص ٦٢ ـ ٦٣

والعرب والمسلمون يعرفون موقف أعدائهم عموما من حقيقة الإسلام ومصالح المسلمين !! وجنتر يردد فى كتابه (داخل أفريقيا) ماسمعه من موظف فرنسى : « إن الحل الوحيد لمراكش أن تحوّل إلى دولة علمانية to laicize it مثلما حوّل كمال أتاتورك تركيا لدولة علمانية » !![1]

وفى مؤتمر برنستون Princeton الذى عقدته أمريكا للثقافة الإسلامية ، كم تغنّى الدكتور Harold. B. Smith هارولد . ب . سمث أستاذ ونائب رئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية أوهايو — والذى كان رئيسا لقسم الفلسفة والأخلاق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، بفكرة «ضيا كوك آلب» عن فصل الدين عن الدولة ! ! وبرز مثل هذا الإعجاب فى بحث لويس . ف . توماس Lewis V. Thomas الأستاذ بجامعة برنستون عن (الإسلام عند الأتراك) !!

ووقوع بعض حكومات المسلمين تحت نفوذ الدول الكبرى ، لايزهدنا فى الإسلام كرابطة وقوة دافعة ، مثلما لم يزهدنا فى العروبة وقوع بعض حكومات العرب تحت نفوذ الدول الكبرى !!

هكذا يخلص الإسلام دائما أصيلا شفافا ...

يصون للناس مصالحهم ، ويعمق وجودهم وتجمعهم . . .

«وإنك لذكر ، لك ولقومك ، وسوف تسئلون » !

---

(١) ص ٦٤

مرحبًا بالجزائر

كما يكون العيد تتويجا لعمل مجيد ، ورمزا لحياة سعيدة . . .

كذلك يكون يوم إبرام اتفاق الجزائر ... تتويجا لكفاح، ورمزاً لكيان!

أما الكفاح :

فكم احتفلنا به من قبل .... نضالا يتلوه نضال ، وشهداء فى إثر شهداء !

نضال ··· لم ينقطع طيلة قرن وثلث قرن ، ودارت معركته الأخيرة سبع سنين دأبا ، وعليها مزيد نصف عام ! !

وشهداء ··· يتوا كبون بأرقام مهولة ، مئات وآلاف وعشرات الآلاف ، يقتلون ويُقتلون . وآخر موكب فى حرب السنوات السبع ، عدته مليون شهيد !!!

وأما الكيان :

فقد أعلن عن نفسه عملاقا شامخا فى خلال النضال ، وفى مواكب الشهداء . وكيف تكون « الأمة » أمة بجميع مقوماتها ، إذا لم تكن هى الأمة المتميزة المتحفزة فى جبال أوراس وصحراء الجزائر ، التى تربصت بعدوها قرنا وثلث قرن ، وكالت له الضربات من الأمام ومن الخلف ! !

وحاولت فرنسا أن تحفظ شيئاً من ماء وجهها بدعوى ترقب إجراء « الاستفتاء » ! !

إن الاستفتاء قد مهره دم مليون شهيد ... وقد عرفت فرنسا هذا ، وتصريحات « ديجول » هى تصريحات « الوداع » !

ولكنه « الانسحاب الظيف » . . . كما يقول العسكريون !! إن بقى للنظافة فى سياسة الاستعمار مجال !!

لقد كفاح الجزائر آية فى الكفاح !

شعب يطبق عليه المستعمر ليستأثر به . . . به هو ، وبالذات . . . فيقيم حوله الأسوار ، ويحكم رتاجا بعد رتاج !

يحتجز المغرب العربى عن سائر ديار العروبة ، ثم يستصفى الجزائر دون ديار المغرب . . . ثم يواصل الطرق فى هذا الشعب الأبى ، ليستهلك رواسب ماضية ، ويسكب فى روحه من روح « فرنسا » ، من لسانها وثقافتها وتقاليدها !!

ويختل التوازن أمام الطرق العنيف بين لسان ولسان ، وبين ثقافة وثقافة . ولكن هيهات أن تهتز شعرة من كيان الجزائر الأصيل أمام الدق والطرق العنيف !!

ويهاجم الجزائريون فرنسا . . .

يهاجمونها بلغة فرنسا ، وثقافة فرنسا ، وعلم فرنسا ، «وتكنيك» technique فرنسا . . يهاجمون بهذا كله ، فرنسا ذاتها !!

ويخرج المتعلمون الجزائريون من مدارس فرنسا ليهاجموا فرنسا . . . ويخرج الموظفون الجزائريون من إدارة فرنسا ليهاجموا فرنسا . . . ويخرج الجنود والضباط الجزائريون من جيش فرنسا ليهاجموا فرنسا . . .

كل هذا . . . بعد استعمار قرن وثلث !!

الله أكبر . . . أين تكون الأمة إذن إن لم تكن فى أرض الجزائر !!

رددوا مع الكاتب الجزائرى الفيلسوف « مالك بن نبى حكمته الرائعة » :

« لا تلعنوا الاستعمار وحده . . . هناك مع الاستعمار وقبل الاستعمار حالة (القابلية للاستعمار) اجعلوا لها نصيبا من لعناتكم » ! !

لقد كفاح الجزائر . . . . آية في الكفاح !

كان مدرسة . . ما أجمعها وأروعها مدرسة !

كان مدرسة تعلّم العالم أن الأمة « كيان » اجتماعي روحي ، قبل أن تكون « تخطيطا » سياسيا لحدود يثور حول تخطيطها الجدل ، ويحدّد مدّها وجزرها الزمن والقوة ! !

لقد وجدت الجزائر أمة ، ولم تغب لحظة خلال قرن وثلث كان يرتفع على هامتها فيه علم فرنسا ، وسلاح فرنسا ، ولسان فرنسا !

وجابهت الجزائر كأمة ، أمما أكثر عددا ومالا وعتادا . . . فرنسا ، وحلفاء فرنسا ، من أمم تجرجر وراءها أساطيل البر والبحر والجو والصواريخ ! !

وتداعت على الجزائر القوى الباغية . . . . وبقيت الجزائر ، وعادت القوى الباغية أدراجها بعد قتال لمدىً يزيد عن سبع سنوات ! !

إن في هذا الكون معايير اقوى مذخورة هائلة ... قوى غير المال والعتاد وغير الأعداد التي تلبس الحلل الصفراء ! !

قوى في « الانسان » .. مصدرها الانتصار الجليل في معركة « الجزائر » ! !

لقد جاء انتصار الجزائر . . انتصاراً للانسان ! !

* * *

لقد كفاح الجزائر آية في الكفاح !

كان الشعب كله جيشاً .. والشعب كله بطلا والشعب كله يقدم النموذج الفريد في التضحية والفداء ! !

ظنت فرنسا أن الأمر أمر أشخاص أو أفراد ، فاختطفت « أحمد بن بللا » ورفاقه فى مؤامرة كمؤامرات القرصنة ... وعاش « ابن بللا » فى السجن ، وبقيت ثورة الجزائر ! !

حيوا بطولة القادة . . . الذين عاشوا على أعصابهم ، بين « القاهرة » مقر حكومتهم المؤقتة ، و « تونس والمغرب » منطلق جيوشهم الضاربة ، ومقر مهاجريهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ! !

حيوا بطولة القادة ... الذين أقاموا مركز دعايتهم فى « الولايات المتحدة » ، وزارت وفودهم « الصين الشيوعية » ، وساحت فى أرجاء آسيا ، واتصلوا بالشرق والغرب اتصال الشرفاء ، العالقة بحقهم وكفاحهم ونظافة سياستهم ! !

واختلف القادة كما يختلف الناس ، لأنهم بشر كالناس . . . . وكان الناس ينتظرون منهم أن يكونوا ملائكة ما داموا أبطالاً ! !

لا . . . لن يكونوا ملائكة ، ولكنهم لن يكونوا شياطين ! !

حيوا هؤلاء الرجال ، . . . وشدّوا على أيديهم ، فالطريق أمامهم ما زال طويلا ، والامتحان ما زال عسيرا . . . و « النبل » يغرى الشيطان بالإصرار على الإغراء ، والإغواء . . . « والله خير حافظا ، وهو أرحم الراحمين » ! !

* * *

يقول « جوتييه » E. F. Gautier فى كتابه « ماضى إفريقية الشمالية » « Le Passé du Nord de L'Afrique » :

« لا زالت النتائج التى وصل إليها العرب فى الشمال الإفريقى تدهشنا إلى الآن ... لقد عُرِّب المغرب إلى حدٍّ كبير ، وتحوّل إلى الإسلام تحوّلا تاما عميقا، وهذه نتيجة تدعو إلى الإعجاب مافى ذلك شك ، ولم توفّق إلى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية (كذا !) قامت على وجه الأرض ! ولنكرّر القول إن هذا الفتح أحدث خلال القرن السابع ثورة كبرى ... لقد انهار الحاجز المغلق إغلاقا محكما من كل ناحية — الذى كان يفصل الشرق عن الغرب ! ولو أننا قارنا هذه القفزة الواسعة نحو المجهول بثوراتنا الفرنسية أو الروسية ، لبدت لنا هاتان الأخيرتان صغيرتين جدا ! »

ولقد كان كفاح الجزائر الأخير ، آية مجدّدة فى القرن العشرين ، على أصالة هذا الشعب العريق ... وإيمانه العميق ! !

لقد أسلم الجزائريون عن جدّ ... فوفوا للإسلام فى صدق ! !

لم يسلموا رهبة فهم المحاربون الأشاوس ، ولم يسلموا رغبة فهم الأشدّاء الأصلاء النبلاء ، ولم يكن للمسلمين خزائن ينثرون دنانيرها لاجتذاب الأقطار والأمصار ! !

يقول جوتييه : « إذا دفعنا تطلّعنا إلى فهم الأسلوب الذى تمّت به هذه الثورة الكبرى والإحاطة بتفاصيلها ، استبّنا أن الفتح العربى كان طويلا جدا وعنيفا جدا ، إذ قاومتهم البلاد مقاومة عنيدة » ! !

ولندع جوتييه يقارن — على طريقته ومفهومه — بين فتح وفتح :

« كان الفتح الفرنسى للجزائر طويلا مؤلما ، وكانت قيادته سيئة ، وليس لنا الحق فى أن نفخر به كثيرا ! ولكن لنقارنه بالفتح العربى ، ولنفرض أنه

بين عامى ١٨٣٠ ، ١٩٠٠ طرد الفرنسيون من البلاد طردا تاما ثلاث مرات ، وأنهم لم يحتفظوا فى أحسن هذه المرات إلا بالجزائر وضواحيها — إذا استطعنا تصور ذلك أخذنا فكرة ، عما حدث أثناء الفتح العربى . . » !!

ويغفل جوتييه عن الفارق الضخم الكبير . . . .

الفارق بين «رسالة الإسلام» التى حملها العرب ، وبين ما يحمله الفرنسيون! إن العرب حملوا معهم نداء الفطرة ورسالة الحق ، فوافقوا بالإسلام طبائع النفوس ، ولبوا احتياجات المجتمعات .

وحملت فرنسا « كلمات » مضيئة لا تصل إلى الأعماق ، تظاهرها « أفعال » حقودة سوداء !

وعرفت فرنسا أنها لم تقتلع المغرب باقتلاع راياته وحكامه ، ومحاربة لسانه .. .

إن أمامها « كيانا » راسخا ، لابد من الضرب فى جذوره وأصوله ورواسيه !!

وعرفت أنّ عليها أن تشهد حربا أخرى ، غير حرب المدافع والدبابات والطيارات .. حربا تستهدف « تمييع » العقول ، لا إسالة الدماء !
وكتب « لى شاتليه A. Le Chatelier » فى كتابه «الغارة على العالم الإسلامى La Conqete du Monde Musulmane » :

« ينبغى لفرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنيا قبل كل شىء على قواعد التربية العقلية ، ليتسنىّ لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته ! ومن هنا يتبين لنا أنّ إرساليات التبشير الدينية التى لديها أموال جسيمة ، وتدار

أعمالها بتدبير وحكمة تأتى بالنفع الكثير فى البلاد الإسلامية ، من حيث أنها تبثّ الأفكار الأوربية . . . ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروتستنتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلا ببثّ الأفكار التى تتسرّب مع اللغات الأوربية ، إذ يحتك الإسلام بثقافة أوربا ، وتتمهد السبيل لتقدم إسلامى مادى » ! !

ونفّذت فرنسا الخطة . . .

ونطق الجزائريون بالفرنسية . . . فلعنوا فرنسا ، وحاربوا فرنسا . . .

وانتصرت الجزائر . . . وثبت الإسلام !

وكتب « مالك بن نبى » بالفرنسية فى كتابة « L'Afro Asiatisme » :

«فى الإطار الثقافى الغربى يصبح تعبير (النجاح الصناعى) مقصوداً به النجاح (فى كل شىء ، وتردّ المشكلة الإنسانية إلى (مبادىء ميكانيكية) تأخذ صفة مقاييس ، والواقع أنه من الصعب أن نهرب من سيطرة (الوهم الميكانيكى) فى هذا الإطار !!... وفضائل الغرب ليست سوى فضائل داخلية أنانية لا إشعاع لها ... والعقل الغربى هو نفسه ذاتى أنانى من الوجهة الأخلاقية . . . والغربى لا يحمل فضائله خارج عالمه هو ، فخارج حدوده الأوربية لا يكون إنسانا ، بل أوربيا !! وهو حيثما ذهب ،سواء كان صانعاً أو صحفياً أو مجرد سائح فى بلد متخلف، ينشىء عن قصد أو غير قصد ، حالة استعمارية colonial situation ! !

وإن إخفاق أمريكا فى المشكلة ذات الطابع الإنسانى والأخلاقى ، لا يساوى فى دوّيه شيئا سوى نجاحها فى المشاكل ذات الطابع الصناعى ! ! . . .

إن المشكلات الإنسانية لا تظهر فى العواصم الغربية ، لأن ذكاء العقل الفنى يدركها فى ضوء خاص ، يعرّيها عن مظهرها الإنسانى ، ولا ينظر إليها إلا

فى شكلها الكمّى — أعنى من الوجهة الاقتصادية والاستراتيجية ! ! ! . . .

وحجم الإنسان فى نظر الإسلام ينتج عن (اللانهائية) التى خصّه الله بها ؛ عندما نشهد فى حديث القرآن عن الخلق سجود الكون لآدم ، ثم يطرد الله إبليس لأنه رفض السجود له ! ونحن ندرك كم يكون هذا الأساس مهمًّا لتشييد بناء إنسانية عالمية ، مهمًّا فى اللحظة التى لم تعد تستطيع فيها الإنسانية خلاصاً من مأزقها حيث أقحمتها إرادة القوة إلا عن هذا الطريق : طريق الحضارة الذى يهب للانسان حرياته وأصالته وألوان اختياره جميعا ! ولو أننا أدركنا كم يكون من المفيد فى هذا الطريق أن نأخذ بهذه المبادىء الإسلامية ، فسنرى ضرورة تنشيط هذه المبادىء بإنشاء ثقافة مناسبة لحال المجتمع الإسلامى لتطبيقها بمفهومها الاجتماعى ، وعلاقاتها التاريخية الجديدة . . . » !

والمجال صالح أمام استنبات المجتمع الإسلامى الجديد ، والفكر الإسلامى الرشيد ، والدولة الإسلامية العصرية . . . فى الأرض التى أنبتت البطولات . . .

ومرحباً بالجزائر . . .

مرحباً « بالإيمان » فى أصوله وثماره

فهرس



كتب للمؤلف

- أضواء على التاريخ الإسلامى . . . . (١٩٥٦)
- جهود المسلمين فى الجغرافيا

  « ترجمة عن الإنجليزية لكتاب نفيس أحمد » (١٩٦٠)
- الدين للواقع . . . . (١٩٦٠)
- الفكر الإسلامى والتطور . . . . (١٩٦١)
- مع المسيح فى الأناجيل الأربعة . . . . (١٩٦٢)
- آراء تقدمية من تراث الفقة الإسلامى . . . . (١٩٦٢)
- الإسلام وتوازن المجتمع

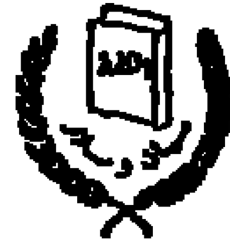
  « ترجمة عن الإنجليزية لفصول من كتاب (الإسلام والاشتراكية) لميرزاحسين » (١٩٦٢)

تحت الطبع :

- القانون الدولى فى الإسلام

  « ترجمة عن الإنجليزية لكتاب الدكتور حميد الله الحيدر آبادى »
- محمد فى كتب اليهود

  « ترجمة عن الإنجليزية »
- الفرد فى المجتمع الإسلامى ، بين الحقوق والواجبات



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين

هذا الكتاب

• « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ..
لهدمت : صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيرا ..
ولينصرن الله من ينصره
إن الله لقوى عزيز »

وبهذه الحيوية .. والفاعلية .. جاء دين الله !

• إن رب الدين هو بارىء الكون والإنسان ... وهو ينزل الدين متوافقا مع نواميس الدنيا ؛ فلا بأس من أن يخوض الدين الصراع .. وتكون هذه آية الآيات : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض » !

• ويتعرض الدين فى العصر الحديث لشتى الهجمات :

— الفلسفة المادية تهاجم الدين فى أساسه .. فى « عقيدة الإيمان »

— والنظم المعاصرة تهاجم الدين فى بنائه ... فى « شرائعه » الاجتماعية والقانونية

— وقوى الاستعمار والاستبداد والاستغلال تتضافر على ألا يكون للدين « كيان » ، حتى لا يكون للشعوب ثبات أمام عدوان

• وهذا الكتاب .. عرض « لدفاع » الدين فى معترك الصراع دفاع « العقيدة » .. ودفاع « النظام » ... ودفاع « الكيان » !

• ويسر « مكتبة وهبة » أن تتولى نشر هذا « الدفاع » وفاء بحق « الإنسان » ... ومطالبه فى الراحة والأمان وتقديرا لدور « الكلمة ... » فهى على الدوام « بيان ، وسلام »

مكتبة وهبة

الغلاف من تصميم الفنان
« حسن أمين »

